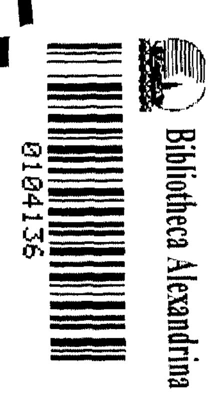
جوليان غرين





لوياثان

ترجمة:
عبود كاسوحة

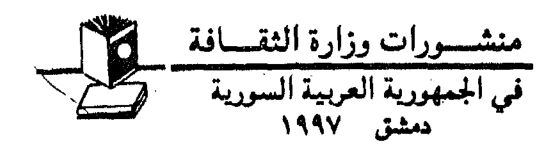



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوليان غرين

لوياثان

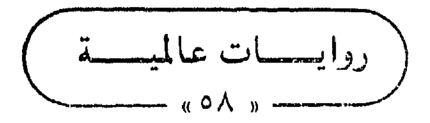
ترجمة:
عبود كاسوحة


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

كتاب :

LEVIATHAN

JULIEN GREEN



لوياثان = Leviathan / جوليان غرين ؛ ترجمة عبود كاسوحة .ـ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ . ـ ٣٢٤ ص ؛ ٢٤ سم . ـ
(روايات عالمية ؛ ٥٨) .

١ ـ ٨٤٣ غ ر ي ل ٢ ـ العنوان ٣ ـ غرين
٤ ـ كاسوحة ٥ ـ السلسلة

مكتبـة الاسـد

الايداع القانونية : ع ـ ١٥٢ /٢/١٩٩٧.

لوياثــان(١)

● « أنت ... شدخت رؤوس التنانين على المياه . أنت رضضت رؤوس لوياثان ... » مزمور (٧٣ ـ ١٤) .

● « في ذلك اليــوم يفتقد الرب بسيفه القاسي العظيم الشــديد لوياثان الحيــة المقومة ولوياثان الحيــة الملتوية ويقتل التنين الذي في البحر . » أشعيا ، (٢٧ ـ ٠١)

● « أمّا لوياثان أفتمسكه بشص؟ أم تربط لسانه بحبل ؟ أتجعل في أنفه أسلة وتثقب فكه بحلقة ؟ ... ليس لأحد جرأة أن يثيره ... من يكشف طرف لباسه ومن يدخل بين صفي أضراسه ؟ من يفتح مصراعي وجهه ؟ إن دائرة أسنانه هائلة. جسمه كصفائح المجان. كأنه مختّم تحت حراشف ملززة ، تتضام بعضها الى بعض فلا تسلك بينها الريح . كل منها ملتصقة بالأخرى فهي متماسكة لا تنفصــل . عطاسه يقدح النور وعيناه كأجفان الفجر . تخرج من فيه مشاعل ويتطاير منه شرر النار ، ومن منخريه ينبعث دخان كأنه من قدر تغلي أو مرجل من نفسه يضرم الجمر ومن فيه يخرج لهيب ... قلبه صلت كالحجر وقاس كالرحى السفلى ... ليس له في الغبراء نظير وقد طبع على عدم الخوف ... » أيــوب (٤١) .

---

(١) لوياثان : حيوان مائي هائل ذكر في الأسفار الشعرية فقط من الكتاب المقدس . (هذه الشواهد من اختيار المترجم .)



القسم الأول

١

حين وصل الى عبارة الخط الحديدي توقف وفكر . قال في نفسه : ما الداعي للاستعجال ؟ سأصل مبكرا على كل حال . لن تكون الساعة إلا الخامسة والنصف . ومن بعد ؟ سأقصد المقهى وانتظر نصف ساعة . وبعدئذ ؟

رفع صوته وهو ينطق بتلك الكلمات الأخيرة وهز رأسه نفياً وكأن جواب السؤال الذي طرحه على نفسه لم يكن مما يرغب في سماعه . وظلّ بعض الوقت ساكنا مقوس الظهر ، ويده على العارضة الحديدية ، ثم صعد دونما استعجال واستند بمرفقيه الى الحاجز . كان بوسعه من مكانه أن يرى المحطة على بعد ثلاثمئة متر من هناك . وهي عبارة عن بناء صغير من الآجر ليس له طابع مميز ، ومن ورائها جادة طويلة مشجرة الجانبين بالحور تؤدي من المحطة الى المدينة . وتتوزع هنا وهناك دارات أثرياء مشرّعة سطوحاً من الأردواز ومتربعة في أعماق حديقة تزينها المساحات المرجة وأشجار الزينة . ويرتفع رتلان مديدان من أشجار الزيزفون عن يمين الخط الحديدي وعن يساره كأنهما ساهران على حمايته .

نقل بصره فوق مختلف زوايا ذلك المشهد واخرج ساعته فأطال النظر إليها مثل من يستغرق في عمل وهو يتفكر في آخر . صحيح أنه ما زال في سن الشباب ، لكنه شباب فيه ذلك الشيء الذي لا يدرك أحد

كنهه . مشوب بشيء من الذبول والمرارة على نحو ما يتبدى لدى أولئك الذين نهشت الهموم أوائل سني حياتهم وافترستها . وهو ذو وجـه ممتلىء من غير لون ، وبشرة رخوة تنبىء للمستقبل عن خدين أجوفين وتجاعيد عميقة ترسم حول الفم ما يشبه الضحك الصامت حين يبلغ المرء الأربعين . وكانت عيناه بلونهما الرمادي الكاشف تتعلقان على نحو قوي بما تحدقان فيه . أما انفه العريض الممتلىء وشفتاه السميكان فتنم على رجل ضعيف الارادة ، لكنه مأخوذ براحته الشخصية وما اكتسبه من عادات وهو قادر على أن يدافع عنها بحزم إذا ما دعته الضرورة . ويبدو أنه حلق ذقنه بكثير من العناية قبل أن يرتدي بزة رمادية غامقة ذات شكل ملائم جداً وقد عقد ربطة عنق سوداء ووضع بأناقة ساذجة منديلا من الحرير بنفسجي اللون في الجيب العلوي من سترته ليظهر نصفه فوق صدره .

انقضت بضع دقائق دون أن يأتي بحركة حرصا منه كما يبدو على الصمت العميق السائد من حوله . أما فترة الأصيل الخريفية القصيرة فشارفت على نهايتها وبدأت السماء تصطبغ بلون وردي .

وانتصب بقامته أخيراً فضرب الحاجز بقبضة يده مثل من يضع حداً لتأملاته ثم تابع دربه فدلف الدرج المؤدي الى الطريق من الجانب الآخر للخط الحديدي . إنه طويل القامة شديد البأس حتى لكأن شعوراً بالخجل يساوره من فرط طوله وقوته فيخفض رأسه ويقوس ظهره قليلا . وبحركة متواصلة كان يفرك كفا بكف وهو يمشي بخطى منتظمة وسريعة تنم على مجرى أفكار مسيطرة ، وكأن شيئاً من هموم الروح يتسرب الى الجسد فيطبعه بايقاعه . وقاده ذلك التمرين الرياضي الى سور أرض واسعة محاطـة بأشجار مهيبة ، وانبسطت باحـة واسعة ممرجة ذات شكل بيضوي تحدها المماشي المتعرجة أمام ما يمكن أن يسمى بقصر صغير ، مصمم على النمط الذي كان سائداً قبل اربعين عاماً . أما نوافير المياه والكهوف المزخرفة بالحصى وأحواض الأزهار فأسبغت

انطباعاً عن ثراء فاحش يستغل للادعاء والغرور . وثبتت على الحاجز المعدني لوحة صغيرة كتبت عليها بخط أنيق عبارة « خلوتي » .

استحوذت تلك الدارة على انتباه المتجول برهة من الزمن فانتزعت منه تنهيدة . ولم يبتعد عنها إلا مرغما . فرجع أدراجه نحو المعبر ثانية . ونظر الى ساعته مرة اخرى فانتابه بغتة فزع من أن يكون قد تأخر بعد أن كان لا يدري كيف يصرف وقته فأخذ يركض .

بدات المصابيح تضاء واحداً فواحداً وهو يسلك شارع المدينة الرئيسي . كان يلهث قليلا بسبب الركض ويمسك قبعته بيده رغم الريح الباردة . وحين صار بمحاذاة الكنيسة انعطف ليسلك شارعا صغيرا على اليمين ودخل مقهى يصدر عنه ضوء أصفر بلون حجارة الشارع . أجال ناظريه في القاعة فتأكد وهو راض من أنه وحده . فالنادل نفسه كان غائبا . وتوجه دونما تردد ليجلس الى مائدة تشغل نصف احدى النوافذ . ولما كان دخوله على درجة من التكتم لم تثر انتباه أحد ، اضطر الى النقر باصبعه على رخام المائدة كي يأتي أحد لتلبية طلبه .

ـ ها هو ذا الآن جالس وأمامه فنجان من القهوة التي يختلط طعمها ورائحتها ، مع كثير من الأشياء الأخرى الصغيرة بالمغامرة الكئيبة التافهة التي مازال يمارسها من أسبوع الى أسبوع ، يقرّب وجهه من الزجاج بقلق لم تخفف العادة من حدّته . فيرى على ذلك النحو دكانين تواجهان المقهى من الجانب الآخر للشارع . وبدت له إحداهما ذات أهمية ضئيلة فكان لا يوليها إلا نظرة عابرة : ذلك أنها مخبز صغير لا يحتل واجهته إلا رغيفان مستطيلان زنتهما اربع أوقيات ، مسندان الى عارضة نحاسية على نحو يجعلهما يجتذبان بسهولة انظار القادمين من الزبائن . لكن يبدو أن أصحاب المخبز ما عادوا يتوقعون قدوم احد حتى إن شعلة مصباح الغاز المتدلي من السقف خبت فلم تعد تنشر غير ضياء باهت ضارب الى الزرقة . أما الدكان الثانية المطلّية بدهان أخضر لوزي فيشع منها في عتمة الليل نور شديد باهر يبدو مسيطراً على

الشارع . امتدت على زجاج الباب كتابة بخط عريض تُعلم المارة أن السيدة أرملة « إرنست برود » صاحبة المكان غسالة كوّاءة للملابس (السميكة والرقيقة) . كما وضعت في الواجهة خمسة أو ستة قمصان رجالية تجتذب الأنظار بنظافتها الناصعة ونضارة طيّاتها . وتنسدل ستارة سميكة ذات ثنيات بيضاء متدلية من قضيبها المحيط بالواجهة فتحجب داخل الدكان عن الخارج ، لكن دمدمة متواصلة تتولى الإفصاح عن النشاط الدائر داخل المكان . وبين وقت وآخر يبرز فجأة راس من فوق الستارة ليلقي على الشارع نظرة عجلى . فيجفل عندها الرجل كأن أحداً ناداه . ثم فتح باب المصبغة على نحو مفاجىء ، وسَمِع صوتاً حاداً يصيح بشيء ، ثم ضحكات ترد عليه . فأثارت اضطرابه تلك الضجة التي جاءت على نحو مباغت . وبعثت دفقة من الحرارة بالدم الى وجنتيه فالصق جبهته بالزجاج ، إنما بنوع من التعطش لرؤية ما بداخل الدكان حتى تشوّش كل شيء أمام ناظريه . فلم يبصر إلا بشرشف معلق على حبل صدمه ببياضه ، ثم رأى ذراع امرأة ، عارياً من المرفق حتى المعصم وقد امتد فأغلق الباب من فوره .

كفّ عن مراقبة الدكان وأطرق برأسه . وزال عن وجهه كل شكل من أشكال التشنج لتحل محله مسحة من مرارة عميقة جعلته يبدو مسناً . وأطلق تنهيدة تعب وخبط بيده على الطاولة ثم وضع بضع قطع من النقود قرب كأس نصف فارغة ونهض . دقّت الساعة الجدارية السوداء تعلن السادسة . وظهر النادل عند تلك اللحظة . شاب ناحل ذو عينين زائغتين . نظر الى الساعة ثم بدت على وجهه ابتسامة ذات مغزى وهو يرى الزبون يتحرك في المقهى جيئة وذهابا .

قال : لن تطول المسألة . ودسّ القطع النقدية في جيبه . إذ ليس من سبيل لإبقائهن الى ما بعد السادسة أو السادسة وعشر دقائق .

فاستدار الرجل نحوه واستند الى المائدة .

قال : اتعتقد ذلك ؟

ثم أضاف بصوت متهدج شبه أجش :

ـ لعلك تعرفهن ؟

أجاب النادل بابتسامة وهو يرفع كتفيه : بشكل عابر . لكن من الواضح يا سيدي أنك في هذه المنطقة منذ مدة غير طويلة .

فسأله الرجل بشيء من الاستياء : ولم تقول ذلك ؟

ـ لأننا نعتقد هنا بأن الفضلى من بينهن لا تستحق عناء القائها في الماء .

وضحك ضحكة صغيرة ساخرة . ثم كفّ وهو يلاحظ عدم جدوى طرفته ليقول بلهجة بوح جاد وهو يمسح المائدة بخرقة في يده :

ـ لولا انك في عجلة من امرك يا سيدي ، لقلت لك كلمتين بهذا الشأن .

ـ لابأس . ماذا بوسعك أن تقول لي ؟

قعد النادل مستنداً الى حافة المائدة وقال بلهجة استخفاف :

ـ إن كانت الكبرى تستأثر باهتمامك ، اقصد السمراء التي تحمل الغسيل الى المدينة فإني انصحك بالحذر : إنها الأكثر شراً والأكثر اختلاساً .

تلفظ بتلك الكلمات ونظر بطرف عينه عبر النافذة فطالع محدثه بوجهه الجانبي الطويل الماكر والفضولي في آن معاً .

قال الرجل بصبر نافد : والأخريات ؟

ـ الأخريات ؟ ولكن ليس غير واحدة ، اذا ما تركنا ربة العمل جانباً والصغيرة التي تساعد في حمل الغسيل .

ثم سأل وهو يوشك أن يغرق في الضحك : ليست الصغيرة على أية حـال ؟

ـ الصغيرة ؟ وهل من يسألك عن الصغيرة ؟ أم أن بوسعي أن أعرف كم يبلغ عددهن هناك ؟

لابد أن اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات قد باغتت النادل فلزم الصمت برهة لا يجيب وقد جحظت عيناه . ثم استأنف قائلاً :

ـ إن كانت الأخرى فتلك أنجيل . لقد ماتت أمها في العام الفائت .

ثم قوطع هنا بحركة بدرت عن الرجل وهو يلمح أحداً قد خرج من المصبغـة .



- ٢ -

شوهد من جديد يسلك الدرب المؤدي الى المعبر . لم يكن القمر قد طلع بعد فبدت الظلمة داكنة . لكن نظره كان يميز في العتمة بقعة باهتـــة مصدرها قميص الفتـــاة الأبيض . فحث الخطى حتى صـــار بمحاذاتها وبات يرى ذراعيها العاريتين وعنقها . لاحظت وجوده فتوقفت فتوقف .

قالت بصوت ينم ّ على الضيق : أنت تمشي بسرعة كبيرة . لو مر ّ احد على الدرب لعرف الكل غداً انك تبعتني . دعني أتقدم عليك قليلا.

وبقيت ساكنة برهة تنتظر جواباً لكنه لزم الصمت وقد تنازعتـــه الرغبة في الإقبال عليها والفزع من ازعاجها . حينئذ سمعها تستأنف سيرها ولم يلحق بها تواً تاركاً المسافة التي تفصل بينهما تزداد بين ثانية واخـــرى .

شق عليه تقديم دليل الطاعة ذاك . فقال في نفسه إنه سيعد حتى الثلاثين قبل أن يواصل سيره . إلا أن وقع الخطى تضاءل فجأة على نحو سريع حتى انتابه القلق فتساءل : ترى هل ستهرب منه أو تختبيء حتى تستهزىء به . ومع ذلك لم يأت بحركة ، بل احس فجأة وهـــو يعاني من مرارة الانتظار ، بتلك المتعة الغريبة التي يشعر بها المرء حين يكبح جماح اندفاعه .

راودته فكرة غريبة . هل من يمنعه من الرجوع نحو المدينة والعودة الى بيته ؟ ورأى نفسه يقوم ، مدفوعاً بنزوة فكرية كتلك التي تنتاب

ذوي الطبيعة السوداوية ، بما هو معاكس لرغبته تماماً ، فيدير ظهره لتلك الفتاة التي تلاشت خطاها الآن وسط الصمت . وتخيل نفسه عائداً الى غرفته التي أبعدته عنها الكآبة والرغبة منذ الصباح . وأحس في توالي تلك الصور بشيء قاهر سبب له اضطرابا . أيكون قادراً حقاً على التخلي عن تلك المغامرة إذا ما أراد ؟ وما الدافع وراء تلك الفكرة الحمقاء حتى برزت في ذهنه ؟ كل المقصود حقاً توالي طرح الاسئلةبينما تكون الدهشة قد استولت على تلك الفتاة لعدم سماعه قادماً ! وتراءى له أن عقله انتزع منه بعض الوقت ثم أعيد اليه فجأة ، فشرع يركض وقلبه منقبض فزعاً من أن يكون قد أطال الانتظار ، فلا يجد على الدرب من أحد .

واخذ وقع اقدامه على الأرض يدوي في رأسه دوي صدمة تصيب صدغيه . وركض بسرعة أكبر حتى أدرك الفتاة بعد بضع ثوان . بدت مغتاظة ...

قالت : كنت تستحق أن أتركك وانصرف . قلت لك فوق المعبر .

كان يلهث ووجهه قريب جداً من وجهها . وميز نظره المتعطش خديها الأبيضين وعينيها في عتمة الليل . فضحك بشيء من الارتياح .

ثم أوضح قائلاً بصوت لاهث : حسبت أنك هربت ، فجريت .

ورفعت كتفيها :

ــ كنت متمسكا جداً بهذا الموعد ؟

فقال وهو يمسك بأصابعها : أما كنت إذن تعرفين ذلك ؟ الا تصدقينني اذن على الاطلاق ؟

سحبت يدها منه بحركة مفاجئة ومشت بضع خطى الى الأمام .

قالت : لا ينبغي لنا البقاء هنا . قلت لك إن ذلك خطر .

تبعها من فوره وسارا معا في صمت . وحين أصبحا على مقربة من المعبر أمسك بيدها بقوة وقال لها :

ــ ماذا عليّ أن أفعل كي أروق لك ولكي تكوني لطيفة بي ؟

فبدت لهجتها رقيقة وهي تجيبه قائلة :

ــ لست أدري . عليك أن تجد تلك الأشياء بنفسك .

ظل الرجل صامتا . ثم شد فجأة على معصمها بقوة أكبر :

ــ قولي لي ، لم تخشين اللقاء بأحد ما على قارعة الطريق ؟

فأجابت دونما تردد : لأني لا أرغب أن يعرف أحد أني أضرب المواعيد .

فقال بغضب : مواعيد معي ؟

ــ أجل ، معك .

ــ أما مع الآخرين فليس الأمر بذي بال ، أليس كذلك ؟ أما معي ، فالخجل ينتابك بلا أدنى شك .

فرفعت الفتاة نحوه عينين ملؤهما الدهشة والغضب . وكانا قد وصلا الى جانب مصباح فتوقفا فجأة وكأن البقعة الكبيرة المضيئة قد أمسكت بهما .

وسألته : مع آخرين ؟ وماذا تقصد بقولك ؟

أما النظرة التي رمقته بها فجعلته يفقد ثقته بنفسه ، فاحمر وجهه .

ــ أقصد أنك لا تريدين أن يعرف أحد أنك تقابليني .

لـــاذا ؟

ـ ليس لي أن اجيب . فأنت تعرفين خيراً مني .

ـ وهل اعرف ما الذي يجول داخل راسك؟ قل لي لم تطرح علي كل هذه الاسئلة والا انصرفت من فوري . فأنا لم آت لأدخل في نزاع معــك .

فتنهد وقد أعيته رعونته :

ـ لا تنصرفي . فأنا اخطأت .

فقالت بلهجة ازدراء : إذا كنت قد جئت بي الى هنا من اجــل أن تعنّفني فإني أؤكد لك انك لن تراني هنا من بعد أبدا .

فأطرق برأسه وقال بلهجة عذبة :

ـ لا ينبغي لنا البقاء هنا ، مادمت لا تريدين لأحد أن يرانا . هيا نجتاز المعبــر .

فسألته من غير أن تتحرك : الى اين نذهب بعدئذ !

نظر إليها الرجل من قبل أن يجيب ، محاولاً أن يتبيّن سلفاً وقع كلماته . وارتسمت ابتسامة وجلى على شفنيه وهو يقول :

ـ كنت سأعرض عليك العشاء بصحبتي .

وضحكت .

ـ العشاء بصحبتك ؟ وأين ؟

فأشار بيده نحو الريف الى الجانب الآخر من الخط الحديدي .

ـ في لورج .

ـ هذا مستحيل . فالمكان بعيد جداً .

ـ بوسعنا أن نركب القطار . سوف يمر بعد خمس دقائق .

لكنها هزت رأسها .

قلت لك اني لن أتعشى معك .

ـ لماذا ؟

ـ الامر يتعلق بي .

ـ هل أنت مستعجلة للعودة الى المدينة ؟ هل ستخرجين هذا المساء ؟

قالت متبرمة : لن أجيبك . قبل قليل كان لديك كلام ستقوله لي . قل لي ما تريد ودعني أعود . فقال متوسلاً :

ـ لا يسعني التحدث اليك هنا تحت هذا النور . لنذهب الى الناحية الاخرى من المعبر . هل توافقين ؟

ورضيت أن يمسك بيدها وهي تدلّل بتنهيدة منها أن ذلك المعروف ينبغي أن يحسب حسابه . ولم ينبس أي واحد منهما ببنت شفة الى حين اجتيازهما المعبر .

قال بلهجة تنم على مرح كاذب : ألست خائفة مني على الأقل ؟

ـ كلا . لكنك تطرح علي أسئلة مضحكة !

ـ اما ان تكوني غير خائفة مني ، فلا يعني أنك تستمتعين بصحبتي أليس كذلك ؟

وأدرك في ومضة اشراق أنه يتحدث على ذلك النحو لأنه لا يدري ماذا يقول ، وأن كلماته الحمقاء تقلل من قيمته في نظر الفتاة . ولم يدفع بها الى أن تقول له : « كلا ، اني لا أستمتع بصحبتك ؟ » فأضاف بسرعة يقـول :

ــ والامر على كل حال ليس بذي بال . كل ما اريده أن تكوني مسرورة وسعيدة . هل تسمعين ؟

ولـم تجـب .

فقال وهو يبحث في إحدى جيوب صدارته : هاك ، لقد جئتك بهدية . كنت أنوي اعطاءك اياها فيما بعد ، لكن ما دمت في عجلة مـن أمرك .. انها خاتم . انظري .

فكررت بفضول : خاتم . آه ، ما أجمله !

وودت أن تأخذه ، لكنه توقع تلك الحركة فاحتفظ به بين ابهامه والسبابة .

كان خاتما فضيا مزينا بقطعة صغيرة من الياقوت .

قال : دعيني على الاقل أضعه في أصبعك .

ومطت شفتيها بنفاد صبر .

ــ كما تشـاء .

عندئذ اقترب منها وأمسك بيدها ، لكنه كان يرتجف بشدة حتى انه لم ينجح في الباسها الخاتم .

قال في نفسه وقد أفزعه ارتباكه : « علي أن اقبض على ذراعها وأضمها الي . قد تذعن الآن . أما فيما بعد فلن توافق » .

وفجأة داخله اليأس فقال على نحو مباغت :

ـ اليك هذا الخاتم ضعيه بنفسك .

ودهشت من لهجته فرفعت نظرها اليه ، وانتابتها الشفقة لمرأى الاسى على وجه لم تعد الرغبة تشع فيه فأمسى لا ينم الا على التعب والضنى .

ثم رفع كتفيه وهو مخذول وقال :

ـ ارى بوضوح أنك لن تحبيني ابدا .

ولم تجب بشيء . فداخله الامتنان لصمتها القاسي من غير شك. لكنه دون قسوة كلامها . ثم اجتازا المعبر ثانية وبلغا مدخل المدينة من دون ان يتبادلا كلمة ما . وحينما كان يوشك أن يتركها توجه نحوها بابتسامة قائلاً : « إلى اللقاء غداً » .

واجتاحه انفعال عنيف امتزج فيه الفرح بالحزن فمنعه من أن يشكرها ، لكنه تابعها بنظراته الى أن توارت عن ناظريه .

* * *

- ٣ -

بينما كان ذلك الحوار دائراً ، وعلى ما يقرب من ستمئة متر من هناك ، كانت مدام جورج لوند تفكر ملياً وهي أمام مرآتها ، بانتظار أن تحين الساعة لتدخل قاعة الطعام . ذلك شكل من أشكال الطقوس الاحتفالية ، ولا يمكن أن يجري من غير استعدادات معينة . ومدام لوند لم تعد فتية ، لكنها تحافظ على اناقتها نفسها منذ ان كانت في الخامسة والعشرين . فلا يسعها الظهور أمام زبائنها قبل أن تغدق على جمالها الذاوي كل أشكال الدعم من حمرة ومساحيق .

كانت جالسة في حجرة صغيرة قائمة بين بابين فتصلح كحجرة خدمة وغرفة زينة في آن معاً . والواقع أن المرء يشاهد فيها طبقية(١) من الخشب الابيض ملاصقة للجدار ؛ كما يرى منضدة زينة مطلية بدهان وردي صارخ تحت المصباح الغازي المتدلي من السقف . وتزدان تلك المنضدة بمرآة بيضوية الشكل كانت تعكس منذ ثلاث أو أربع دقائق وجها ساكناً ذا عينين فطنتين .

أية أفكار تدور في خلد تلك المرأة ، فهي لا تبدو سعيدة أو تعيسة وبدت في انحناءتها القليلة الى أمام وكفاها تستقران برخاوة فوق فخذيها مثل من يشاهد مسرحية . أما نظراتها الثاقبة فتنتقل من جبينها الضيق المحاط بضفائر كستنائية الى الفم الحازم بزاويتيه الهابطتين . (لكن ابتسامة مدروسة بعناية تتولى اصلاح ذلك العيب أمام الناس) . أما بعد انتهاء الجولة حول الوجه فان العينين تعودان لتستقرا على

(١) قطعة رياش توضع عليها الاطباق وأدوات الطعام .

العينين . او رأيتهما لقلت إنهمـــا تسعيان لاختراق هـــذين البؤبؤين الأسودين ، حيث رسم النور نقطتين صفراوين ، لشدة ما في نظرتهما المتفحصة من الحاح يقارب سوء النيات . وتطبق الاجفان بين لحظة وأخرى ، وهي أجفان سمر داكنة بفعل السهر ، ثم تنفتح على النظرة النافذة ذاتها .

كانت ثيابها من الحرير الاسود . فجذعها مشدود بصدار يضيق عليه الخناق حتى العنق ، لكنه يترك للمعصمين البضين المتلئين كامل حريتهما عند طرفي كمين مخرمين فضفاضين . وينم الحجر الكريم الذي يزين خاتما في الاصبع والمشبك الالماسي المثبت عنـــد أعلى الصدر على حرص على الاناقة ، لكن رتوقاً في الثوب عند الخصر شكلها قبيح وعددها اربعة أو خمسة تشي بأوقات عصيبة وضائقة يصعب اخفاؤها . فلون المنضدة الوردي يشكل مفارقة حادة مع المظهر لبائس والكئيب لتلـــك الامتعة المهترئة وذلك الوجه القاسي . فقد بدا وكأنه لطخة مضيئة داخل لوحة معتمة ، وضعت فيها بدافع السخرية أو لتبرز حدة التناقض وعنف الطاقة الكامنة في الرسم .

دقت الساعة لتنتزع مدام لوند من تأملاتها . فانتصبت وانتظرت انتهاء تجاوب الدقات السبع داخل صمت الحجرة قبل أن تنهض. عندئذ لمعت ابتسامة فأضاءت قسمات وجهها وبثت في عينيها حيوية مباغتة . وبدت تلك المرأة كأنها صحت بعد أن كانت مخلوبة اللب وأنها استيقظت من نوم سحري فعادت لاستئناف حياتها . ومسحت بحركة سريعة من يدها على شعرها الملتف في مؤخرة رأسها ثم ألقت نظرة اخيرة على صورتها في المرآة وتوجهت نحو باب قاعة الطعام .

لكنها لم تدخل القاعة من قبل أن تنحني عند حاجز واق وضع لدى الباب ، لتلصق عينها بشق في القطيفة الحمراء التي تغلف الحاجز . وكان بوسعها على ذلك النحو أن تشاهد كل من في المطعم ، كما يفعل القيم على مسرح حين ينظر من ثقب في الستارة فيتفحص وضع المشاهدين .

ومكثت وقتاً ما وهي على تلك الحال مقوسة الظهر مع انثناءة خفيفة في الساقين ساكنة مثل وحش يتحفز للوثوب . وتشيح بوجهها أحيانا وهي تخنق تنهيدة ثم تعود وهي غير قانعة بما رأته عينها اليسرى فتوكل لليمنى مهمة بحث اضافية فتطبقها على فتحة الشق بعد أن تكون قد وسعته برأس بنانها .

وأخيرا تغادر مرصدها وتدخل القاعة فتخطو ثلاث خطوات لترتقي منصة فوقها شبه مكتب تستقر في جلستها وراءه كل مساء . وتشرف من مكانها ذاك على قاعة كبيرة طويلة ضيقة يمتد فيها رتلان من ست موائد صغيرة دفعت لملاصقة الجدار . وقامت في وسط المشى مائدة بيضوية كبيرة يمكنها أن تستوعب اثني عشر شخصا جلوسا . واذا ما سرّحت مدام لوند النظر بعيدا ، الى ماوراء باقة كبيرة من النبتات الشتوية المتربعة في وسط المائدة الرئيسية ، رأت الشارع عبر باب زجاجي مكتوب عليه اسمها بحروف مقلوبة .

تشابكت أصابع يديها فوق رخام المكتب . ماتزال القاعة الان فارغة . فالساعة هي السابعة ومدام لوند لا تجلس هناك الا لتكون قدوة لزبائنها في دقة تقيدها بالمواعيد . وهي تعرف في الواقع حق المعرفة أن شرائح اللحم تمسي بعد السابعة والربع اكثر جفافا وتصير الخضار المطهوة هشة جدا . واذا كان الاعلان المعلق على الجدار يحدد ساعات الوجبات فان ذلك لا يحول بين الناس وبين وصولهم متأخرين . وصدرت عنها زفرة عميقة حملتها نفاد صبرها وتمتمت :

« لِمَ لا يأتون ؟ » قالتها بلهجة ذلك المشاهد الذي ينظر الى الستارة مسدلة فيتساءل : « لِمَ لا يبدؤون ؟ » لكنها لا تجهل أن ذلك يحصل كل مساء . كان حلول الساعة السابعة وبضع دقائق يباغتها كل مساء وهي في مرصدها وراء الحاجز . لقد اكتسبت عادة التطير تلك حين جاء زبونان ذات يوم على غير علم منها ، ومن قبل أن تدخل الى القاعة . وعليها بعدئذ ان تعاني اليأس والملل ربع ساعة ، بل طوال

ربع ساعة بحالها ، تكون يداهــا العاطلتان قد قامتا أثناءها بازاحــة باقة الازهار الصغيرة ، التي تزين مكتبها ، عشرات المرات ، تارة الى اليمين وطورا الى اليسار . وبتحريك دفترها السميك الاسود الــذي كانت تفتحه ثم تطبقه بحركات مباغتة اكثر فاكثر . فهي لا تجيد الانتظار ولم تحاول يوما ان تعرف كيف يتدربون على الصبر . لكن لِمَ لاتعمد الى تبديل موعد العشاء مادام الكل يصلون متأخرين ربع ساعة بصورة دائمــة ؟

اتكون قد أجابت في نفسها على مثل هذا التساؤل وهي تصفق دفتي دفتر حساباتها فوق رخام المكتب ؟ هل ثمة ما يستوجب اضافة خمس عشرة دقيقة الى نهار طويل طويل أمضته بالبكاء ؟ كلا . لكنهــا أعلنت أن المطعم يفتح بابه في الثانية عشرة ظهرا والسابعة مساء . وكلما كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا والسابعة مساء ، تكون هي هنــاك وراء مكتبها .

أخيرا مالت براسها ، وقد عيل صبرها ، ناحية الحجرة التــي انجزت فيها العناية بهندامها قبل قليل وصاحت : « يا غريغوار ! » فرد عليها صوت من بعيد : « هاأنذا » وسمع صرير باب يفتح .

فقالت مدام اوند « هات الحساء » ، من قبل أن تنتظر دخول الشخص الذي نادته الى القاعة .

كان الايعاز بجلب الحساء ملاذها الاخير والوسيلة التي تستخدمها حين يتغلب عليها اليأس . اذ يتراءى لها أن ذلك « يجتذب الزبون » على حد تعبيرها . ذلك انها لاحظت مرارا وتكرارا ان قدوم النادل وهو يحمل الحساء يتوافق وقدوم تاجر الحبوب المسيو غونسولان الذي كان يتناول وجباته عندها والذي كان على نحو عام أول من يدخل الى المطعم . لكنها كانت ترتعدخشية ان يأتي يوم تثبت فيه العملية السحرية عدم جدواها ، ويصل صاحبها تاجر الحبوب متأخرا مثل الاخرين

وأن تفقد الثقة . اذا لم تكن تلجأ الى هذه الوسيلة الا حينما يوشك صبرها أن ينفد .

اسندت وجهها الى كفيها ، ومرفقاها معتمدان على المكتب وأخذت تصغي وهي في وضعها ذاك الى وقع الخطى تروح وتغدو داخل المطبخ . فبدت كأنها ترفع الى السماء اماتة(١) تلك الدقيقة الاخيرة من الانتظار . وليس من طائل وراء الطلب الى النادل أن يسرع . لان جل ما يتمناه هو الانتهاء من عمله بأقصى ما يستطيع من السرعة ليمضي فيتسكع في المدينة . وهكذا مادامت مدام لوند لا تملك أن تجعل المسيو غونسولان يصل في الوقت المحدد أو يتأخر عنه ، فلامناص من ترك الامور تسير على هواها .

وبغتة ازاحت يديها ونظرت امامها . لقد فتح الباب ودخل أحدهم . لكنه ليس تاجر الحبوب ، بل رجل لم تقع عليه عيناها من قبل البتة . وهاهوذا يرفع قبعته ويجلس . ولم تصدق ما رأته عيناها ليقينها الراسخ بأن المسيو غونسولان سيكون أول الداخلين الى مطعمها . وأخذت وهي في غمرة انفعالها من المفاجأة ، تتفحص الغريب بنوع من التمعن حتى رفع نظره بدوره وتأمل مدام لوند وكأنه توقع أن تبادره بالكلام . وحينما رآها تلوذ بالصمت ويحمر وجهها فجأة ، غض الطرف وبسط فوطة الطعام .

شعرت مدام لوند بشيء من الارتباك للدهشة التي بدت على محياها وقالت في نفسها ان ذلك الرجل قد وجدها حمقاء حقا . لكن اضطرابها لم يكن كبيرا ليحول دون ملاحظتها عشرات العلامات الفارقة والتفاصيل في قسمات الغريب وشكله وتسريحة شعره . بل ان عينها الخبيرة رأت فيه مادة تكفيها لتفسيرات وتأويلات شتى . وحاولت أن تتلافى تصرفها الاخرق ، فتصنعت مظهرا من اللامبالاة وبدلت موضع

---

١ ـ الاماتة ، في بعض المذاهب ، تعذيب الجسد تقربا الى الله ولكبح الشهوات ـم.

دفترها الاسود ثم موضع اناء الازهار . كان الرجل حسن الهندام . من أين جاء يا ترى ؟ اذ لا يمكن ان يكون مسافرا بقصد التجارة : فهي تعرف أبناء هذه المهنة حق المعرفة وهيهات أن تخطىء . وهو فوق ذلك لا يرتدي معطفا ولا يحمل حقيبة ، لكنه ليس أحد أبناء البلدة . قد يكون أحد القادمين حديثا الى اورج أو شانتيليا . وجعلت هذه الفكرة قلبها يثب من موضعه . فلاربعة أعوام خلت ، قدم رجلان على هذا النحو للاقامة في شانتيليا . وهي تذكر أن ما انتابها يوم راتهما أول مرة في المطعم كان مماثلا لانفعال هذا المساء . فقد شاعت غرائب المصادفات الا يبلغها نبأ وصولهما ، وهي التي تعلم في العادة كل شاردة وواردة قبل الجميع . فالاحداث المباغتة تلحق بالنساء ، اللواتي يسيطر عليهن الفضول مثل مدام لوند ، اهانة بل خزيا لا يقل عما ينتاب المراقب في برج منارة من مهانة اذا ما عبر مركب من غير أن يلحظه .

وبعد دقائق سادها مزاج متعكر ، تجلى في تحريك متواتر لاناء الازهار الصغير يمنة ويسرة ، راح يفارقها الاحساس بما يشبه شيئا من النقمة على نفسها ، فتشابكت أصابع يديها فوق رخام المكتب ورفعت رأسها مجددا لتلقي على الغريب نظرة طويلة . كان يرتدي بزة رمادية . ويتدلى منديل بنفسجي اللون من جيب سترته العلوي . انه يحني راسه من وقت لاخر ليرفع الى فمه ، وهو في حالة من شرود الذهن ، قطع الخبز الصغيرة . لكن هذا الرجل لم يكن في تصور مدام لوند مثل أي مسافر عادي جاء ليجلس نصف ساعة امام مائدة أحد المطاعم . بل كان رجلا تجهل عنه كل شيء . لذا بات في نظرها ذا أهمية استثنائية . ولم يبق أمامها الا القليل حتى تعده عدوا لها ، وما ذلك الا لانه يعرف أشياء وأشياء لا تخطر منها على بال . فاسمه وعمله وحياته تمثل مجموعة من الاسرار يودها لو تنتزعها منه اليست الكآبة البادية عليه ، وصمته المتعالي تحديا سافرا لتطفلها ؟

لا جرم أنها رأت فيما مضى زبائن كثيرا يجلسون الى تلك المائدة وكلهم ، أجل كلهم تقريبا . بادروها بالتحية وهم داخلون ، وطالعوها

بابتسامة أو بكلمة رقيقة . وفيهم الذين لم يعرفوها من قبل . ومن شأن ذلك أن يفسح المجال أمامها لتسريب اسئلتها ضمن مجرى الحديث الذي يمكن أن يدور بينها وبين الزبون حين يتقدم الى الصندوق لتسديد حسابه .

تلك هي الطريقة المتبعة في مطعم لوند . واذا كان النادل يتولى توزيع فواتير الحساب عند انتهاء الوجبة ، على نحو ما هو متبع بشكل عام ، فان الزبون لا يسدد حسابه في النهاية الا للمعلمة نفسها . اما فوائد هذه الطريقة فعديدة ومتنوعة . لان مدام لوند الجالسة فيعليائها فوق ما يشبه كرسي العرش ، تتمتع بكامل راحتها كي تبتسم بحرية ، وتستفسر ، بل وتبدي فتنتها حين تجد الفرصة مواتية . اما الطرائق التي تعتمدها فتجمع المراوغة والانفة في آن معا ، فتغدق على السامع كلاما غير ذي معنى على نحو ما يسمع من افواه الملكات وترد اليه بقية نقوده بمظاهر من السخاء . لكن تلك المظاهر الكاذبة ذات جدوى على الدوام تقريبا . فالغريزة تقود هذه المرأة على نحو مدهش فتستنفد قواها لتروق في أعين من حولها قصد أن تعرف .

واذا لم تكن تتمتع بكل ماينسب الى بنات جنسها من حس مرهف، فهي تجيد ما ينبغي قوله وما يلزم عمله لتنال حظوة لدى الزبون وتقتنص منه الوعد بالرجوع ثانية . وتتضافر جهودها كلها يوم يظهر امامها قادم جديد . فتلجأ الى سلاح السعر المعتدل وبعض التسهيلات المخادعة في طريقة التسديد لانجاز المهمة . وثمة في الواقع فارق إضافي بين هذا المطعم وامثاله في باريس . فبوسع المرء على سبيل المثال أن يفتح فيه حسابا على نحو ما يفعل لدى البقال او الصيدلاني . واضحت مدام لوند تعرف ، بعد خبرة عمرها اثنا عشر عاماً ، ان من يصبح مدينا لها بعشر وجبات او بخمس او بثلاث فقط يمسي وقد وقع في الفخ . اي يصير من زبائن المطعم بشكل حاسم ونهائي .

لكن كيف السبيل الى اجتذاب انتباه امرىء لاينظر اليك بل لعله لايحس حقاً بوجودك ؟ وما الذي حدا بذلك الأحمق ليأكل الخبز على هذا النحو من غير أن ينتظر وصول الحساء ؟ وبم عساه يفكر ؟ ألا تحس جبهته وكتفاه بوقع النظرة القاسية التي لاتحيد عنه ؟

هاهي ذي قد استعادت الان صفاء فكرها فسعت إلى أن ترسم على قسماتها وتضع في عينيها كل السلطة التي تقدر عليها . لكن أية فائدة تجتنى من ذلك ؟ من الواضح أن هذا الرجل بعيد عن مطعم لوند كل البعد وأنه يفكر في شيء مغاير تماما . وشدت بقبضتها على دفترها . هل سيتكلم في نهاية المطاف ؟ ألن يطلب شطيرة اخرى من الخبز بعد أن يأتي على تلك التي في يده ؟

لكن لم يكن ليخطر ببال الغريب على ما يبدو شيء من نفاد الصبر الذي كان قلب المعلمة يردح تحت عبئه . واوشكت مدام لوند بسبب مرارة الخذلان ان لا تلاحظ وصول تاجر الحبوب الذي أدى لها التحية بتلويحة عريضة من قبعته وعلى مرحلتين حسب الطريقة التي لم تعد متبعة إلا في المناطق الريفية . فأحنت رأسها وقالت بصوت جعله الغم يرتعش قليلاً :

ــ طاب مساؤك يا مسيو غونسولان .

وقالت بجفاء للنادل الذي دخل حاملا إناء الحساء :

ــ هيا اسكب للسيد الجالس في الأخير !

الا كم كانت تودّ لو تعرف اسمه من اجل ان تقول :

ــ هيا احمل الحساء للسيد فلان ، فقطاره سيتحرك في الساعة كذا !

لكنها ، بدلاً من ذلك ، اضافت غاضبة وقد استبد بها الغيظ بسبب ما تجهله من جهة ، وبسبب إمارات الدهشة التي بدت على النادل :

ـ قلت لك هيا ! الا ترى انه اتى على شطيرة الخبز كلها !

بدا الزبائن الآن يتوافدون من غير انقطاع فالباب لا ينغلق الا لينفتح تواً . وكل هؤلاء الناس يسلمون على المعلمة ببشاشة يمازجها احترام. وتقوم هي بإغداق التحيات يمنة ويسرة ، مثل ملكة جالسة في عربتها، وقد أطربها كل هذا الاهتمام الـذي احيطت به فبدات تطيب نفساً وتتعزى شيئا فشيئا .

احدث دخول الأشخاص العشرة او الاثني عشر وجلوسهم الى المائدة ضجة وصخباً بسبب تحريك الكراسي من مواضعها . أما سرعتهم في اتخاذ أماكنهم فتدل على أنهم جميعاً من رواد المطعم . فلقد ملأ لغط احاديثهم القاعة بالدمدمة العميقة المتواصلة الصادرة عن خلية نحل . كان يدور حول المائدة الكبرى نادلان لتوزيع الحساء وعلى صدر كل منهما مريلة بيضاء .

وتألقت مدام لوند منشرحة الصدر وسط جلبة يختلط فيها اللغط بضوضاء الملاعق والصحون . فحياتها تتخذ معناها في هذه الدقيقة . لأنها تعيش من أجل أن ترى تلك الظهور المقوسة والرؤوس المطرقة أمامها ، بل تحت قدميها الى حد ما . ويمكن القول إنها تجد في تلك الهيئات صورة من صور الخضوع . وعدت الزبائن بصوت خافت : عشرة حول المائدة الكبرى وواحد جالس وحده عند المائدة الصغيرة قرب الباب . الا كم تضاءلت أهمية هذا الأخير في اللحظة الراهنة ! فقبل قليل كان يغيظها لان وجوده في القاعة الفارغة بدا على شيء من الاستفزاز ، لكن مادام العدد قد اكتمل حول المائدة الكبرى ، فقد بات متوارياً في ركنه .

واغمضت عينيها نصف إغماضة كأنها تريد أن تستمتع على نحو افضل بذلك الطنين المتصاعد من حولها . وميزت وسط ما يسود العشاء من هرج ومرج ، صوت السيد غونسولان بنبرته الثخينة وهو يسرد بتبجح قصة صفقة رابحة عقدها ، والصوت الأبح للسيد باريزيه

القصير القامة وهو يتحدث في السياسة والسيد ليون وهو يرد عليه مفمغما ، والسيد موريستيل وهو يجادل ابن بلوندو والسيد تريبت ذي الحديث العذب وهو يروي قصة طويلة حول صاحبة منزله الآنسة كلارافون . عندئذ هزت رأسها تعبيراً عن الرضى والتسامح : فهي تعرف هؤلاء الناس حق المعرفة ، تعرف مشاغلهم ومغامراتهم الصغيرة وهمومهم وديونهم وما يملكون . ولا يبدو أن في حياتهم هنيهة واحدة قد افلتت منها ، إذ كانت تداورهم فتطرح عليهم أسئلتها حين يأتونها لتسديد التزاماتهم ، فيزوّدها البعض بمعلومات عن البعض الآخر . والواقع أن جزءاً كبيراً من مهابتها كان يتعلق بطريقة إحاطتها بالمعلومات. فليس من يتذكر مثلها كل اشكال الفضائح أو يعرف كل خفايا البؤس . واما ذاكرتها فلا يفوتها شيء ، بما في ذلك آلاف التفاصيل الصغيرةالتي تحرص عليها كشيء ثمين فتتلقفها ذات اليمين وذات الشمال في عملية تجميع يومية ، لأنها كلها يمكن أن تكون ذات فائدة .

وبعد برهة من الزمن فتحت عينيها مجدداً ورفعت راسها . لقد خطرت ببالها فكرة . اذ تذكرت انها أحيطت علما في الصباح بسفر احد زبائنها الى مدينة مجاورة . ومن أجل أن تظهر أنها تحيط بكل شيء علماً ، ومن أجل أن تبين انها « تعرف » ، قالت على نحو مبالغ وبصوت جهوري طغى على جلبة المائدة كلها :

ــ أراهن على أن المسيو تريبت قد ذهب صباح أمس الى شامبريكور لشراء قبعة جديدة .

فران صمت قصير واستدارت نحوها كل الرؤوس ، وهتف السيد تريبت السمين بعد أن خفت دهشته الأولى قليلاً :

ــ هذا صحيح حقاً يا مدام لوند . وإذا ما رغب المرء في ان يخفي عنك شيئا فسوف يلقى أشد العناء .

وقهقه أولئك الرجـال ضاحكين وحولوا أنظارهم صوب المشجب حيث بدت بين القبعات الرثة الباهتة واحدة غامقـة كأنها تخجل من وجودها في صف زميلاتها . وغمرت قلب مدام لوند بعض الوقت سعادة لا مثيل لها . وتألقت وسط ضوضاء الاطناب مثل نبتة غمرها النور. ففتحت دفترها الأسود وتظاهرت بالقراءة متصنعة اللامبالاة بينمـا يخفق قلبها مفعما بالفرح . أما ذلك المستقر في ركنه البعيد فقد رآهـا هذه المرة وسمعها . ولم تفتها ومضة حيرة برقت في عينيه . لعله يعرف الآن حقيقة المعلمة وانهـا امرأة ذات تأثير وسـطوة ، تجيد محاورة الرجال . وان عينيها تحيطان بكل شاردة وواردة . ومدت يدها وقـد امتلأت نفسها بالرضى ، فأزاحت إناء الازهار الى اليمين قليلا ، بحركة الفوز التي يقوم بها لاعب الشطرنج حين يزيح قطعة تربك تفوق الخصم وتحول نصره الى هزيمه .

الحق أنها لا تستطيع التباهي منذ الآن بفوزها في الجولة ، لكـن بات واضحاً أن كلمتها قد فعلت فعلها . فبدا الرجل كمن آب الى نفسه واستعاد حواسه بغتة فأخذ يوجه صوب مدام لوند نظرات حائرة لرجل مشدوه أيقظوه من نومه على نحو مباغت . وتهللت فرحاً لمرأى امارات الذهول التي جاءت لتثأر لها ممـا كانت عليه قبل قليل من انكماش وارتباك . فقد آن أوان شن الهجوم . إذ لا ينبغي أن تدع العدو وقتا لاسترداد انفاسه . وحين مر أحد النادلين على مقربة منها مالت صوبه قليلاً وقالت بسرعة :

ــ دع عنك وعاء الحساء واذهب الى السيد الجالس في الاخـير ، واسأله إن كان راغباً في أن نحجز له مكانه وفوطته . تصرف بكياسة. أليس كذلك ؟

لكن ما كاد النادل يدير ظهره حتى انتابها شعور بأنها ارتكبت خطيئة فأوشكت أن تستدعيه . كيف سيقوم غريغوار السمج هذا بانجاز المهمة الموكلة اليه ؟ قد يكون من الأفضل انتظار قدوم الغريب

ليسدّد حسابه . فثقتها بالنادل ضئيلة جداً . الا أن شيئاً ما ظل يمنعها من التدخل : فهي تريد أن ترى ماذا سيحصل وتريد على الفور أن تعرف . فالتطفل الجنوني المتعاظم كان يدفع بها دفعاً نحو ذلك الرجل . وأمست منذ لحظة لا تشاهد احدا سواه ، جالسا بمعزل عن الآخرين كأنما هو راغب في التفرد عن باقي الزبائن واجتذاب انتباهها . هل اختار الجلوس في مكان ناء عن الآخرين لو لم يكن راغباً في اثارة غيظها ؟

وبدا لها أن النادل تعمد التثاقل في مشيته وأنه دار حول المائدة الكبرى ببطء شديد . فمدت رأسها الى أمام لتتابع هذه الرحلة التي بدت بلا نهاية وانتصبت قليلا وهي عاجزة عن احتواء صبرها النافد . اما حين بلغ غريغوار المائدة القريبة من الباب فقد أصاخت السمع علها تلتقط ما يقال ، لكن بلا طائل . وتطيرت مع ذلك من هيئة الذهول التي بدت على قسمات الغريب فتمتمت عدة مرات بلهجة غاضبة : « يا للابله ! يا للابله ! » من غير أن توضح اكثر بأي الرجلين ينبغي الصاق هذا النعت . وأدركت أن الغريب استفهم ثانيــة وراته من ثم ينهز بكتفيــه اعرابا عن جهله .

أغمضت عينيها خجلا ولم تفتحهما الا حين أصبح غريغوار امامها .

ـ أجل ، ماذا قال لك ؟

ـ قال إنه سينتظر نهاية العشاء حتى يجيبني فجهرت له مدام لوند بالقول لتجعل كلامها مسموعا :

ـ بكل تأكيد . فهذا السيد على حق لانه لا يريد أن يكون رأيا عن الطعام قبل أن يتذوقه . فهل كلفتك بأن تذهب لتطرح عليه اسئلتك الآن ؟

وغضّت من صوتها لتضيف بلهجة متوعدة :

ـ اياك أن تتفوه بكلمة . هيا انصرف . عد الى المطبخ . يا لك من غبي !

لم يتابع الحضور من ذلك المشهد الا نهايته فكفوا عن الكلام وهم يرمقون المعلمة بدهشة . فحدجتهم بنظرة صاعقة ثم قالت بحده :

ـ هل للسادة الكرام من حاجة في شيء ؟ شيء من لخبز أو الماء ؟

واتخذت من أحدهم ، على غير تحديد ، هدفاً تصب عليه جام غضبها . مثلما تنقض معلمة على تلميذ كسول :

ـ ماذا ينقصك يا مسيو بانسو ؟ أيكون الحساء غير لذيذ ؟ أم أنك تعرف أماكن اخرى طعامها أطيب ؟

وتشابكت أصابع يديها وتصنعت الهدوء لكن بعد أن خرجت عن طورها وارتجف صوتها . فمضت تقول :

ـ أماكن ، أماكن أسعارها اكثر اعتدالا من أسعارنا وتسهيلات الدفع فيها أكبر ، أليس كذلك ؟ ها أنت مدين لي بست وجبات يا مسيو بانسو . فهل طلبت اليك مرة واحدة أن تسدد لي حسابك ؟

مسح السيد بانسو ، وهو شاب منزوف رث الثياب ، بأصابعه زجاج نظارته الذي غشاه بخار الحساء الساخن ، وبدا كأنه راغب في النهوض ثم عدل عن رأيه فبقي جالسا . ثم همس قائلا :

ـ كلا . فكررت مدام لوند من بعده .

ـ كلا . أنت على حق يا مسيو بانسو . فأنا لم أزعج زبونا في حياتي قط .

كان لتلك الكلمات وقعها وسط صمت كنائسي . فلم تند عن المائدة الكبرى ، وقد حوّم نظر المعلمة المهيمن من فوقها ، همسة واحدة . أي سحر ذاك الذي مكنها من السيطرة على أولئك الطاعمين الاحد عشر وايقافهم عند حدهم حتى غضوا الطرف أمامهم كأنهم تلامذة مذنبون ؟ وأية لعبة من تصفية الحسابات لعبتها معهم حتى لم يجرؤا على الاحتجاج على تعنيفها ؟ ان الحسابات الكثيرة المؤجلة هي ثمن الخنوع الذي أرغمتهم عليه وليس في ذلك من شك .

واستمتعت هنيهة بما تسببت به من وجوم فتفتح منخراها . عندئذ رأت الغريب ينظر اليها وادركت انه يتفكر فيما سمعه من كلام فاغمضت اجفانها كيما تسترجع لذاتها مشهد النصر الذي حققته ، وتتأمله في فكرها .

ومضت بضع ثوان من التردد ، تبادل الطاعمون النظر بعدها خلسة، واطرقوا برؤوسهم على نحو من الاشتراك في الذنب . واعقبت ذلك فترة طويلة ، لم يسمع أثناءها الا صوت تناولهم آخر ملاعق الحساء .

انتهى العشاء في جو من الكآبة . فحال القلق دون استئناف اولئك الرجال الحديث على وتيرته نفسها فأمسى الكلام المتداول فيما بينهم بصوت خافت ذا طابع من الوجل والقهر . وباتت تلك الامسية بالنسبة لهم من دون طائل . وصار بوسع المرء أن يتبين اتفاقا صامتا فيما بينهم يحثهم على الاسراع في عشاء لم يعد يحمل لهم أية متعة .

وظلت المعلمة وهي في عليائها تنقل النظر بين تلك السحنات الخائبة وتدون عدد الاطباق التي تحمل في صمت . كانت بوجهها المتجهم أشبه بطاغية يمعن النظر بعد البطش فيما جنته يداه . الا أن نظرتها اظلمت أكثر . فهي ستكسب الجولة من غير شك وغريزتها أحسنت إرشادها . ورأت بحدسها في الغريب الذي يتعشى عند طرف القاعة كائنا ضعيفا وتعيسا . وأنه فار من وجه شخص ما او هارب من شيء ما . وهي عازمة على أن ترغمه بقوة سلطتها فقط على اللجوء اليها . قد لا يكون من ناحيته على دراية بالامر بعد . أما هي فواثقة من ذاك كل

الثقة . وعليه فهي حاليا غير مبالية . وهذا الواقع بحد ذاته ينبئها بنصرها . ذلك أن من أغرب نزوات طبيعتها فور معرفتها بالسيطرة على فريستها ، احساسها لبعض الوقت بأن تلك الفريسة أضحت غير مرغوب فيها . ولتجديد استمتاعها ينبغي بروز عائق جديد في فترة راحتها كيما تتذوق مجددا طعم الفوز وسط غمرة الكفاح . أي ينبغي باختصار قيام الفريسة بمحاولة للتمرد والتحرر وهذا هو مصدر الازدراء الذي يعتمل في نفس مدام لوند تجاه زبائنها . فهي تمقت خضوعهم ولا تقوّم طاعتهم الا بمقدار ما تناضل للحصول عليها والاحتفاظ بها .

مرت سنون وهؤلاء الرجال يأتون لتناول الطعام امامها خاضعين فتضبطهم كالاولاد وتوبخهم دونما انقطاع . لكن اذا كانت لا تستغني عن رؤيتهم وهم على تلك الحال من العبودية المعنوية فان روحها المتعطشة لا تلقى داخل فوزها نفسه غير العدم . وهي تتمتع في الواقع بما يقوم مقام الذكاء لدى الاشخاص الموهوبين : انه حدس عميق بالناس والاشياء يسمم سعادتها من غير أن يهبها القوة للتخلي عنه فتغشى نفسها نوبات من الكآبة تنمحق فيها حياتها بكل تمهل .

ايستحق ذلك الغريب الذي يتباطأ الآن في تقشير تفاحته ، كل ما بذلته من عناء بغية استعباده ؟ أيكون قوام حياتها كله مراقبة الرجال الذين يغشون مطعمها ومنعهم من الذهاب الى مكان آخر ؟ ويأتيها من داخلها صوت ودت لو تستطيع إسكاته فيقول : « اجل ، تلك هي الإمرة ، إنها التنطع لقيادة رجال أضعف من أن يقووا على مقاومتك ، والتوجه إليهم زجرا مثل قائد لجنوده . وسوف يسلبك الموت ومصادفات الحياة واحدا أو اثنين منهم بين وقت وآخر الى أن يأتي يوم يأخذك الأجل فيه أنت ايضا . بعدئذ يغلقون مطعمك ويبعثرون أموالك ، ويتكلمون بعض الشيء على مدام لوند ، تلك التي كانت تعتمد أسعارا رخيصة جدا ، ثم تمحي ذكراك من كل الحافظات ، وكأنك لم تمري في هذه الحياة » .

وعلا صدرها . ما الذي يجعلها تشعر انّها حزينة جدا على هذا النحو المباغت ؟ أليست موضع تقدير في المنطقة كلها ، بل مكرمة وذات نفوذ أيضا ؟ فبماذا ترغب علاوة على ذلك ؟ وانتزعها الطاعمون من تأملاتها حين شرعوا ينهضون متوجهين نحو مكتبها واحدا فواحدا ، لتسديد ثمن الوجبة أو لطلب مهلة . وهكذا عادت الى نفسها ، فقست ملامحها ، واسترجعتها مهنتها على نحو تام . الا يريد المسيو غونسولان ان يدفع أيضا ؟ الا يزال متمسكا بمراكمة الديون الصغيرة ؟ لا بد من عقد الحاجبين قليلا على نحو يتناسب وخطورة هذا الوضع . يلزم الانتظار هنيهة لتدوين اسم السيد غونسولان في دفترها الكبير . والسيد بلوندو كذلك لا يدفع ؟ لابأس يا مسيو بلوندو ، لكن حذار ! هنيهة أيضا من أجل السيد بلوندو . ثم أقبل السيد ليون ودفع . وهذه ابتسامة للسيد ليون . والسيد غورش كذلك ؟ نعم ما فعل ! إنها الوجبة الرابعة من غير نبيذ ، أليس كذلك ؟ (بلا نبيذ بسبب العجز المعروف الذي يعاني منه السيد غورش . ومدام لوند على علم بالأمر) . وهذه ابتسامة للسيد غورش .

نعم يا سيد ؟ ذلك هو الزبون الجديد . وناولها قائمة حسابه . فأخذت الورقة بحركة رشيقة من يدها وهزت رأسها من غير أن ترفع عينيها . وسألته بهدوء :

ــ هل أوضح النادل الأمر لك ؟

ــ أجل ، يا سيدتي وأنا اود أن ادفع .

ــ ما دمت عازماً على العودة ، فسوف أبقي حسابك جانباً .

ــ لكني لا أعرف هل اعود أم لا .

نفذت تلك الكلمات كنصل خنجر الى قلب المعلمة . فرفعت ناظريها وتفحصت الغريب دون أن تقوى على التفوه بكلمة . أيمكن أن تكون قد أخطأت التقدير ؟ وهل سيفلت هذا الرجل من بين يديها رغم كل شيء ؟

فمظهره ينم على شدة وجله ، وكانت قبل هنيهة واثقة من أمره كل الثقة ! ما من شك في أن زلة لسان غريغوار ، ذلك الأحمق الذي لم يعرف كيف يتصرف بكياسة ، تسببت في هذا كله . كان الواجب يقتضي أن تتولى بنفسها شرح عادات المطعم لهذا السيد (عادت تعتبره سيداً نتيجة ما أبداه من مقاومة .) أما الخجل خوفا من تلقي الصد أمام الزبائن اجمعين فقد تبدت آثاره على وجه مدام لوند . فلو كان يحمل حقيبة على أقل تقدير ، لأدرك الجميع أنه مسافر ، وأن وجوده في لورج مؤقت، على سبيل العبور . ولكن ما دام لا يرتدي معطفا ، فدليل واضح على انه يقيم في مكان قريب .

تسببت الاصابة التي استهدفت زهو تلك المرأة بألم شديد لها ، حتى حسبت أنها على وشك أن تنفجر غماً ، لكن نوعا من الالهام جاء فجأة يشد من أزرها . فنقلت نظرها واستعرضت بتمهل وجوه الزبائن وقد أصاخوا السمع للمشهد ، فاستعادت الثقة ، لما قرأته على وجوههم من خوف غريزي ، فأخذت الفاتورة التي ناولها إياها الغريب فمزقتها اربع قطع . ثم أعلنت بصوت عال وقوي :

ـ القاعدة العامة هنا أن الوجبة الأولى لمن يألف المطعم لا يُدفع ثمنهـا أبداً .

وأجالت نظرها مجددا على وجوه الزبائن وكأنها تتحداهم أن يردوا فلم تبدر عنهم حركة ما . إلا أنهم كانوا جميعا واثقين من أنهم قد سددوا قيمة وجبتهم الأولى عند مدام لوند . بيد أن ذهولهم وفزعهم من إغاظة تلك المرأة أبقيا شفاههم مطبقة . وبحركة غريزية ازداد اقتراب بعضهم من بعض فأحاطوا أكثر بالغريب الذي ظل صامتا . فوجهت المعلمة نحوه كل انتباهها واضافت تقول بلهجة حازمة :

ـ احسب أن السيد لن يبخل عليّ بمتعة تقديم هذا العشاء الأول إليه بصورة مجانية .

ثم استغلت دهشة الغريب والقبول الضمني الذي قرأته في أعماق عينيه ، فتغلبت على انفعالها (ماذا بوسعها أن تفعل بعد كل شيء لو أنه رفض هبتها ؟) وفتحت دفترها بشكل مفاجىء ، وقدمته إليه مشيرة باصبعها الى صفحة بيضاء . ولن تكون مضطرة على ذلك النحو لأن تسأله عن اسمه فتعترف أمام الجميع بجهل عانت منه الكثير .

وقالت من غير ان تقوى على تمويه رعشة خفيفة في صوتها :

ــ أرجو أن يتفضل السيد بالتوقيع هنا .

أحست بجفاف في حلقها . لقد أمسك بالقلم . لماذا لا يقوم بتدوين اسمه ؟ هل يوجّه اليها اهانة بحضور زبائن المطعم كافة ؟ لقد ضـــاق صدرها أخيرا من هذا الرجل الذي يقاومها وطفح بها الكيل . إن لم يوقّع فستصفعه .

وقال بعد لحظة من التردد :

ــ ذلك أني لا أدري متى يمكن أن أعود .

ثم رفع ناظريه إليها وبدا أنه يبحث عن حل لتلك المعضلة في عيني المعلمة . ودقق كل منهما النظر في الآخر بضع ثوان . كان الرجل ذا وجه يفيض حزنا ونصبا . ماذا يريد منه كل هؤلاء الناس المحيطين به وتلك المرأة التي بدت كأنها تتملى بالنظر إليـــه ؟ وشعر كأنه متهم في محكمة أبلغ عنه أمام القاضي حشد من الشهود .

اجابت مدام لوند وهي مطبقة أسنانها :

ــ حسبي ان اعرف أن السيد سيعود ذات يوم .

قد يكون ارتاع من اللهجة التي قيلت بها تلك الكلمات حتى أطرق برأسه ووقع . فأدارت المعلمة الدفتر على الفور فالقت نظرة نهمة على التوقيع وقالت وهي تومىء برأسها :

ـ الى اللقاء قريبا ، يا مسيو غيريه .

واستعادت من ثم كل قوتها ووقاحتها لتقول بصوت جاف ، كي تستمتع بالقسوة على جمهورها من جهة ، ولتقدم لزبونها الجديد فكرة عن سلطانها :

ـ هيا أيها السادة ، لا تتباطؤوا ! ينبغي إخلاء القاعة في خمس دقائق . فليس لدي من وقت أبدده هنا . هيا فليتقدم التالي !

واستراحت في قعدتها وأزاحت بحركة انتصار إناء الأزهار الصغير ناحية اليسار . فلقد كسبت الجولة .



- ٤ -

حين اغلق غيريه وراءه باب المطعم خطرت فكرة على باله . وهي فكرة مألوفة ، تعتاده منذ سنين في لحظات الاضطراب العنيف : « إنه القدر ! إنه قدري . » وتطمئن نفسه لهذا التوكيد ، مثلما تطيب نفس كل كائن ضعيف حين يجد مصيره بين يدي قوة عليا ، ولو كان سيعاني العذاب ، بل ولو كان سيعدم حياته . ولا يعود له من بعد أن يقرر اي شيء من ذاته . فالاحداث الصالحة أو الطالحة سوف تقع تلقائيا . وما دامت تلك المرأة تلح عليه أن يعود إليها فسوف يعود اذن . وهو يرى في ذلك مؤشرا يوحي بأن ارادة غامضة تتحكم بوجوده .

ففي الصباح ذاته استبد به على نحو مباغت فرح بليد حينما تحسس في جيبه الخاتم المخصص لانجيل . ماذا او نجح في مسعاه آخيرا ؟ فالاعتقاد لم يساوره حتى ذلك الحين بأن الأمر ممكن . لانه عندما يرغب في شيء رغبة عنيفة يكون واثقا من أنه لن يحصل عليه ابدا . فالحياة علمته ذلك ، لكنه اعتقد هنيهة قصيرة ودونما سبب بأنه سينجح . فقال في نفسه : « سوف تفهم ولو لم تكن تحبني اني اعاني أقسى العذاب . » وبدت ساعات القلق الطويلة في نظره ذات ثمن بخس إذا ما قورنت بلحظة السعادة وقد لاح له اقترابها .

تذكر الآن ، وقد حل الليل وشعر بوحدته وخذلانه ، ذلك الوهم الذي ساوره في الصباح ، فهز رأسه . وانتابه الاحساس وهو في نهاية يوم على تلك الشاكلة ، بأن أعواما كاملة قد مرت في بحر بضع ساعات. وانه امسى بغتة عجوزا . عندها اغرورقت عيناه بالدموع على نحومباغت

وهو يتفكر في مرحلة شباب يسرقها منه الزمن . واتخذت كل المغامرات الدنيئة التي خاضها حتى الآن نفس المظهر من الكآبة والرتابة . فاستعاد بحركة طبيعية لديه نفس الصورة التي كان عليها قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة ؛ وقلبه مثقل بالرغبات ومفعم ذاتيا بوعود عالم يتكشف شيئا فشيئا . فما هو كنه ذلك العالم الذي لمحه في حلم عذب ؟ وإلام آل سحر المراهقة ذاك ؟ ها هو لا يجد في الذكريات التي تعتاده الآن إلا مرارة الخيبات الأولى وبؤس واقع شحيح ، وهول الكلمات والحركات ومالاً يعطى ويؤخذ دون كلمة واحدة . ومن ثم الزواج وجروحه وضغائنه ، وما ينبغي التحلي به من صبر للعيش كل يوم بصحبة مخلوق مل صحبته منذ سنين ، والتسميم المتصاعد لحياته كلها .

توقف واستند الى جدار احد المنازل . اذا كان الماضي يمنحه كل تلك الضمانات لتنكيد لاحق فأي خير يأمله في المستقبل ؟ ولم يقول في نفسه إنّ الحياة قد تحلو بعد عام أو بعد عامين ؟ أليس غبيا مثل غبائه السابق وهو ينتظر ضربة كريمة من حظ تغمره بفرح فائض ؟ وبعد عشر أو خمس عشرة سنة ، حين يمسي عجوزا خائبا ، الن يقعد يئن ويندب سذاجته الماضية كما يفعل اليوم ؟

هبت الريح بأسى في الشارع المنزوي ذي النوافذ المعتمة ، فأحدثت دمدمة شبيهة بصوت انساني ، ثم توقفت على حين غرة مثل شخص لم يعد يعرف أين بلغ به السرد من حكايته . لا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت التاسعة لكن الليل في المدن الصغيرة المنعزلة مثل مدينة لورج ، لا يتعرض لنفس عمليات انتهاك الحرمات التي تصيبه فيالمواصم فتبهره بأنوارها الساطعة . وعليه فقد بلغ بول غيريه ، وسط الظلمة ، الطريق الرئيسية المؤدية الى شانتيليا .

ولم يقو وهو يجتاز عبارة الخط الحديدي أن يحبس زفرة . لم يمض غير شهر واحد مذ أن استقر في المنطقة وهذه نفسه تعاف كل ما يراه . وما انقضت عليه إلاّ أيام قلائل وسط هذا المنظر الجديد الذي

ظن أنه سينسى فيه كل سأمه ، حتى عاد يجد نفسه على مثل ما كان . وضع يده على عارضة الحاجز في نفس المكان الذي رأى انجيل تضع يدها عليه . ويا لحياته المفترة في أن يلقى الضنى من أجل مخلوق سينساه يوما مثلما نسي آخرين كثيرين . وأن يتحول عن هذا الكائن ليحمل رغباته الى موقع آخر ، والرغبات هي نفسها على الدوام ! حاول أن يتذكر وجهها بالضبط . ففي المساء نفسه راقبه بفضول محموم كأنما قد سعي ليعوض بجرأة النظر عن الارتباك الذي أصاب لسانه ويديه . إلا أنه عجز عن رؤيته . حاول عبثا وهو يغمض عينيه . لكن القسمات أفلتت منه . واذا لم تكن القسمات كلها، فقد أفلت منه على الأقل شيء ما في طريقة تكوينها ، أي ذلك العنصر الذي يتيح لك تمييز شخص ما من النظرة الأولى . ذلك أنه تذكر ، وهو يُعمل التفكير ، شكل أنفها وشفتيها وحتى تعبير عينيها ، لكن الصورة التي رسمتها ذاكرته ظلت تنقصها الحياة وظل الوجه يفرّ منه مع بقائه على مقربة منه ، مثلما يلوح للبال اسم ما دون أن يتوصل الفكر الى ايجاد حروفه .

واعترف في دخيلة نفسه : « معرفتي بها اذاً رديئة جداً . فكيف لي أن أقول إني أحبها ذلك الحب الجم ؟ » لو رآها غداً للقي عناء في التعرف إليها من الوهلة الأولى ، وشيئا فشيئا ستستعيد في نظره شكلها الحقيقي . ومن تلك التقلبات في التذكر وتبدلات وجه يظهر ثم يختفي تارة إثر أخرى ، كان يقرر ، بحكم عادة قديمة تعودها قلبه ، مدى عمق رغبته .

حين وصل الى شارعه رفع رأسه وعبس لرؤية نور في نافذة غرفته . كان يأمل أن يستطيع النوم من فوره ، وإلا فإن زوجته التي لايحبها ستطرح عليه اسئلة مقيتة ، اسئلة تعتقد أن من حقها أن تطرحها عليه لأنها زوجته . وخطرت بباله فكرة البقاء خارجاً والتجوال في البرية الى أن ينطفىء ذلك النور الذي يرقبه مثل عين مفتوحة . لكن حاجته إلى النوم ونسيان عنائه حولته عن فكرته بسرعة . فدخل بيته وصعد الدرج .

كانت زوجته ساعة دخوله منهمكة باعادة ترتيب الغرفة ودفع الكراسي لمحاذاة الجدار . إنها امرأة طويلة القامة ماتزال شابة ، لكنها على درجة واضحة من الدمامة رغم أنها قد تروق للعيون لما هي عليه من صلابة وصحة . إنها تذكرك بفلاحة علمتها المدينة ان تزدري رأسيتها[1] وخمارها وتنورتها المخملية ، فأرادت أن تلبس مثل سيدة مدنية من غير أن تقوى على التحرر من ميلها الى الثياب السوداء . كانت قبعتها التي لم تنزعها بعد تلقي بظلها على وجهها . أما اشكال جذعها القوية فتتجلى تحت قماش صدارها اللماع . وتحزم تنورة من الصرج[2] أعلى الساقين ولا تتراخى إلا عند الركبتين .

قالت وهي تستدير : « ها أنت قد عدت » .

علّق قبعته على المشجب وجلس قرب منضدة مستديرة تحتل وسط الحجرة .

قال : « اجل » من غير أن ينظر اليها وفتح جريدة وجدها في متناول يده ، لكن عينيه كانتا تتنقلان من مقطع الى اخر من غير أن تتوقفا عند أي واحد من انباء الساعة الأخيرة . الا ما اثقل هذه الدقيقة عليه ! وما أشد ما تثير نفوره ! هناك شيء ما يلزمه على رصد حركات زوجته فيسعى رغما عنه ليخمن ما ستقوله . ورآها تتردد برهة ، وتهم بطرح سؤال عليه ، ويدها مستقرة دون شك فوق مسند الكرسي . اخيراً نزعت قبعتها وقالت وهي تجلس قبالة زوجها :

ـ الا تسألني ماذا فعلت وإلى اين ذهبت ؟

فتظاهر بأن قراءته انقطعت وقال : وماذا بعد ؟

---

(١) رأسية : غطاء نسائي للرأس شائع في الريف الفرنسي . «م» .

(٢) صرج : نسيج صوفي متين .

ـ هل يروق لك ان تعرف انني ذهبت الى المخزن ؟

فسألها : وهل دفعوا لك ؟

أومأت برأسها إيجاباً . وجعلته قسماتها الضخمة القريبة منه جداً يبدو كالأحمق ، لولا مسحة خفيفة من الحزن تطفو على صفحة وجهه . ولم يتهرب من القيام بمقارنة فكرية بين هذه السحنة ومحيا انجيل . وتساءل عن نوع القوة ، بل عن نص الاتفاق الذي يمنعه من القيام فجأة ليقول الحقيقة لهذه المرأة ، ويوضح لها أنه اثناء حديثه معها لايفكر إلا في واحدة أخرى ، وأن قلبه وعقله تحوّلا عنها ويتهربان منها .

قال بلهجة آلية :

ـ اليس الموعد مبكراً ؟

فهزت رأسها مجدداً وسألت قائلة : وانت ؟

استقرت عليه عيناها الزرقاوان بإلحاح ضايقه . وبدا له أن تلك وسيلة تستخدمها لإرغامه على الرد . كان فيما مضى يهوى هاتين العينين ويتأمل لونهما الدافىء بعض الشيء وشكلهما اللوزي ونوعاً من لهيب مرح كان يراه متألقاً فيهما على الدوام . أما الآن فهذه النظرة الفتية التي ظلت كامنة في وجه هرم ، تبدو له شكلاً من أشكال الهزء . فقال في نفسه : كل مافيها من فضل يزيد مافيها من سوء حدة .

اجاب بصوت عالٍ :

ـ انا استلمت اجري كالعادة .

ـ ومتى ستطلب علاوة ؟

فكرر قائلاً وهو يخفض جريدته :

ـ علاوة ؟ أليس لديك من شاغل غير هذا ؟ وهل تحسبين أن المرء يطالب بعلاوة بعد ثلاثة اسابيع فقط ؟

ـ مضت أكثر من ثلاثة اسابيع ، يا بول . فنحن وصلنا الى هنا في شهر آب .

ونهز بكتفيه :

ـ لست إلا طفلة . ولن أطلب شيئاً قبل نيسان أو أيار .

فأجابت بهدوء :

ـ لن نكون في رغد من العيش هذا الشتاء . هل فكرت بكل النفقات التي تكبدناها بسبب الانتقال ؟

فحدّق فيها ملياً وقال :

ـ إلامَ ترمين بقولك ، يا ماري ؟ أأنا المسؤول إن كنا لسنا أغنياء؟ أم أنك ترين أني لا أعمل ما فيه الكفاية ؟

ـ أراك تعمل ما فيه الكفاية ، لكن هؤلاء الناس الاغنياء لا يدفعون لك الأجر المناسب .

ـ هل فهمت قصدي حين قلت لك إن المرء لا يطلب علاوة في غضون بضعة أسابيع ؟ العلاوة ليست هدية . ولا مناص من الانتظار ستة أشهر على الاقل .

ـ كان عليك أن تطلب اكثر منذ البداية .

لنسلم بأنني أخطأت . هل انت راضية ؟ على كل حال فات أوان طلب المزيد . فات أوان الطلب . وأوان المطالبة لما يحن .

ـ كما تشــاء .

ثم حملت قبعتها وقامت فخرجت من الحجرة . انقضت بضــع دقائق . وبارك لحظة العزلة تلك إذ أتاحت له أن يسترجع منحى أحلامه وأن يتخيل مئات الاشياء المستحيلة . وحياة مغايرة ، وكل السعادة التي حرم منها . لقد أعوزته العزيمة وهو يواجه أنجيل . وكان عليه أن يقدم لها مالاً على الفــور بدلاً من أن ينســاق على درب العواطف ليبلغ مرحلــة لم يعــد يجرؤ فيها على أن يتحدث إليهــا أو حتى أن يلمسها . وهناك احتمال في أن ترفض لكنه عند ئذ سيعرف أي سبيل يسلك . فحالة الشك التي يعيشها الآن تثير سخطه . وهل هناك ماهو أكثر مدعاة للسخرية من مغازلة فتاة ، مغازلة غرامية ، وهي ربمــا لا تطمح إلا للحصول على ماله ؟ ربما ؟ بل بالتأكيد ! اقتنع بغتة بأنها كانت ستقبل المال . وهل من فتاة فقيرة لا تفعل ذلك ؟ وهذا يفســر قبولها بلقائه في الطريق من غير أن تمنحه شيئاً آخر . كانت تتوقع أن يقدم لها ذلك المال ، أن يشتريها . وأعطاها هــو خاتماً هزيلاً سرقه من زوجته وهو لا يصلح إلا لبنت صغيرة . وكان ذلك كل ما استطاع أن يعثر عليه كهدية . ويا له من غبي ! وقــد ساورته الشكوك بشأن التصرف اللائق ، فيما كان الواجب يدعــوه لأن يفتح محفظته ويعدّ الأوراق النقدية . اما هي فأخذت ذلك الخاتم دون كبير مسرة ، وغادرته على الفور تقريبا ، وقلبها يطفــح ازدراء دون شــك . ولقد أحسنت بتصرفها على ذلك النحو .

قالت ماري وهي تدخل الغرفة :

ـ لا أريد أن ينشغل بالك بذلك الشأن .. فنحن سوف نتدبر أمرنا في نهاية المطاف ولو اضطررنا الى الاستدانة .

واستدار بغتة لدى سماعه نغمة ذلك الصوت ونظر إلى زوجتــه بوجه مكفهر . فبســاطة هذه المرأة فاجأته . فمنذ سنين وهي تعيش

بجواره من غير ان تساورها شكوك بشأن افكاره . فهي لم تر شيئاً ولم تحزر شيئاً ولم يخبروها بشيء . فالخياطة تشغلها من الصباح حتى المساء . وهي تنزل الى باريس مرة في الاسبوع . فتقصد احد المخازن الكبرى حيث يؤدونها أجر عملها . تلك هي حدود حياتها ، وهو يعرفها . أما نفس هذه المرأة المطمئنة ، فلم تبرز فيها من رغبة قط ، ولا ظهر لديها البتة من قلق لتعكير صفو ساعاتها النشيطة . واذا كان الهم يعتريها من وقت لآخر ، بشأن بعض المعضلات المالية وكيفية حلها، فإن سكينتها الطبيعية ما تلبث أن تتجاوزه . وهي مدينة بسعادتها للفقر الذي نشأت في ظله ، لكنها سعادة رتيبة من غير حماسة يمكن أن يغيظ مظهرها زوجها لأنه يعرف أن السذاجة منبعها . ويتراءى له في بعض الأحيان أنه كان يفضل فظاظة امرأة غيورة على لين طبع (ماري) الأبدي ، فيمقت الخضوع الذي تقابل به تعنيفه إياها ويمقت طرائق استكانتها ، وطيبتها ، حتى طيبتها التي يراها تتجلى في كل حركاتها .

قال متعبا : « بالي غير منشغل . انت ستتخيلين أشياء واشياء . هل أغلقت المصاريع الخشبية ؟ »

تأملته برهة ويداها تستندان الى الطاولة كأنها تجهد لتدرك ما لم يشأ أن يقوله لها . ولم يقوَ على احتمال تلك النظرة . فقال بحركة تنم على تعب :

ـ دعيني ، أرجوك . عملت اليوم كثيراً وارغب في أن ارتاح . لا تسأليني عن شيء . هيا اغلقي المصاريع .

انتصبت دون أن تتفوه بكلمة وقصدت النافذة ففتحتها على مداها الأقصى . فبدا كأن الفلك دخل الحجرة بغتة ليملأها بليله ونجومه . فحول الرجل رأسه رغم حزنه ونظر . واحس بغتة بشيء جعل قلبه

يخفق ، بانطلاق غامض نحـو ذلك الكون الشاسع الصامت الذي بدا كأنه يدعوه إليه . يا للسكينة الكامنة في تلك السماء السوداء بعد سكون جلبة كلام البشر !

« إيه ، عيشة السعادة ! »

قال ذلك في نفسه حتى كأنه لم يشعر قط حتى الساعة بقوة تلك الكلمـات .

وانغلقت المصاريع واحداً في إثر واحد .

* * *

- ٥ -

كان يتراءى له أنه يعرف تلك القاعة الفخمة ، ذات الستائر المخملية والمفروشة بالسجاد ، منذ طفولته . ذلك أن بعض ساعات السأم تبدو طويلة طول حياة كاملة . وهناك على وجه التحديد كان يعاني من أشد حالات السأم . واذا ما تجاوز الوضع حدود الاحتمال ، زاغ نظره عن كتاب القراءة ليسير في متاهات الجدران المغطاة كلها باللوحات ، فيتفحّصها بعناية ، متنبهاً لكل التفاصيل التي يعرفها عن ظهر قلب ، لكنه يبقى جاهداً في أن يكتشف فيها شيئا جديدا . عندها لا يبلغ صوت الولد مسمعيه إلا مشوشاً وبعيداً كأنه في حلم . ويتسرب النعاس وئيداً الى عينيه فيغمضهما ، والى رأسه فيميل الى صدره ، ثم يعيده الفزع الى نفسه ، وخوفه من أن يسمع التلميذ يصيح بغتة : « لكنه نائم ! إن المسيو غيريه قد نام . » أما الذي سيقع بعدئذ ، لو أن مثل هذا حصل ، فيتمثل في دخول مدام غروجورج ، التي لا تبتعد أبداً ، والتي تجلس له دوماً بالمرصاد ، وهو واثق من ذلك ، حسب طريقتها المباغتة المألوفة لتطرده .

انهال المطر مدرارا في ذلك الصباح وكانت الزخات العنيفة تنتزع أوراق الاشجار من حديقة آل غروجورج بنوع من الفرح المسعور فتهز السياجات وتحصد الأزهار ، ساحقة أزهار (البغونية) التعيسة التي رُسم بواسطتها على نحو متشابك في زاوية من الباحة المرجة اسم أصحاب الدارة . أما أشجار الزيزفون فتلوّح فوق ذلك الدمار بأذرعها العاجزة . كانت تلك السورة من غضب الطبيعة تشكل تناقضاً فظاً مع كل ما تحويه القاعة التي احتجز فيها من ضحالة وسماجة ! فلا يفصله

عن الهواء البارد النقي وصيحات الريح بين الأشجار غير لوح زجاجي رقيق . إنه لوح زجاجي فحسب جعله يشعر بأنه سجين . لكن ماذا عساه يفعل بحريته لو أنها ردت اليه بغتة ؟ لن تتأخر إجابته على هذا السؤال . سيهرع الى شارع المصابغ حيث لاتزال انجيل تعمل في هذه الساعة . أجل ، هذا واضح ، لكن ماذا سيفعل من أجل أن يراها وأن يكلمها؟ فكر بعض الوقت فلم يعثر على حل.إذ يستحيل عليه وهو فيالمقهى المواجه للمصبغة،حيث يجلس أحيانا ، أن يرىالفتاة إلا ساعة خروجها. فينتابه التدله في تلك اللحظة عينها ويفقد صوابه . فيؤدي به خوفه من أن لا يرى انجيل، الى عدم تمييزها من لداتها .كان يرى على نحو مشوش ثلاث فتيات يعبرن أمام المقهى ضاحكات ثم يتوارى المشهد في ظرف ثانيتين . أي تناسق شرس هذا الذي يسود العالم ! فهذه الارض تحتوى بكل تأكيد مروجا خضراء ، وغابات يسع المرء أن يختبىء داخلها ويتيه وفيها نساء صغيرات وحسناوات يمكن أن يعشقنه ، لكن ضرورة حاقدة تعمد الى عزل الكائنات ، وإغلاق الابواب ، وتعبث وهي تدفع الى هذا الشارع بأولئك الذين كانوا سيجدون السعادة في الشارع المجاور ، وتلهو بجعل البعض يولدون من قبل ، والبعض الآخر بضع سنين من بعد . أما الفكرة القائلة إن السعادة ، بل سعادته هو ، موجودة في مكان ما وانه لا يعرف أين، فجعلته يستشيط غضبا. وحين كان يلاحق الفتيات انما كان يسعى وراء تلك السعادة . وهو في الواقع أشبه ما يكون بغبي عصبت عيناه من أجل لعبة (الدب الاعمى) ، وبدأ يسمع الصيحات تتوالى في أذنيه : هنا ! هناك ! ويروح يدور وهو في مكانه ، فيتوجه ذات اليمين وذات الشمال ، بشكله المضحك التائه ، ويوما بعد يوم يزداد عجزاً ويزداد شعوراً بالخيبة . وآخرون ينعمون بثروات طائلة تأتيهم على ما يبدو من تلقاء ذاتها لأنهم فقط لا يسعون وراءها . وقد يصير هذا الولد ، الذي يتعتع وهو يقرأ صفحة في كتاب التاريخ ، واحداً من أولئك في يوم من الايام ، فهو غني قبل كل شيء .

ملأت تلك الفكرة نفسه بكره مفاجىء فانحنى نحو الرأس الاشقر حتى استشم رائحة شعره المقصوص قصيراً مثل المرج . وساورته رغبة

جنونية في أن يصفع ذلك الصبي الصغير ليستمتع من بعد بانذهاله وهلعه . فالولد غني وهو فقير . وعليه بسبب فقره ، أن يصغي الى ذلك الصوت المتلعثم ، وأن يقوم اعوجاجه بلطف متناه كلما أخطأ ، وذلك بدلا من أن يمضي مسرعاً الى أنجيل ، فيقدم لها المال ويلطف من سعير العاطفة المتوقدة التي تلهب قلبه . فأي اله شرس ذاك الذي وضع الذهب في جانب والشهوات في الجانب الآخر ؟ أكان ذلك معابثة ام هو مزاح ثقيل ؟

انفتح الباب بغتة وهو عند تلك المرحلة من أفكاره لتدخل منه مدام غروجورج . ومشت بخطى سريعة وصامتة فتوجهت نحو طاولة الولد الدراسية . كان وجه تلك المرأة البارد يحول دون تقدير عمرها . فخلوه من التجاعيد يثير في المرء العجب لعدم ظهور الغضون عليه . كما يتوقف ذلك على قسوة نظرها الخارقة . فعيناها السوداوان المتحرزتان ، بلمعانهما المعدني ، كانتا في الواقع عيني امرأة عجوز . لكن أنفها دقيق ومستقيم وفمها صغير وجميل ، رغم امتلاء ما في الشفتين . أما الوجنتان فعاليتان ، وتأتي من ثم بشرة بيضاء جداً تغلف تلك القسمات الرقيقة ، وتحافظ على نعومة مخملية يمكن أن تضلل النظرة المتمرسة لعدوة لدودة . ولا يصعب على المرء أن يتبين لدى مدام غروجورج قوة شكيمة ، لا تتجلى في أقوالها وحركاتها وانما في هيئتها ، بل حتى في طريقة تمالكها لأنفاسها . وقد يظن المرء انها تحقد على رئتيها لانهما ترغمانها على التنفس ارغاما . وهي طويلة القامة ، متينة البنية . كانت ترتدي صداراً أصفر مخرماً وتنورة من جوخ بني . ويشوب شعرها الاسود شيب خفيف عند الصدغين فلا تكلف نفسها عناء تخضيبه . لكنه مصفف بعناية فائقة .

قالت بصوت خافت قليلا :

— لم تنقض الساعة تماما ، يا مسيو غيريه . وأريد أن تستغل ما تبقى منها لاعطائي فكرة عن الطريقة التي تعتمدها لتعليم ابني . ومن الطبيعي أن تتصرفا معاً كأنني لست هنا .

وقصدت الركن القصي من الصالة فجلست على كرسي متخذة وضعية الانتظار ، فلفت ساقا على ساق ووضعت يديها على ذراع الكرسي . القى الولد نظرة فزع على أستاذه . ونقل هذا نظره بين تلميذه ومدام غروجورج ثم قعد مجددا .

همس الولد قائلا : « ما الذي يجب عمله ؟ » فهو يعرف أمه معرفة جعلته يدرك أن هذه الزيارة ليست بشير خير .

قال غيريه بصوت حاول أن يجمع فيه الهيبة باللطف معا : طيب يا ولدي ، اكمل قراءة صفحة التاريخ هذه .

ـ لم يبق الا ثلاثة أسطر ، يا استاذ .

ـ قلت لك أكمل .

انحنى الولد منكبا على كتابه حتى كأنه سيلعقه وتلجلج في قراءة عبارة لم تسمع منها كلمة واحدة ذات فائدة .

حين انتهى من أداء امتحانه ذاك قال له غيريه :

ـ أغلق كتابك ، وهات قل لي ، ما الذي فهمته مما قرأته . فكرر الولد :

ـ ... فهمته مما قرأته .

كان اشقر هزيلا ، ذا وجه زاده الرعب من صفعة محتملة شحوبا ، وأنف ضئيل مرصع بعدد كبير من نقاط النمش . لبث برهة فاغرا فاه ، وانتقل ارتباكه الى استاذه الذي احمر وجهه وتجلت عليه امارات الصبر والضيق التي يخشاها الاولاد كثيرا .

ـ أسألك عما تتذكره من قراءتك ، وعن الانطباع الذي تركته فيك ، في ذهنك ، في . . .

وران الصمت . استرق غيريه النظر الى مدام غروجورج فبدت كمن قدّ من صخر . وبدا له جمود تلك المرأة أكثر هولا من غضبها . فبدأت قطرات العرق تسيل على جبينه ببطء .

فاستأنف يقول بصوت متهدج بدت رنته مقيتة على سمعه :

ـ قل لي ، يا بني ، عمن تتحدث تلك الحكاية ؟

ـ ماذا ؟ عن الملك .

ـ جيد ! جيد جدا ! عن أي ملك ؟ عن لويس الحادي عشر ، عن لويس الثاني عشر ؟

ـ لويس الحادي عشر .

ومن غير أن يحوّل عينيه عن غيريه مد يده من تحت الطاولة وحك ربلة ساقه .

ـ ولكن هذا جيد جدا ! ـ ثم سأل الاستاذ بشرود : « و . . . ماذا فعلوا به ؟ »

ـ وضعوه في قفص .

سادت لحظة من الوجوم لم يعرف غيريه ماذا يقول في أثنائها . لا شك في أنه أساء طرح سؤاله . لكن لماذا ظهور مدام غروجورج كان وحده كافيا لتسوء الامور الى هذا الحد ؟ اذ لم تبدر عنها منذ بداية هذا المشهد أية حركة ، بل كانت تصغي بنوع من الضراوة المهذبة وتنتظر المشهد التالي .

قال غيريه بمباغتة نجمت عن الخوف :

ـ فكّر فيما تقوله . انت تعرف حق المعرفة أنهم لم يضعوا لويس الحادي عشر في قفص . بل هو الذي ، على العكس من ذلك ... تابع . بل لويس الحادي هو الذي ...

فصرخ الولد مذعورا :

ـ لا أعــرف !

واخذ ينتحب وهو ينظر صوب امه من فوق مسند الكرسـي . فاعترت مدام غروجورج رجفة . وبدرت عن غيريه حركة مترددة باتجاه الولد . ثم وقف . وتدخلت ساعة الحائط فأضافت الى البلبلة السائدة دوي دقاتها الاحدى عشرة .

فقالت مدام غروجورج :

ـ يا اندريه ، أنذرك بأن ما تحدثه من صخب يستحق صفعــة . ومصلحتك تقتضي أن تكف على الفور . والا فسوف ترى مدى جديتي فيما اقــول .

رفع الولد قبضتيه نحو فمه محاولا أن يخنق صراخا عجز عــن ضبطه . وتوسل بنظره مستنجدا بأستاذه ، لكن غيريه ظل صامتا ، لا يدري ماذا يقول ، للتخفيف من الموقف الحرج الذي تحــول المشهد اليه . وقف وظهره نحو النافذة . منذ بضع ثوان وراحة كفه مستقرة فوق صدره مثل رجل عازم على تبرير موقفه ، وما لبث أن بدا له على نحو مفاجىء المغزى المضحك لتلك الحركة فأنزل يده وقد احمر وجهه .

وتمتــم قائــلا :

ـ مدام ، اني شديد الاسف .

فقالت مدام غرو جورج من غير أن يبدو عليها أنها سمعت كلامه:

ـ يا مسيو غيريه ، إني عازمة على إرسال ابني الى المدرسة الثانوية في العام القادم ، فهل تعتقد أنه مؤهل لامتحان القبول في الصف السادس؟ فكر . ولا ترد عليّ بالايجاب لتدخل السرور على قلبي . فكر مليا .

كان في صوتها عذوبة غريبة ، تستشم منها رائحة تهديد . واضطر غيريه الى أن يصيخ السمع كي يتلقف تلك الكلمات . لان شفتي مدام غرو جورج كانتا تتحركان حركات ضئيلة جداً وهما تنطقان بها . وكان مستحيلاً استشفاف شيء من قسماتها التي بدت عاجزة عن التعبير عن أي انفعال انساني . ومع ذلك فإن عينيهما تتشبثان بالأشخاص والأشياء على نحو من القوة وشدة التركيز مما يسبغ على نظرتهما شكلاً متوقداً . حدقت في الاستاذ دون أن تحول نظرها عن وجهه الذي احتقن ارتباكاً وخجلاً . وكأنما هي تسعى لتكشف الطريقة المشوشة التي تصاغ بها الإجابة على سؤالها داخل رأس هذا الرجل المتهن ، ووراء تلك الجبهة التي رأتها تلتمع من العرق . تلذذت بعض الوقت بمتعة ذلك المشهد ، حابسة أنفاسها في أنفها ، مثل وحش شهواني ، ثم انتصبت بجذعها قليلا وفركت كفاً بكف من غير صوت .

عندئذ قال غيريه وقد اعتقد أن تلك الحركة تعبر عن نفاد الصبر :

ـ سيدتي ، يتراءى لي أن بضعة أشهر من الجهود المتواصلة كفيلة بجعل ابنك قادراً على أن يتقدم في نهايتها الى امتحانات السادس.

فأجابت وهي تدير رأسها بخفة فيها ظل من الدلال :

ـ نحن من رأي واحد يامسيو غيريه . وتدور في خلدك دون أدنى شك فترة أربعة أشهر أو خمسة من العمل والمثابرة ..

ـ بـدون شـك ، يا سيدتي ، اربعـة اشهر أو خمسة . ذاك ما ارمي اليه .

فأستانفت تقول بالنبرة المهذبة الخاصة بسيدات المجتمع :

ـ اربعة اشهر أو خمسة من العمل الجاد المتواصل تحت إشراف أستاذ نشيط وماهر ... نحـن لا نزال مـن راي واحـد ، يامسيو غيريه ..

ـ بكل تأكيد ... ياسيدتي .

ـ استاذ يهتم بتلميذه فيعرف كيف يجعله يستوعب مايقرأ ... الا نزال ضمن نفس الراي ؟

ـ بلى ، ياسيدتي .

ـ إذن ، استاذ لا يشوش افكار تلميذه وهو يلقي عليه أسئلة حمقاء ، بل يقوم وهو في بيته بتحضير الدرس الذي سيلقيه في الغد تحضيراً كاملا . أي باختصار ، يا مسيو غيريه ، رجل يمكن ان يوصف بأنه نزيه ، يعرف واجبه ويحترمه . فهل لديك مـن شيء تقوله لي ؟

فهز راسه نفياً . ولو انه رغب في الكلام لحال ارتباكه دون ذلك .

قالت : طيب . ينبغي أن تتوقع زيارات متـكررة مـن جانبي ، يا مسيو غيريه .

ثم نادت : يا أندريه !

فالتفت الولد صوب امه ، فواصلت مدام غرو جورج بنبرتهاالثابتة:

ـ تعال الى هنا حين ادعوك . الن تتعلم الاطاعة الفورية ابداً ؟

بذل اندريه جهداً شاقاً وغالب نفسه فترجل عن كرسيه وتوجه نحو ركن الصالة حيث تنتظره أمه ساكنة مثل تمثال . إنه قصير القامة . وثيابه من قماش الجرسي الازرق الغامق ، تحيط بجذعه الضيل وذراعيه من غير أن تضيق عليه الخناق . وتنفذ ساقاه العاريتان من بنطال من الصرج ، قصير وعريض جداً . اما وهو يمشي فيجر قدميه جراً كمن اخذ على عاتقه تقويم صوف السجادة بلونيها الأحمر والبنفسجي .

حين صار قبالة مدام غرو جورج قالت له :

ــ كم حذرتك أن لا تجرّ قدميك وانت تمشي ؟ اقترب أكثر .

كانت تسند يديها الى ذراعي الكرسي وتحدق في الولد ، وهو يتهرب من نظرتها ويعض على شفتيه . قالت بهدوء :

ــ من العدل أن أبين لك، قبل أن أعاقبك ، لِمَ أنا مرغمة على عقابك . قبل كل شيء كانت قراءتك لصفحة التاريخ سيئة جداً . فطريقة لفظك مغلوطة . وانت لا تسعى لاستيعاب ما تقرأ ، وحفظه . والنتيجة انك لاتزال جاهلاً كما كنت من قبل . فتضيع وقتك وتبدد مال ابيك ثم إنك لا تريد إصلاح اعوجاجك بالتخلي عن عادة قلب صوف السجادة وانت تمشي . إياك أن تبكي ، فلا طائل وراء ذلك . إرفع راسك وانظر إلي .

قالت ذلك وهي تكز قليلا على أسنانها وتحدق في عيني ابنها بالحاح . ثم رفعت ذراعها الايمن وارتدت به نحو الوراء الى ابعد ما تستطيعه . ومكثت هنيهة على تلك الحال من غير أن تهتز عضلة واحدة في جسمها . وبغتة وبعد استدارة ضئيلة نحو اليمين لاخذ شيء من الزخم على ما يبدو ضربت الولد على وجهه بالقوة الصادرة عن آلة وبعنفها . فارتعد وشهق هلعا وانفجر بالعويل . الا أن الام لم تحول عينيها عنه . وبدت كأنها لم تسمع صرخاته بل اخذت تتأمل الوجنة حيث بدأت بصمة الكف الوردية تشحب شيئا فشيئا . وتسرب شيء

غريب الى حدقتي تلك المراة السوداوين . وغمر وجهها المسن المليح تعبير من اللهفة والشهوة فأسبغ عليه مظهرا من الفتوة . وكان فكرها في تلك اللحظة منصبا على ما تشاهده ومأخوذا به ، حتى لم يعد لشيء بالنسبة لها من وجود خارج حدود الكدمة التي أحدثتها اصابعها . ولو أن أحدا خلفها أطلق صرخة : « حريق » لما استدارت اليه براسها .

كان غيريه يتأمل ذلك المشهد بهول منعه من الاتيان بحركة . فقد انتابته الرغبة في أن يهرع الى الصبى ليضمه بين ذراعيه ، لكن فكرة الاقدام على عمل بمثل تلك الجراة بدت له ضخمة جدا . فشخصية مدام غروجورج بكل أبعادها فيها من القوة والعزيمة ، بالاضافة الى السيطرة الجبارة التي اسبغتها عليها نزعة الشر في تلك اللحظة ، ماجعل غيريه عاجزا عن مجابهتها علنا ، كعجزه امام فكرة انتزاع الفريسة من بين براثن وحش مفترس . فبقي ملتزما الصمت ، وهو يحدق رغما عنه في الولد الذي طأطأ رأسه وطفق يتراجع بخطى مترددة أمام النظرة المرعبة التي لاحقته بها أمه .

ومرت لحظات من السكوت لم يسمع فيها غير أنين الصبي الصغير وتأوهاته . وبغتة ارتعدت مدام غروجورج كان سحرا قد ابطل مفعوله أعاد اليها حريتها ، فرفعت نظرها الى الاستاذ وقالت بجفاء :

ــ طيب ، تجاوزت الساعة الحادية عشرة ، يا مسيو غيريه ، ولا ارى ما يمكن ان يستبقيك .

وقامت وهي تقول تلك الكلمات فتوجهت نحو الباب . وكان هو لايزال في مكانه ذاته ، وحين مرت من امامه ، امكنه أن يلاحظ رقة صورتها الجانبية الحازمة وفتنتها . فالوجنة تتأجج حيوية تحت تأثير الانفعال على نحو لا مثيل له على الاطلاق ، ولمح وراء الاذن ، وتحت خصلة شعر رمادية ، أحد الاسلاك المستخدمة لتدعيم قبة الصدار

العالية وقد انفرز قليلا في البشرة البيضاء عند القذال فأحدث فيها شبه غمازة . وانتابه على حين غرة شعور مشوش اختلط فيه الاعجــاب بالتقزز . فحمل كتابه وأوراقه على عجل وتبع مدام غروجورج إلى غرفة الانتظــار .

وحينما اصبح بعد برهة في الحديقة ، تذكر أنه نسي ، في غمرة اضطرابه ، أن يقول لها وهو خارج : الى اللقاء .

* * *

٦

غرفته ذات السقف الوطيء والنافذة الضيقة ، ومطعم مدام لوند ، والمقهى الصغير القفر ، ودارة آل غروجورج ، تشكل مجتمعة الأركان الأربعة الرئيسة التي ترتكز عليها حياته الجديدة . هناك الشوارع أيضا والدروب . الشوارع التي يلاحق فيها تلك المراة بوجل . والدروب الليلية التي يسلكها حين يكلمها أو يرفع توسلاته اليها . وتتيح له تلك الاركان الانتقال من احدى زوايا سجنه الى اخرى .

وهناك النهران اللذان يحيطان احاطة واحدة بمدينتي لورج وشانتيليا الصغيرتين المتجاورتين . وهما يحملان اثنين من تلك الاسماء التي تجيد العبقرية الشعبية العثور عليها احيانا . فالاول ينساب بوهن عبر اعواد القصب متلكئا تحت اسوار حصون لورج القديمة . وعلى المرء ان ينظر إلى مياه « السوميانت »(١) بتمعن لتتبين له حركتها . اما الثاني المنحدر من عل فتندفع مياهه جذلى وفوارة عبر شانتيليا ، فيدعى « البريست »(٢) ويطلق اسمه على جادة قصيرة تعلوه بمقدار خمسة امتار او ستة . والنزهة بعد ظهر يوم الاحد في جادة البريست في شانتيليا ذات اهمية كبرى . ولابد ان يكون الطقس سيئا جدا ليرضى السكان بالتخلي عنها . بل ويأتي سكان لورج انفسهم للاختلاط احيانا بتلك المجموعات في سيرها الوئيد ، الملائم لتبادل الاحاديث . فتغلي قلوبهم بالغيرة وهم ينحنون من فوق الحاجز متصنعين عدم الاكتراث . لكن تظل هذه الناحية من المدينة غير مطروقة كثيراً في باقي أيام الاسبوع .

---

١ ـ الناعس . ٢ ـ الرشيق

ذلك أن كل نشاط شانتيلنا يتمركز حول ساحة السوق . وهذا مايجعل الجلسة ممتعة ، بعد ظهر يوم جميل من أيام تشرين الاول مثلا ، على الا تكون الريح شديدة جدا ، تحت زيزفونات طريق النزهة ، فينساق المرء مع أحلامه على ايقاع سقسقة مياه ذلك النهر في سيره الحثيث مقبلا وهاربا .

تهاوى في ذلك النهار على مقعد غير بعيد عن الحاجز . وهبت نسمة خفيفة توشوش بين الاغصان فوق راسه واحس بأشعة شمس الخريف الخافتة تلامس يديه . وانطلقت في السماء الشاحبة صيحات طيور شبيهة بنداءات الوداع . وأتاح صفاء الجو للنظر بأن يمتد بعيداً من غير جهد فيقع على طريق وراء منازل الضفة الثانية ، تحدها حقول سوداء وبساتين عارية . وتظهر من بعد سطوح لورج الرمادية والزرقاء مجمعة حسب امتداد شوارع الاحياء ، المحيطة بالبرج السهمي المهدم جزئيا لكنيسة سان جود . ولا يشاهد السوميانت من هناك فهو يتخفى وراء الاسوار ، لكن صفا من اشجار الصفصاف يدل على خط جريانه المتواني . ثم تظهر في البعيد ، خلف حقول اخرى ومروج طويلة رطبة ، بعض التلال الوطيئة وهي تبتسم وسط الضياء للشمس تلامس جباهها البيضاء كأنها الصخور .

تأمل قليلا ذلك المنظر السعيد الهادىء فوجده غير متناغم مع ما يعتمل في صدره من كآبة وقلق . لقد امسى أكبر سنا من أن يمنّي نفسه بآمال كاذبة ليخفف من كربه . واحس في داخله ايضا بأنه متعب جدا . فعقب سنين وسنين من المغامرات والخيبات وما يليها من قرف يأتي على النفس حين من الارهاق تعجز فيه عن مطاوعة الجسد ومواكبته في هوانه . فتلك الفتاة كتبت اليه وضربت له موعدا في ذلك المكان ، دون شك . وهاهوذا يجيء ، وما ذلك الا جبن منه وتخاذل وليوفر على نفسه الاسف على فرصة سنحت وتركها تفوت . ذلك انه يعرف حق المعرفة انها غير راغبة فيه . فكان يزدري نفسه وهو جالس هناك

فوق المقعد الذي عينته . الا انه كان عاجزا تماما عن الانصراف في الوقت الحاضر . وهذا أيضا ما يعرفه حق المعرفة .

وبسط من جديد الورقة الصغيرة التي كانت في كفه وقرأها .

وفيها تسأله . الم تبد لديك رغبة في أن تراني ؟ بم اسأت اليك ؟ سأحول طريقي غدا ، حين احمل الغسيل الى دارة « خلوتي » ، لامر من الجادة . كن على المقعد الاول في الساعة الثانية . انجيل .

يا لها من وقحة أو يا لها من طريقة في إصدار الأوامر . أحضر !... وها هو ذا قد حضر . ورفع الورقة الصغيرة الى فمه وأهوى بشفتيه عليها . وفكر بغضب : « سأمسك بذراعيها على أقل تقدير . » سيمسك بذراعيها المستديرتين الصلبتين ، ذراعيها الفائقتي البياض التين ستتيحان له ، بل اللتين ستلزمانه بتخيل جسدها . وصعدت الى وجهه دفقة من الحرارة . وانتابه ما يشبه الدوار فأغمض عينيه . واختلطت جلبة الماء المتدفق بالدوي الذي ملأ راسه . فبدا النهر كأنه يدندن دائما ، هكذا مدى الحياة ، مدى الحياة .

لم يرها منذ ثلاثة أيام ، أي مذ أن تحدث اليها مساء على الطريق . ولكن كيف تصرّف ؟ إنه لا يدري . وأنى للمرء أن يعرف كيف يمضي الوقت إذا كان يعاني هذه المعاناة ؟

ظهرت بعد ربع ساعة من ذلك وذراعها مثقلة بسلة كبيرة تحملها دون عناء . من الطبيعي أن يكون للجمال مظهر انتصار . وتجلت رزانة ملكية في كل حركة من حركاتها . لدى اقترابها ، لاذ شيء ما داخل قلب الرجل بالصمت . وحينما راى تلك المرأة تتوجه صوبه ، لم يعد يعثر على الكلمات التي كان يريد أن يقولها لها . فهذا الوجه الكامل ، والجسد المتنقل بكل نبل ، جعلا العالم يتلاشى من حولهما . اخذ ينظر إليها بنهم . فهي ترتدي صدارا ابيض يبرز منه عنقها وذراعاها . وتغطي تنورتها

مريلة بيضاء . وقد اسهم الاتقان الرائع للثنيات مع الظل في جعل القماش يرسم خطوط الصدر والأطراف . وعلى حين غرة دخل الفرح الى قلب غيريه بصخب وحماسة يفوقان مثيليهما لدى النهر في اندفاعه ليرتمي بين أحضان المحيط . ونسي كل شيء ، نسي آلامه واحقاده ، ورآها هي المرة الأولى بيضاء موشحة بالنور ، فارتعد حين فكر بأنه أوشك أن يتخلف عن الموعـــد .

كانت تبتسم ، قالت مقبلة عليه :

ـ لا تبق ساكنا هكذا . ستجتذب الأنظار الينا . هيا نمشي بمحاذاة النهر .

وسارا معا صوب الدرج الحجري الضيق المنحدر نحو البريست ، وحين صـــارا فـــوق الرصيف نظرت الى ما حولهما لتتيقن من انهمـــا وحدهما . ونظر اليها بصمت .

قالت وهي تغالب ضحكتها : يالغرابة اطوارك ! حسبت انك ستسر لرؤيتي .

طغى صخب المياه تقريبا على ما قالته بصوت خافت . فسألته بصوت أعلى : أليس لديك ما تقوله لي ؟

بدت وهي تقف قبالة غيريه ، اكثر فتوة ونضارة ، مما واتته الجراة على تخيلها ، في تأملات عزلته الدنسة . رفعت ردها مرة أو مرتين إلى جبينها لتزيح خصلة من شعرها الكستنائي ، أنزلتها الريح باصرار . فاستولت عليه الرغبة في أن يضحك ويمسك بيدها ، لكن طبيعته المرتابة استبعدت تلك الحركة على الفور . هلا تذكر قلة اكتراث تلك الفتاة وقسوتها ؟ العلها لم تحضر الى هناك الا لتهزأ بهيئته المكفهرة وعباراته الغراميـــة .

ـ لمَ أتيتِ ؟

ولم تجب ، بل تأملت هنيهة ذلك الوجه الذي جعلته الريبة وشدة التفكير يكتسي قسوة . وأرغم انعكاس النور غيريه على أن يطرق رأسه لكن نظره لم يتحول عن الفتاة . وصدمت لما طرأ على قسماته من تبدل وللمرارة التي اكتشفتها فيها . أخيرا قالت بصوت يحمل رنة عتاب :

ـ يا له من سؤال ! هل تريدني أن أنصرف ؟

وأوشك أن يرد عليها قائلا « نعم » . إذ تبدى له على نحو مفاجيء عدم جدوى ذلك اللقاء ، وعدم جدوى حياته كلها . ثم اجتاحه قنوط فانتزع منه تنهيدة عميقة . فرفع ذراعيه قليلا ثم أسبلهما باسترخاء . قال :

ـ حين أفارقك بعد قليل ، سأجد نفسي تعيسا جدا . لكن علام أتحسر ؟ لا شيء ، أنت لا تمنحيني شيئا .

فرددت بغرور ساذج :

ـ انت قلت يوما إنه يكفيك أن تراني .

فأشاح بوجهه ، وقال من غير أن ينظر اليها :

ـ لا شك أني صرت اكثر تطلبا .

وحينما فاه بتلك الكلمات . بدت له مثيرة للسخرية ومتهورة . وخشي أن تكون فهمت . لكنها أمسكت بيده وقالت متصنعة طيب المزاج :

ـ هيا ، فما انت بعاقل .

ضايقته تلك الملامسة بل كادت تثير فيه النفور . وبدا له الأمر ، والفتاة تمسك بيده على ذلك النحو ، فائق الاختلاف عما حسبه فائق البساطة . ثم إن هذا الجسد لم يكن فيه نفس الحرارة التي كان يتوقعها، وشعر بالخيبة والنشوة في آن معا . وفكر في أن ذلك منتهى ما يمكن أن يحصل عليه أبدا .

قال رغما عنه وبصوت أجش :

ــ الأفضل الا تناوليني يدك إن كان ذلك بلا معنى .

فصاحت وهى تترك يده :

ــ ماذا ، انا أضرب لك موعدا عن طيب خاطر وانت تكلمني على هذا النحو !

واستبد به بغتة غضب لا يقاوم . فقال :

ــ مواعيد ، تسمين هذا مواعيد ، ربع ساعه من الكلام على الطريق أو عند حافة الماء ؟ ماذا عن الآخرين ، ماذا تعطين الآخرين ؟ هل يكتفون بمثل هذا ؟

وامتقع لونها .

وهمست : قلت الآخرين ؟ من تقصد بالآخرين ؟

لم يسمع لكنه رأى شفتيها تتحركان . فاحمر خجلا لما الحقه بتلك المرأة من إهانة ، وحاول الظهور بمظهر ينم على ثقة بالنفس وهو يضع يديه في جيبي سترته . وشعر بأنه قبيح جداً وسط النور الساطع على وجهه فرغب في أن يهرب ويصعد الدرج الحجري ، الا أن شيئا ما أمسك بـه وأبقاه .

وغمغم ... « الآخرون » ... ولم يعد يدري ماذا يقول ...
« أغنياء أكثر مني » ...

كانت اصابعه تدعك داخل إحدى جيوبه ورقة نقدية وضعها قبل قليل ، استجابة لفكرة ثابته بأن تقديم شيء من المال الى أنجيل خير من إرهاقها بتوسلاته . أما الآن فقد بدأ يشعر بدافع يدفعه إلى تنفيذذلك، لا رغبة في شراء رضا الفتاة ، بل تلبية لميل دنيء الى إهانة ذلك الكائن بعد أن أيس من نيل أية حظوة لديه . وازداد جمالها تألقا وهي واقفة عند الضفة ، كأنما ذلك رغبة في ازدرائه ، بينما تلاطم المياه يطغى على الصمت . ونظر نظرة حقد الى الوجه الذي جهدت ذاكرته طويلاً في استرجاع صورته . حتى إن انعكاس الجمال الكامن في الذكرى ، حتى الانعكاس ذاك ، تمنع عليه وهرب منه .

وردت من قبل ان يتمكن من سحب يده من جيبه . فقالت وعيناها تبرقان غضباً :

ـ مادمت تحمل افكاراً من هذا النوع فلم يبق أمامي إلا أن أمضي في سبيلي .

فسألها وقد بدرت عنه حركة تجاهها : إلى أين تذهبين ؟

لكنها لم تجب . بل أعادت تثبيت السلة على ذراعها وادارت ظهرها لغيريه وابتعدت .

ولم يقم بشيء لاستبقائها ، فرآها تساير رصيف النهر تحت جدار الجادة إلى أن بلغت درجاً يؤدي الى الجسر الواقع على بعد مئتي متر من هناك . وبدا له أن كل خطوة تزيد المسافة بينهما يواكبها إحساس متزايد بالراحة في قلبه . وغمره هدوء يكاد يشبه الفرح . فتوجه ليجلس فوق إحدى الدرجات التي نزلها بصحبتها .

قال بصوت عال ! هكذا الحال أفضل .

تلفظ بتلك الكلمات ومد يديه الاثنتين الى صدره وكأنه يريد انتزاع صدريته وقميصه . فهو يعرف دلائل اقتراب الألم مثلما يميز البحار نذير العاصفة في كبد السماء . فهناك ضغط مباغت يجعله ينثني نصفين وضيق في الصدر يحول دون التقاط أنفاسه بحرية . فيدرك من جانبه مامعنى تلك الظواهر . كيف أمكنه الاعتقاد برهة بأنه سيخلص نفسه من آلامه ؟ وقام فجأة فركض الى المكان الذي وقف فيه حين غادرته أنجيل . وتابع بنظره النهر حتى الجسر . لم يبق لها من اثر لقد توفر لها الوقت لعبور البريست والتواري عن الانظار بينما كان جالساً فوق الدرجات مستمتعا بغيابها عن ناظريه . أهو مجنون ؟ أية فائدة ترتجى الآن إذا ما مزق صدره أو مضى ليمشي على آثار خطى تلك المرأة وهو يئن ويردد اسمها ؟ قد لايوجد في العالم كله رجل واحد قادر في مثل هذه الظروف على التصرف برباطة جأش وعقل سليم . وها هو ذا يضيف الى عشرات سنه مهازل الشباب . فيتصدى بدماغ ولدووجه تعلوه التجاعيد لغزو قلب فتاة تتفجر نضارة وجمالاً . ورغم دموع الحزن والحب الجنوني التي سالت على خديه ، جعلته خيلاء تلك المغامرة يغرق في الضحك .



- ٧ -

ـــ مريض . أجل . لكن على رسلك ، يا عزيزي ، هيا ، لن تقول لي إن ذلك يضايقك . لا داعي للكلفة معي . أدري أن زوجتي حادة الطباع ومدققة . من المؤكد أن حضورها يغيظك . إنها سيئة النية ، أليس كذلك ، هيا ، أنت لا تزال متجهماً ! هل تحسبني سأنقل إليها حديثنا؟

ابتسم غيريه بتكلف . فتصرفات ذلك الرجل السمين الساخرة ضايقته قليلاً ، لكنه شعر بارتياح كبير حين علم أن والدة الصغير أندريه لن تحضر الدرس في ذلك النهار ! كان ينتصب واقفاً ، وكتابه بيده ، أمام السيد غروجورج الذي جلس لتوه على الكنبة . وإذا كان صاحب دارة « خلوتي » قد بلغ من عمره الستين ، ففي ملامحه ذلك المظهر من البساطة الذي يواكب ذلك العمر حينما تكون الحالة الصحية لم تتنكب عن طريقها المألوف . فالشعر الأبيض يغطي رأسه فوق أذنيه وقذاله بعد أن تراجع تماما عن جبين متورد يكاد يخلو من التجاعيد ، حتى قمة الرأس . أما قسماته فثقيلة ، له فم سميك واسع وفك عريض . أما أنفه الكبير الأقنى فيسبغ على شكله الجانبي شيئاً من الحزم والعنف يتعارض والنظرة المرحة التي تشع من عينيه المسليتين . وهو يرتدي بزة رمادية اللون مثل الصيادين . لكن ربطة عنق حُمُّصية(١) تأتي لتسبغ على مظهره عناية أكبر ، ولترسم خطاً أسود عرضانيا تحت ذقن سمينة مزدوجة .

(١) حُمُّصي : قماش مزدان بدوائر صغيرة مختلفة اللون عن الارضية .

قال : هيّا اجلس إذاً ، لا بد أن يتوفر لديك متسع قليل من الوقت يا عزيزي ! ولن يكون أندريه مستاء اذا ما منحته فرصة خمس دقائق.

التفت أندريه الجالس الى الطاولة نحو أبيه بوجه طفولي ماكر وضحك وهو يخفي فمه بيده . وبعد أن ألقى على أستاذه نظرة واضحة المغزى انزلق عن كرسيه وتوجه ليقف عند النافذة . كان كل شيء في ذلك الصغير بجسمه الضعيف الواهن ، يشي بنشأته كابن لزوجين متقدمين جداً في السن : كتفان متداخلتان ، معصمان هشان ، اتزان شخص كبير ، حرص شديد على عدم احداث أية ضجة .

أومأ المسيو غروجورج بذقنه ناحية ابنه وقال بصوت خفيض :

ـ يا لـه من صبي مسكين ! لا يلزمه إلا الهواء الطلق والتمارين الرياضية العنيفة ، لكن أمه غير مستعدة لتفهم ذلك . إيه ! يا لها من أم !... هيا ، تعال اجلس ، يا صاحبي .

وضع غيريه كتابه من يده وجلس على كرسي قبالة المسيو غروجورج.

فأضاف هذا وهو يميل صوبه بجانب رأسه :

ـ ستلقاني شديد الفضول ، لكن قل لي كم مضى على وجودك هنا ؟ قيل لي إنك كنت مقيماً في باريس قبل قدومك الى شانتيليا . يا الهي ، يغادرون باريس الى الأرياف ! إنها متاعب مالية تلك التي أرغمتك على الانتقال ؟

كان يلقي ذلك السؤال وعليه هيئة الثقة التي يسبغها المال على الغني ويمنحه الحق في استجواب الفقير .

ـ متاعب مالية . أجل ، يا سيدي .

وأنت عازم على أن تؤمن لنفسك مركزاً لابأس به كمعلم في المنطقة. ولم لا ، على كل حال ؟ لكن قل لي ، هل أنت متزوج ؟

ـ متزوج ، أجل يا سيدي .

ـ وزوجتك تمد لك يد العون ، على ما أرى . هذا حسن جداً، ومشرّف . فماذا تعمل ؟

ـ إنها متعاقدة مع مخزن للألبسة الداخلية في باريس . فتشتغل هنا وتتوجه مرة في الاسبوع الى باريس لتسليم الطلبية .

ـ وترافقها أنت ؟

ـ انا يا سيدي ؟ على الاطلاق .

ـ انت لست غيوراً ، يا عزيزي غيريه . لا تنشده ، فما أقوله لك نوع من المزاح . أوَلا أعرف أنا ما هو الزواج ؟

وهزّته ضحكة . ثم انتظر هنيهة ، كأنه يريد أن يفسح المجال أمام غيريه ليعلّق بكلمة . وحينما رأى أن الاستاذ ليس لديه ما يقول ، استأنف كلامه بلهجة سريعة قليلا :

ـ طيب ، لابأس . لكن قل لي ، لابد أنك تشعر بالسأم هنا بعد أن عشت في باريس ؟ فأجاب غيريه بعد شيء من التردد : أجل ، ينتابني الملل أحيانا .

مدّ المسيو غروجورج ساقيه ولفّ واحدة على أخرى .

ـ هل ينقصك شيء ؟

ـ انا ، يا سيدي ؟ لكن ... كلا ، لا أستطيع أن أقول ...

فقال العجوز من بين أسنانه : قَسَماً ، يا عزيزي ، لو كنت في مثل سنك ...

وحرّك قدميه ، وعيناه لا تتحولان عن عيني الأستاذ . وسادت عدة ثوان من الصمت لم يجرؤ غيريه على تعكيرها . وأخيراً قال المسيو غروجورج كأنه يلخص فكرته :

ـ غريب ، حقا . لا أقصد تقديم النصائح لك ، لكن ما يبعث على التفكير مع ذلك : أنك تشعر بالملل هنا . أما أنا ، والحمد لله ، فقد اجدت الإفادة من أعوام شبابي . وأؤكد لك أنني لم أكن أعرف السأم وأنا في مثل سنك . لكن دعنا من ذلك على كل حال .

ونهض فتوجه الى آخر الصالة .

ـ هل تتفضل بالحضور الى هنا ؟ ما رأيك بهذه اللوحة الصغيرة؟ وحين أصبح غيريه بجانبه ، أمسك به من ذراعه .

ـ قف هنا ، متنحياً قليلاً . والآن ، هل تعطيني رأيك بصراحة ؟ إعلم أني دفعت قرابة سبعمائة ثمنا لها قبل اسبوع ، في باريس . إنها شيء صغير ... ارسلوها إلي صباح هذا اليوم .

ـ سبعمائة فرنك !

ـ يا صاحبي ، إياك أن تنبهر بذلك الرقم . أعطني رأيك بهذا التلوين . فليست الأهميّة في الكلفة على كل حال . لأن الأشياء الجميلة لا تقدر بقيمة . ولا تنسَ أخيراً انها بريشة **شاكورناك !...**

تمثل اللوحة ثلاثة أساقفة تجمعوا حول اسكملة(1) عليها غطاء مخرّم ثمين ، وهم في حلل من الأطلس القرمزي ، يوشكون أن ينتهوا من عشاء تبدو فضلته في أطباق من ذهب . وبينما تتبرد زجاجة من الشمبانيا داخل سطل فضي موضوع فوق السجادة ، نرى واحداً من أولئك

---

(1) اسكملة : منضدة صغيرة بقائمة واحدة .

السادة ، وهو أكثرهم سمنة ، يرفع كأسه نحو زميليه . فيتهيأ أحدهما للرد على كلام التكريم الموجه اليه من غير شك ، لأنه يبتسم لحامل الكأس وهو يسكب الشراب في كأسه . وتبدو حركته تغافلاً بنظر الاسقف الثالث ، الذي يخشى أن يسهو زميله عن نفسه فيلمس ذراعه ليلفت انتباهه ، وقد بدت على وجهه أمارات الخوف ، كي يحذر قبل أن يفيض الكأس . أما التفصيل الأخير الذي يتمم ذلك المشهد المليء بالبساطة والحذلقة فيتمثل في قطة بيضاء ، تتدحرج بفتنة عند اقدام الاساقفة وهي تعبث بصدفة محارة . ذلك هو موضوع اللوحة التي اقترح المسيو غروجورج على الاستاذ أن يتأملها . فقطب هذا ما بين حاجبيه وأجال نظره في العمل الفني من أعلى الى أسفل ثم قال : إنها جميلة جداً .

وردد المسيو غروجورج :

ـ جميلة ! هذا كل ما لديك لتقوله ؟ استحلفك ، يا عزيزي ، أن تنظر الى الأشياء نظرة فنية بعض الشيء . الا توحي إليك بشيء هذه الألوان الحارة المتأججة والمتناغمة أيضاً ؟ الا ترى مدى الانسجام بين قرمزي الحلل وبياض الغطاء ، المتناغم بدوره ولون السجادة الأحمر الغامق ؟ الا ترى الى القطة ، ذلك الحيوان الفاتن ، كيف ترتمي عند اسفل اللوحة كأنها التوقيع ؟ وهلا تفحصت ، بحق الله ، ذلك التخريم ، حتى لتتحراه باللمس . انظر ، اليك هذا وهذا ...

وكانت إصبعه القصيرة المدببة تتابع بشغف نجميات الخيوط التي رسمها الفنان بأمانة لا تضاهى . وانحنى غيريه باهتمام مفاجىء . أفي العالم حقاً اناس يمكن أن يستمتعوا برسم أغطية موائد مخرمة ورسم كرادلة على مائدة شراب ، بينما لا يعني له ذلك شيئاً كثيراً ؟ كان يبدو له أن الرغبة الجامحة التي لا تفارقه ، لابد أن تكون عامة وشاملة تشغل كافة الناس ليلاً ونهاراً . وكل ما لا يتعلق بأنجيل يصيبه بالدهشة . ولو قيل له إن المدينة بأسرها واقعة في هوى تلك المرأة لما وجد الأمر عسيراً على الفهم . لكن العسير على الفهم أن لا يهتم بها ثلاثة أشخاص

فقط . ولم يلحظ وهو يتفكر في هذه الأشياء ، أن غروجورج ينظر اليه منذ فترة بعين مدققة ، وهو يهم بالكلام .

أخيراً قال العجوز بصوت عذب ، نفز منه الاستاذ رغم ذلك :

ـ يا عزيزي ، لن تنكر عليّ أن شيئاً ما يشغل بالك في هذه اللحظة . فأنت امرؤ مكتئب ، وهذا بادٍ للعيان ...

ثم وضع يده فوق ذراع الاستاذ واضاف :

ـ أنت لا تهتم بلوحة شاكورناك اكثر من اهتمام شاكورناك بك . لكن لا عليك ، فهذا لا يثير نقمتي . فحين قلت لي قبل قليل إنك تشعر بالسأم في شانتيليا راودتني افكار ناقشتها مع نفسي . قلت : تباً له ! حين ينتاب السأم واحداً في مثل سنه ، فما ذلك إلا لسبب واحد فقط ...

قال تلك الكلمات بلهجة جعلت غيريه يدرك مغزاها . واستأنف العجوز يقول باصرار :

ـ لسبب واحد فقط . بلى ، يا عزيزي ، لا تستنكر ذلك . فالحياة بأكملها قائمة عليه .

وهذا هو الشغل الشاغل للناس اجمعين .

وهنا أكتسى صوته لهجة مسرحية :

ـ ساير الطبيعة يا عزيزي ، الطبيعة الخيرة بمتطلباتها . اتحسب أني لا أعرفك قليلا من قبل ؟ سأقول لك ، يا صاحبي ، قولا قد يتسبب لك بصدمة . لكن لا يهم ، ما دام ذلك لصالحك . كنت قبل أيام أتجول قريبا من المحطة ، حين وقعت عيني على امرأة طويلة ، ترتدي السواد...

لكن ان اصفها لك : الشخص الذي كان بصحبتي اخبرني أن تلك هي زوجتك . طيب ، يا عزيزي ، يا صديقي الغالي ، أصغ الي جيدا . لغت الثانية والستين ولدي خبرة ما في الحياة . وأقول لك دونما مواربة ، انك لست مع المراة التي تصلح لك !

ورد غيريه مذهولا :

ـ سيدي !

فقال غروجورج بلهجة آمـرة :

ـ صه ! دعني أتمم كلامي . حين أقول انها ليست المرأة التـي تصلح لك ، انما أقصد المرأة التي خصتك الطبيعة بها فقط . لا يساورني شك في أن مدام غيريه امرأة صالحة ، وشغيلة ، وحريصة على راحتك وذلك ما يتبينه المرء . لكن ، هل هذا ما تبتغيه منها ؟ وحين تعود الى بيتك مساء بعد نهار من العمل والضنى ، هل تجد مدام غيريه جميلة ؟ هل تجدها مغرية ؟ ذلك هام جدا يا عزيزي . فكر في السنين المتوالية . ولا تعدّ لنفسك شيوخة ملأى بالحسرات .

فقال غيريه بجهد واضح : ولكن لماذا تتحدث الي على هذا النحو يا سيدي ؟

ـ لماذا ؟ تسألني لماذا يثور سخطي وانا اراك تبدد شبابك ، يـا عزيزي ! انت تعيس ، بل في منتهى التعاسة ، وهذه حقيقة تفقأ الاعين بجلائها . وتظن أني لا أفهمك ، وتحسبني اكبر سناً من أن أقوى على فهمك ؟ يا صديقي ، أتريدني أن أبوح لك بسر ؟ انت رأيت زوجتي . انقص من عمرها عشرين عاما ، وتخيل المحيا الاكثر رقة والاكثر جمالاً . . . بعد مرور شهر واحد ، بدأت تثير نفوري حتى الرعب . لقد كانت مـع ذلك ، جميلة . لكن الوضع هكذا ، وما في اليد من حيلة . فالطبيعة لم تخصصها لي ولقد فهمت ذلك بعد فوات الاوان . أيه ! لكن ثق من أني

استدركت الامر من بعد ، حتى اني لم أعد اشعر بالاسف . وكن على ثقة من ذلك . واخيراً ، تباً لذلك ! ينبغي للمرء أن يكون صادقاً مع نفسه ، وان يعرف كيف يتثبت من حقيقة الاشياء ، اي بكلمة واحدة ، أن يعرف نفسه ، فكل السر هناك ، أن يعرف نفسه . فهل أنا على شيء من الحق ؟ قل لي : ترى هل وضعت أصبعي على مكان الداء . أستحلفك ، يا عزيزي أن تقول شيئاً . هيا أجب . . .

وهمس غيريه مطرقاً : طيب ، نعم . انت لم تخطىء .

وانتابه شعور بالراحة العميقة والغضب في آن معاً ، لكنه لم يجرؤ على أن يرفع نظره نحو المسيو غروجورج . فانتظر العجوز بضع ثوان ، ثم استأنف بصوت دافىء ، جعلته نشوة النصر يرتعش قليلاً :

ـ يا صديقي الشقي ! ساورتني الشكوك منذ وقت طويل . فقد قلت في نفسي يوم رأيتك أول مرة : « ذاك رجل جسور يعاني من الضيق » رأيت فيك رجلا يطلب النجدة ، الا انك لم تطلب شيئاً على وجه الدقة . هل فهمت ؟ يا عزيزي ، يا عزيزي !

وغمرته حالة من الحبور جعلته يرفع يديه بحركة مفاجئة نحو السماء فالمتعة التي أحس بها لانتزاعه سراً واعترافاً ، ملأت نفسه اضطرابا لحظة حتى لم يعثر من فوره على الكلمات للتعبير عن فكرته .

وقال وهو يخفض صوته بلهجة من يبلغ الآخر سراً :

ـ الحياة مفتوحة امامك . ايه ! لو كنت في سنك ! تبا لك ! انت لن تقول لي انك لم تجد في مدينة شانتيليا كلها امرأة تثير اهتمامك . وقد تحسب أن الناس في الارياف لا يعرفون المغامرات .

وتغضّن وجهه . وحدق في عيني الاستاذ .

ـ وحينما يتعلق الامر بي ، يا عزيزي ، انا الذي اكلمك . فهل يدور في خلدك ، انني بسبب كبر سني ، اعيش بلا حياة عاطفية ؟ سأضحك ساخرا من افكارك فالقصة بدأت هنا بالذات ، في دارة « خلوتي » واكاد أقول تحت سمع زوجتي وبصرها . أما الفتاة صاحبة العلاقة فتبلغ الثامنة عشرة . ثمانية عشر عاما ! لو رأيت لون بشرتها أو شعرها ! ويا لدماثة تلك الفتاة ! ولا تنس أن قطعة نقود بين وقت وآخر تسهّل حسن سير العلاقات ، لكننا قلنا قبل قليل إن الاشياء الجميلة لا تقدر بثمن ، اليس كذلك ؟ ومنذ أكثر من شهر وانا اراها مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع ... ولا يذهب بك الظن ، يا عزيزي ، الى أنها من بنات الهوى . كلا . وانا أقدم لها الهدايا والهبات كأني مع انسان يعاني من ضائقة وهي تقابل ذلك بالعرفان . وقد اصطحبها احيانا العشاء . وهي لا تطلب مني الا التكتم . وأما هذا الموضوع ...

ـ التكتم ...

ـ اجل يا عزيزي . ولكن ماذا دهاك ! الا تشعر انك على ما يرام ؟

ـ بلى .

ـ هيا ، اصغ الى هذه الرسالة الصغيرة التي بعثت بها إلي هذا الصباح .

واخرج الرسالة من جيبه فبسطها بعناية وقربها الى وجهه كأنه يهمّ بتقبيلها .

ثم بدأ يقرأ : « إن كانت لديك رغبة في رؤيتي غدا مساء » . وقطع القراءة ليوضح قائلا : غدا ، أي اليوم ... « في الساعة التاسعة والنصف ... في الساعة التاسعة والنصف بالقرب من ... » . كفى ، فلن انجح في متابعتها بدون نظارتي .

ووضع الورقة على طاولة وبدأ يفتش في جيوب سترته . وتأمل غيريه هنيهة ذلك الوجه العجوز المنتعش بالرغبة . وبدا له أن وهناً أخذ يسري في حواسه واحدة بعد أخرى . فالدوي الذي أخذ يملأ اذنيه منذ بضع ثوان منعه من سماع كل ما قاله المسيو غروجورج . ولم يصغ إلا إلى مطلع الرسالة ، لكن تلك الكلمات القليلة أصابته بصدمة ، وبدأ الآن ما يشبه الصدى الغامض يكررها دونما كلل ، فيتردد رجعها في مكان ما داخل دماغه . « إن كانت لديك رغبة في رؤيتي غداً مساء في الساعة التاسعة والنصف » .. وأحسن على حين غرة أن الحجرة قد اظلمت على نحو ما يحدث حين تمر غيمة فتحجب الشمس . ولما ينته المسيو غروجورج من البحث عن نظارته . وتغضنت من نفاد الصبر زاويتا فمه ، أما شفتاه النهمتان فقد رقّتا وهما تلتمعان . ذلك كل ما استطاع غيريه أن يراه في تلك الظلمة التي خيمت من حوله . إنه يرى فماً تزم شفتاه وتنتفخان تارة فأخرى ، فماً نهماً شرساً يهيجه جوع لن تشبعه الحياة أبداً . وبغتة وقع نظره على الرسالة . فارتد اليه صفاء ذهنه على نحو مفاجىء ، وتعرف في تلك الأسطر المكتوبة بالقلم ، على نحو متسرع ومتعثر ، على خط أنجيل .

*   *   *

- ٨ -

جلست على عادتها قرب النافذة لتلقي بين الفينة والأخرى نظرة على الساحة الصغيرة المثلثية ، والريح تكنسها . فدارها آخر دار في المدينة . وينحدر العشب المقصوص من وراء صف الاشجار حتى السوميانت . وتقع عيناها على ذلك المنظر يوميا . فالحجارة الدائرية التي رصفت بها أرض الساحة ، وأشجار الزيزفون الاثنتا عشرة التي غرست لتشكل زاوية . ومن ثم مياه النهر الساكنة تقريبا . وأخيرا ذلك الصمت العميق الذي يهيمن طوال فترة العصر وامتدادها ، تضفي مجتمعة على ذلك المشهد نفس الطابع الحالم الذي يظهر على الأمكنة التي لا يتوقف المسافر فيها أبدا . وتتميز الطبيعة هناك بشيء يصعب تحديده . فالأشجار ليست مثل باقي الأشجار ، والسماء تبدو كأنها تخبىء وراء الغيوم فكرة خفية يجري تناقل سرها ما بين حجارة المنازل ومياه النهر . فيسبغ عليها طابعا من الترابط المشؤوم .

قالت بنية جالسة قبالة مدام لوند ، فوق مقعد خشبي صغير وضعته قرب النافذة :

ــ قلّما يرى المرء متنزّهين في مثل هذا الوقت .

إنها تبدو في حدود الثانية عشرة . كانت بمريلتها الجلدية ، تلصق جبينها على زجاج النافذة بعناد ، وتزيح بيدها الصغيرة ستارة التول المصفرّة بتأثير الغبار والقدم . تأملت المعلمة برهة الصورة الجانبية لذلك الوجه المتيقظ ، وتلك العين الساخرة لتلميذة لا تدع شيئا يفلت منها .

فرددت بتمهل :

ــ قلت المتنزهين ، وهل يروق لك منظر المتنزهين ، يا ابنتي ؟

أجابت البنية دون أن ترفع رأسها : اجل ، يروق لي .

فسألتها مدام لوند قائلة : يروق لك ، دون شك ، أن ترى اناساً جدداً ؟

ــ وأتسلى أيضا وانا اميز الذين أعرفهم من قبل .

فقالت مدام لوند : يا لك من داهية ، واجابتك جاهزة على الدوام .

وتنهدت ، ونظرت بنفسها من النافذة ، كأنها قد أرادت ان تطمئن على بقاء الاشجار في مواقعها ، ثم أخذت من حجرها جوربا عتيقا ودست يدها الى اسفله . ثم همست بيقين :

ــ ثقب . ما الذي أفعله ، بحق الشيطان ، حتى تهترىء جواربي بسرعة مع أنني قليلة الحركة ؟

ثم أخذت إبرة وبيضة خشبية بنفسجية اللون ، وشرعت ترفو مكان الثقب الذي اكتشفته . ومرت دقائق طويلة سادها صمت تام . والبنت توجه نظرها من جهة إلى اخرى وهي مستغرقة تماماً في دورها كراصدة . كانت تشاهد ضفيرتاها القصيرتان وهما تهتزان كأنهما تستجيبان لحركة يد خفية تشدهما وتجعل الرأس يستدير يمنة ويسرة . اما مدام لوند العاكفة على عملها ، فبدت غارقة في تأملات تزداد عمقا ، رغم ان حركة أصابعها لم تتأثر بذلك فظلت مواظبة على غرس الابرة وسحبها بكل اناة وانتظام .

كانت الحجرة التي يجري فيها ذلك المشهد طويلة وسقفها وطيء . ويحتل سرير مزدوج من الاكاجو ركنا كاملا منها . فيقع بين باب أصفر اللون وخزانة ضخمة من خشب الجوز .

الجدران مغطاة بورق فقد رونقه ، إلا في أمكنة قليلة الرطوبة ، فبدت مساحات منه بلون غير مستقر ما بين الأحمر والبنفسجي ، مقلّمة بلون أكدر . وبسطت عدة سجاجيد صغيرة دائرية أو مستطيلة لتغطي بشكل جزئي البلاط الذي يصدر عنه برد جليدي . وتشتعل في الموقد نار فحم هزيلة ، فتلطف بمشقة شيئا من حرارة الغرفة فيما حولها ، قريبا من مكان جلوس مدام لوند . لذا كانت المرأة تضع رجليها فوق مدفأة قدمين وتدس يديها داخل قفازات سوداء بلا أصابع . وتتكدس عدة وسائد في مثواتها(١) فتحيط بخصرها وتعينها على الجلوس منتصبة. وكانت تلبس ثوبا من الصرج الأسود ، لأنها تحتفظ بفستان التفتة لترتديه وقت العشاء ، كما نشرت فوق كتفيها المرتعدين وشاحاً من الصوف الرمادي .

وتنبهت فجأة من أحلامها لتسأل،وقد لمحت ساقي الفتاة العاريتين:

ــ الا تحسّين بالبرد ؟

فردّت هذه بحيوية مرحة :

ــ كلا ، يا مدام لوند .

ــ ليس لك ، كما سبق أن نبّهتك ، أن تناديني بمدام لوند ، يا صغيرتي .

الم يمر أحد منذ برهة ؟

ــ لا أحد . ولكن الا تنظرين من النافذة ، أنت أيضا ؟

فتمتمت المعلمة :

(١) مثواة : كرسي واسع منجد المساند والظهر .

ـ لم أكن هنا ، يا فتاة . ثلاث ثوان من الشرود ، ليس إلاّ ،ويعبر الساحة شخص ما ، من غير أن الحظه .

ـ قولي لي ، من فضلك ، كيف يجب أن أناديك ؟

ـ ولكن ... قلت ذلك لك . ناديني : يا خالتي ، مثلا .

ـ ولماذا تقولين : مثلا ؟

وساد الصمت . وبدت مدام لوند كأنها لم تسمع . وبغتة أمرتها قائلة :

ـ ناديني : يا خالتي فحسب . هذا كل شيء .

شبكت الفتاة أصابع يديها فوق ركبتها اليسرى وشرعت تتأرجح الى أمام وخلف ، وهي غير راضية . إنها جميلة رغم شحوب زائد يبرز بريق عينيها السوداوين . وضايقتها اللهجة الخشنة التي خاطبتها بها مدام لوند قبل قليل ، لكن زعلها تبدد بسرعة ... وحينما لمحت كرة صوف تتدحرج تحت المثواة ، هبت لالتقاطها وقدمتها للمعلمة ، واضعة بمبادرتها اللطيفة حدا لخلافهما الصغير .

فقالت مدام لوند ببشاشة : « آه ، شكرا » . ثم أضافت وهي تداعب خد الفتاة بأناملها :

ـ يا صغيرتي ، أخبريني بماذا تجيبين أمك حين تسألك عماتفعلينه عندي ؟

ـ بشكل عام ، لا تسألني عن شيء .

ـ بشكل عام ؟ لقد سألتك إذاً في بعض الأحيان ؟ وماذا قلت لها ؟

ـ قلت لها إنك ترسلينني لشراء بعض الحوائج ....

ـ صحيح . ذهبت فاشتريت لي شيئا من البن ، أول امس .

ـ ... وإني أساعدك على اصلاح بعض ملابسك الداخلية .

ـ حسن . أمك امرأة مدبرة ، يا صغيرتي . قولي لها إني مهتمة بك . وإني عازمة على استخدامك في المطعم ، حين تصبحين أكبر قليلا . هل هي راضية عن الأجور التي أعطيك إياها ؟

ـ قالت ذات يوم إني قد لا أتقاضى أكثر في مكان آخر .

ـ ثم إنك قد تعانين من التعب في مكان آخـر . هل أنت متأكدة من انك لا تشعرين بالبرد ، يا صغيرتي ؟ لا أريد أن يصيبك أي سوء هنا. ويتراءى لي اني لو مضيت عارية الساقين مثلك ... أنت على كل حال فتية وقوية . لكن هل أنت لابسة بشكل كاف ؟ هل تضعين شيئاً ما على صدرك ، أقصد شيئاً دافئاً ؟

ـ كنزتي .

ـ كنزتك . هناك فارق ما بين كنزة وكنزة ، يا فتاة ، تعالي أريني .

ومالت بجسدها الى أمام ودست إصبعين في فتحة المريلة السوداء. وندت عن الفتاة صيحة خفيفـة تشبه ضحكة . وحاولت أن تنحرف قليلاً . لكن وجه مدام لوند الجاد أقنعها بالبقاء ساكنة . وبغتة تجهم وجه المعلمة وزمت شفتيها . ثم قالت إثر ثوان من البحث الحثيث :

ـ ذلك ما خمنته . قميص صغير من خيط رفيع ، بسماكة الورق. إن وجوده وعدمه سيان . ولكن ما بك تتحركين هكذا ؟

اجابت الفتاة وهي تقهقه :

ــ إنك تدغدغينني .

فسحبت مدام لوند يدها بحركة مباغتة ، وارتدت بجسمها الى الوراء وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة مفاجئة . وكررت بسخط :

ــ أنا أدغدغك ، أيتها الصغيرة الوقحة . قد تزعمين أني حالنا أدغدغك ؟

ــ كلا .

ــ شيء مفرح . أتدرين لم أدخلت يدي تحت مريلتك ؟ لأرى هل تحتاجين قطعة ملابس دافئة حقاً ، قطعة من الصوف ، أو شيئاً ذا قيمة من هذا القبيل لأقدمه لك يا ابنتي . والآن ، إن كنت غير راضية في خدمتي فبوسعك الانصراف كما تعلمين ؟ أما أنا فبمقدوري حتى هنا في لورج العثور على أفواج من البنات الصغيرات مثلك . وبكاؤك بلا طائل ، يا آنسة !

فقالت البنت عبر دموعها :

ــ أنا لم أقل إني غير مسرورة في خدمتك .

ــ كان يبدو عليك التفكير في ذلك ثم إني أمنعك من مناقضتي . هيا ، انصرفي . رأيتك اليوم بما فيه الكفاية .

نطقت تلك الكلمات الاخيرة بقسوة ، لكن بصوت متصنع ومرتعش قليلا .

كانت الفتاة واقفة جامدة تنظر إليها وعلى وجهها سيماء الكآبة فانتهرتها قائلة :

ــ ماذا تنتظرين ؟ قلت لك انصرفي .

وسألتها الصغيرة : بم أسأت اليك يا خالتي ؟

فصاحت مدام لوند وعيناها يتطاير منهما الشرر : ألن تطيعي أمري، أيتها الشيطانة العنيدة ؟

واستولى عليها غضب عنيف على نحو مفاجيء . واحمرت وجنتاها خجلاً لما انتابها من خوف بسبب طفلة ، وكأنها تلقت صفعة . فارتفعت بجسمها عن كنبتها وركلت مدفأة الأقدام قليلا فانزلقت فوق البلاط محدثة صريراً حاداً . كانت مقلتاها السوداوان تتوقدان تحت حاجبيها السميكين في وجهها المتورد . وما كادت تطأ الارض بخفها حتى خرجت البنت من الغرفة تركض مذعورة . وعادت مدام لوند لتجلس منتصرة .

وتمتمت تقول مضطربة : تلكم هي ، بنت الأفعى ! قد تميتني ميتة رخيصة .

مدت قدمها فسحبت المدفأة إليها وأعادتها إلى مكانها المعهود ، كما استعادت جوربها .

وبدت أصابعها مترددة قليلاً وهي تتلمس الإبرة . وأخيراً تنهدت مرة أو مرتين بعمق فشعرت أنها أكثر هدوءاً . وألقت نظرة علىالساحة ثم انكبت على عملها .

سُمع طرق على الباب .

قالت مدام لوند : هذه انت مجدداً ، يا فرناند ؟

اجابت انجيل وهي داخلة : هذه ليست فرناند .

ووضعت سلتها فوق الطاولة ثم استأنفت تقول :

ــ ماكنت تتوقعين رؤيتي في هذه الساعة ، يا خالتي .

فردت المعلمة وهي تضع جوربها جانباً :

ـ اهلا بك في اي وقت ، يا ابنتي . هل فكرت بالمسيو بلوندو ؟

فقالت انيجل وهي ترفع خصل شعرها المنسدلة على جبينها :

ـ غداً أوافيك بالجواب .

غداً ! لكن هاهو يلح علي منذ ثلاثة أيام ياابنتي ! وقد صرنا في يوم الخميس . ثقي من انه سيسألني أيضا هذا المساء حول ما قررت بشأنه ، فكيف سيكون موقفي حياله ؟ تذكري أنه ينتظر منذ زمن طويل . وأن المهلة الاخيرة حددت بهذا اليوم .

ـ اعرف .

قعدت تجاه مدام لوند واطرقت رأسها الكستنائي اللون . فرسمت رموش أجفانها ، وقد غضت الطرف ، قوسين طويلين فوق خدين تورّدا بسبب الريح ، وسبب انفعال لم تجدِ احتواءه ، فأضفيا على محياها الفتي فتنة تعبير رزين وحزين . وهي لم تبد قط أكثر جمالا مما هي عليه في الضياء الخافت لعصر ذلك اليوم الخريفي . فتمايل عنقها فيه ليونة الطفولة ، وكل حركاتها تمتاز بنوع من الارتباك يولد في النفس انطباعا غريباً عن كائن انضجته الحياة باكراً جداً فظلّ يحتفظ في اعماق كيانه بما يشبه كنزاً غامضاً يجهل هو وجوده ، من غموض السنين الأولى وترددها . لكن فمها حازم ورصين ، وتتبدى في عينيها حين ترفعهما فطنة قادرة على الفهم السريع لا تعرف التردد .

وضعت يديها مضمومتين فوق ركبتيها . فاستأنفت مدام لوند تقول :

ـ لا يكفي المرء ان يعرف ،كما تعلمين ، بل عليه أن يرد الجواب . لا ادري لم تضعين كل تلك المصاعب . فالمسيو بلوندو زبون ممتاز .

وحين خرج بصحبتك آخر مرة كان غاية في الكياسة حسبما قلت لي . لكن يلزمني هنا أن أحدثك عن زبوني الجديد .

ـ زبونك الجديد ؟

ـ أجل . ماذا دهاك ؟

ـ لا شيء البتة ، يا خالتي .

ـ حضر هذا السيد إذن يوم الخميس الماضي ، كما تعرفين ، ولا بد من أن يأتي هذا المساء . ومن الطبيعي انني فكرت بك .

ـ بي أنا ؟

ـ بك طبعاً . يبدو في الحقيقة أنني اتفوه اليوم بأشياء خارقة . فماذا هناك يا ترى ؟

ـ لا شيء البتة ، البتة ، أؤكد لك .

ـ ذلك انه رجل كما ينبغي تماما وفي منتهى الاستقامة ، وعلى شيء من التحفظ . وقد خطر ببالي ان بوسعي بدءاً من هذا المساء إعداد ترتيب ما ليوم الأحد في الثامن من الشهر . وتحضرين انت متعللة بقول كلمة عند بداية العشاء ، من أجل أن يراك ليس غير . وحين تخرجين بصحبته ، عليك استدراجه للكلام . فهناك اشياء كثيرة ارغب في معرفتها . منها أولا سبب مجيئه الى هنا ؟ لقد طرحت أسئلة عديدة ذات اليمين وذات الشمال ، لكن دون جدوى . فذلك الشيطان اللعين لا يبوح بسره لأحد . ولم اكتشف انه متزوج الا بجهد جهيد .

ولم تر الى الفتاة وقد شحب لونها ، فواصلت الكلام مثل ثرثارة أهاجها رنين الكلمات :

ـ لا بد أن تسلمي بأنه لأمر غريب أن يأتي امرؤ ليستقر في شانتيليا بعد أن كان مقيماً في باريس . لكن ، لنعد في حديثنا الى المسيو بلوندو . فلدي سؤال القيه عليك بصدده . ما حقيقة ما قيل عن ابنة عم له ، وهي عجوز تقيم في لوت ـ غارون؟ هل القصة صحيحة؟

ـ لا أعرف عن المسألة اكثر مما تعرفين . الواقع انه حدثني ذات يوم عن الآنسة بورجيرون تلك . « بورجيرون » . ذكرت مدام لوند ذلك الأسم وكأنها رغبت في أن تتلفظ به والفتاة في آن معاً . وأضافت : اعرف اسمها . اهي غنية ، تلك المرأة ؟

ـ اؤكد لك اني لا اعرف عن الامر شيئاً .

ـ ينبغي ان تستعلمي ، يا حبيبتي انجيل . اقول لك هذا لأن المسيو بلوندو اشترى لك للتو معطفاً جديداً . انت لم تريه بعد . فاللون بشع لكن القماش جيد . ومن المؤكد انه لم يتمكن بمرتبه من دفع ثمن ذلك المعطف . فأنت تعلمين أن ما يقبضه المسيو بلوندو من وكالة فالتر لا يكاد يكفي إلا لمصروفه . ولقد قدم لك من جهة أخرى، عشرة فرنكات في شهر أيلول . فمن اين جاء بذلك المال ؟ لقد خطرت قريبته في لوت ـ غارون ببالي . لكن السؤال هو : لم ترسل ذلك المال إليه ؟ اهو قرض ؟ اهو هبة ؟ ومهما يكن من امر فلا تتخيلي اني كنت سأعد المسيو بلوندو بأنك ستخرجين بصحبته يوم الأحد، لو لم يأت ذلك المعطف ليقدم لنا ضمانة جدية .

ـ وعدته دون استشارتي ؟

ـ أجل . فالمشكلة تبقى إن كان ينبغي أن استشيرك كلما سنحت فرصة مؤاتية . قلت لي إنني متأكدة من انه قد تسلم المال .

ـ لا يهمني ذلك . لن اخرج بصحبته يوم الأحد .

ـ ماذا ؟ أتخرجين بصحبة واحد آخر ؟

ـ كلا ، لن اخرج مع أحد .

ـ لن تخرجي مع احد ؟ هل جننت ؟ قولي ؟

ـ كلا ، لست مجنونة . قلت إني لست راغبة في الخروج يوم الأحد .

ـ ما الذي يجعلك ترفضين المسيد بلوندو ؟ إنه لطيف جداً .

ـ قد يكون لطيفاً جداً ، لكنه ينفرني .

ـ هيا ، لا بأس ! طيب ، اذا كان المسيو بلوندو ينفرك ، فخذي المسيو غيره .

ـ المسيو غير ... كلا . اكرر لك القول إني لن اخرج مع أحد . لا مع بلوندو ولا مع سواه .

نهضت لتتفوه بهذه الكلمات الأخيرة وخطت بضع خطى فوق ارض الغرفة وعليها مظهر تصميم منع المعلمة من الرد عليها فوراً .

اخيراً قالت المعلمة :

ـ هذا فن جديد ، ما الذي دهاك ؟ لقد جئت إذن من اجل ان تقولي هذا لي ؟

اجابت انجيل وهي تستدير نحوها : الى حد ما .

فاستأنفت مدام لوند تقول وهي تضبط نفسها : ولكني اهنئك . وإذا كان الخير المقبل على هذا المستوى ، فسوف نعيش فرحة غامرة

حقاً . لكن هل لي أن أعرف ، دونما تطفل ، ما هو مصدر الرزق الـذي تعولين عليـه لتعيشي ؟ وهل الأرملة برود هي التي سوف تتولى دفـع الايجار عنك ؟

ورددت أنجيل وهي تستند الى الطاولة : دفع الايجار . ولكن لدي الغرفة ...

ثم توقفت ونظرت الى مدام لوند . التي مضت تقول :

ـ طيب ، لا بأس ، واصلي كلامك . قولي لدي الغرفة التي مدام لونـد تـ ... تـ ... ماذا ؟ تعيرني إياها . وماذا لو أن مدام لوند أوعزت إلي باخلائها ، في هذه الليلة بالذات ...

ـ يا خالتي ، انت لا تنوين ...

ـ وما أدراك ؟

ـ لكنك لـن تعمـدي الى طردي لأني لست راغبـة في الخـروج يوم الأحـد ؟

ـ وما الذي يحول بيني وبين ذلك ؟ هل فكرت بما تلحقين بي من ضرر برفضك الخروج بصحبة زبائني ؟

ـ خالتي ، لدي شيء أقوله لك . ربما كان علي ان أبوح لك بمشاريعي قبل الآن . أجل ، إني أبحث عن مهنة أخرى . فماذا تقولين ؟ فمهنتي الحالية تتعبني ولا تدر علي شيئا . فالجو في المصبغة خانق ، بالاضافة الى ذلك الضغط الدائم على المكوى ... إني باختصار أبحث عن شيء آخر .

ـ شيء آخر ؟ ماذا ؟

ـ مهنة اقل قسوة وتدر عليّ اكثر . إليك مثلا ، خطر ببالي أن أصير وصيفة .

ـ وصيفة عند آل غروجورج على سبيل المثال ؟ ـ فقالت الفتاة وهي توشك أن تجهش بالبكاء :

ـ لم تسخرين مني يا خالتي ؟ اني اتكلم جادة . وانت تعلمين حق العلم ان ذلك مستحيل مع المسيو غروجورج .

ـ لكن ذلك لا يفسر لي رغبتك في عدم الخروج يوم الاحد .

ـ أريد بالضبط أن أبحث عن مكان يتيح لي الاستغناء عن هؤلاء الناس ، عن المسيو غروجورج وعن ذلك الاحمق بلوندو . . .

فصاحت مدام لوند وهي تهب واقفة على حين غرة :

ـ ماذا تريدين ؟ . . . هل جننت ؟ وتدعيني أواجه أعباء الزبائن وحدي . . .

امتقع لونها تماما واقتربت من أنجيل التي انتظرتها دون أن تتحرك قالت :

ـ وتنسين انني انا التي ربيتك ؟

فردت الفتاة بلهجة فيها حزم أكبر :

ـ ربيتني على نمط الصغيرة فرناند .

ـ انا اربي الصغيرة فرناند حاليا ؟

ـ أجل تعلمينها ان تناديك « يا خالتي » مثلما علمتني وانا في سنها .

ـ وعلام يدل ذلك ؟

ـ يدل على انهـا ستصبح مثلي ، وانك ستعدينها وتقدمينها ذات يوم لزبائنك .

ـ أنا أقدمك لزبائني ؟ أنا ؟ هل اصابك مس لتقولي هذا الكلام ؟ لم أعد أفهم شيئاً مما تتفوهين به ، يا ابنتي .

ـ هكذا اذن ! أما حين أرجع مساء وتدخلين الى غرفتي لتسأليني كم تقاضيت مالا من المسيو بلوبدو وكم تقاضيت من المسيو غونسولان فقد لا تفهمين لماذا اعطياني مالا ؟

ـ ليس علي أن اراقبك . ولا يعنيني ما يجري بينك وبين هؤلاء الرجال .

ـ حقا ! فكل ما يعنيك هو أن تختلسي مني معلومات عنهم كي تتباهي بها وانت تحت ، في المطعم ...

ـ لكن أيتخيل أحد ... ان كنت اطرح عليك بعض الأسئلة احيانا فلكي أعرف من استقبل في مطعمي ليس غير . أتفهمين ؟ فانا لا أستقبل عندي أيا كان . وينبغي أن اكون على اطلاع ...

ـ وتستخفّين تماما بما يمكن ان يكلفني ذلك ؟ ويحتمل انك لا تعرفين ماذا يفعلونه بي ؟ ولا الى أين يصطحبونني ؟ الى اين يأخذونني ؟

امتقع لون مدام لوند . ثم قالت :

ـ قلت لك إنه ليس من مهمتي أن اراقبك . فأنت بالغة راشدة ... وهذه الامور لا تعنيني .

فقالت الفتاة :

ـ طيب ، افضل على اي حال ان انصرف فلن أبقى في دار السوء هذه ، من بعـد .

ـ اخرسي . اخرسي . اتسمعين ؟

ـ لا تقتربي مني والا صرخت ! اجل ، ففي هذه الليلة سوف أصر حوائجي . أتعرفين أنك ما عـدت تخفينني ؟ وسوف تطعنين في السن يوم لا تعثرين على من يتولى التجسس على زبائنك ، ايتهـا العجوز البائسـة .

وقامت بحركة نحو الباب ، لكن مدام اوند انتصبت أمامها تحدق فيها ويداها على وركيها ، وقالت بصوت قاس وهادىء :

ـ لا تغلطي ، يا ابنتي ، فلدي من يحل محلك تماما ، فتاة مرغوبة جدا وهي قبلة الانظار .

فسألت انجيل على غير ارادة منها : من هي ؟

لم تجب مدام لوند على الفور ، وظلت عيناها تحدقان في عيني الفتاة . واخيرا قالت :

ـ فرناند .

ـ فرناند . وتجرئين على تقديم طفلة في الثالثة عشرة الى هؤلاء الرجال ؟

ـ يا لهذا الكلام . اقدم لهم ! فهؤلاء السادة يتلطفون باصطحاب فرناند معهم حـين يخرجون الى النزهة . اني اعهـد بها اليهم . هـذا كل شيء . والاهل يعرفون . فليس لدي ما أخفيه عنهم ، والبنت مسرورة جدا .

ــ وانت ، كم تأخذين لقاء ذلك ؟ كم تدر عليك فرناند ؟

ــ كم تدر علي ؟ ومن تحسبينني يا وقحة ؟ اعلمي أن أم فرناند في منتهى السعادة لما اقوم به حيال ابنتها . ولو كانت هنا لصفعتك منذ وقت طويل من أجل أن تتعلمي احترامي .

احمرت الفتاة بشكل مباغت كأنها تلقت فعلا الصفعة التي أشارت اليها مدام لوند ، واوشكت أن ترد عليها ، لكنها استدركت مكتفية بالقــول :

ــ أنا ذاهبة ، دعيني أمر .

فهتفت مدام لوند بكل ما أوتيت من عزيمة : « اذن ، كلا » . قالت ذلك وهي تشد بأصابعها على معصم انجيل :

ــ لن أدعك تجلبين الدمار لنفسك ! قولي ، الى أين ستذهبين ؟

حاولت انجيل التملص .

ــ دعيني . اريد الانصراف .

ــ الانصراف الى أين ؟ اليك ، هاقد تركتك . تريدين اعداد حقيبتك ؟ حقيبتك ملك لي . أتظنين أنهم يستقبلونك في الفندق بصرة ثياب ؟ ذلك أني امنعك من مدّ يدك الى الحقيبة ! يا بنيّتي ، أنت تخفين عني شيئا . لا تنكري .

ــ هذا غير صحيح !

ــ انك تخفين عني شيئا . كان علي أن اتبين ذلك من قبــل . فحين رأيتك تدخلين بنظرتك الزائغة وضحكتك العصبية ، ساورتني الظنون فورا . في حياتك شيء ما . قولي ماهو ؟

كادت الفتاة تحت تأثير من اليأس والارهاق ان تستسلم وأن تحيب اولا ان راودها بغتة شعور غامض بأنها في خطر ، فأمسكت سلتها وتراجعت نحو الباب . فالفزع رد اليها طاقتها كلها . فقالت بحدة :

ــ دعيني وشأني . واذا تدخلت فيما ليس من شأنك ، فسوف أرحل حالا . وعبثا تكابرين ، لاني يوم أرحل لن تقوي على الاحتفاظ بزبون واحد من زبائنك .

فهتفت مدام لوند وهي تمشي نحوها :

ــ ماذا ، وتجرئين على تهديدى ايتها الوقحة السفيهة !

الا أن الفتاة فتحت الباب وولت الادبار .

أول ما كان سيصدر عن المعلمة ان تجري وراء انجيل وأن توسعها ضربا ، لكن بطء حركة ساقيها ما كان سيتيح لها ملاحقتها فوق الدرج وفي الشارع من بعد ، كما ارتأت أن من الافضل الا يعرف الناس بذلك النزاع العائلي . لذا اكتفت بفتح النافذة ، ومتابعة الفتاة وهي تعبر الساحة باستعجال ، بنظرات أثقلها الغضب .

« يا نذلة » قالتها في فكرها وهي تغلق النافذة . « يا نذلة » .

ودفعت الكنبة بعنف وأزاحت المقعد الخشبي ، اللذين اعترضا طريقها ، ومشت بضع خطى نحو سريرها . كانت هذه الفتاة على حق بلا ادنى شك . فالزبائن الان وقد أخذوا يستسيغون ذلك اللون الاضافي الذي تقدمه اليهم مدام لوند ، لن يقبلوا ابدا بفكرة الاستغناء عنه . وليس قولها على طلبهم فرناند بصحيح . فأنجيل هي التي تلزمهم ، انجيل بوجهها المليح ومظهرها كفتاة صالحة . النذلة . منذ ثلاثة أشهر بدأ الغرور طريقه الى رأسها بتأثير كلمات المديح والاطراء .

جلست المعلمة على حافة السرير وتأوهت متفكرة في المرحلة الزمنية المنصرمة حديثا . يوم كانت الفتاة شديدة الطاعة ، تامة الخضوع . كانت تأتي في أماسي الآحاد ، وأحيانا في بحر الاسبوع ، لتسرد على مسامعها ما استخبرته من هؤلاء واولئك بأمانة ساذجة . حتى انها لم تكن تميز دوما بين المجدي وغير المجدي . وهكذا تروّي مدام لوند الظمأ الرهيب لفضولها الذي ينهشها على نحو دائم . فالعيش بين اناس مجهولين كان مستحيلا عليها . فكل قادم جديد هو في نظرها عدو لابد من محاصرته والسيطرة عليه ، وكان الانفعال الذي يستولي عليها بتأثير ذلك ، شاقا وعذبا ، لا يماثله سوى شغف الحب ولهفته . فسيطرتها على فريق زبائنها تتأتى لها عن طريق معرفتها الدقيقة بأصغر تفاصيل حياتهم اليومية . وكان شغفها ذاك يضخم الاشياء . فالتفصيل الذي يعتبر لدى فضول أصغر من فضولها طبقا هزيلا ، يعتبر لديها وليمة ملكية . فما من شيء لديها ضئيل القيمة . وقد جعلها هوسها الجنوني بتسقّط الاخبار تتلقف كل شيء بنهم دون تمييز فمصدر ربطة عنق يثير اهتمامها وتشوقها بنفس الدرجة التي يثيرها مصدر ثروة طائلة . فالشراهة لا تعرف التمييز .

لكن ، من المفارقات الغريبة أن الطبيعة حرمت تلك المراة من مواهب التنجيم التي كان ينبغي أن تمنحها اياها ، واكتفت بالقائها بين براثن أشد الغرائز الحاحا على وجه الارض من غير أن تزودها بوسائل تهدئتها . أما الموهبة الوحيدة التي كانت من نصيب مدام لوند فتمثلت في قدرتها ، لا على الكشف عن سر ما ، بل على اكتشاف وجوده فهي على علم دائم بوجود غموض لا يسعها أبداً أن تتوصل إلى جلائه بمفردها . ويشبه ذلك احدى سخريات القدر ، اذ لولا ذلك ، لتمتعت في حالة التعتيم التام ، ان لم يكن بالسعادة ، فبطمأنينة الجهل على أدنى تقدير . وما كان لشغفها أن يعرف الراحة قط . هناك صوت يدوي على الدوام ويطرق أسماع تلك المراة الشقية . ويصيح ذلك الصوت : « هناك شيء ما . ما هو ؟ لِمَ يبدو هذا الرجل الغني حزينا ؟ لم لا

يرتدي ذاك ملابس الا من لون واحد ؟ لماذا يصل فلان الى المطعم متخلفا عن الجميع مدة ثلاث دقائق بصورة دائمة ؟ لماذا ؟ »

وتتولد تلك الاسئلة داخل ذهنها في كل وقت وتعذبها . وقد بلغ بها الامر حد الظن بأن الناس يتخفون منها ، فاستولى حينئذ على روحها حقد عام تجاه الناس كلهم ، بحيث ينبغي ، اذا شاءت أن تجد برهة من الراحة ، أن توافيها أنجيل باجابة شافية على الالغاز العديدة المنثورة على دربها اليومي من مطلع النهار حتى نهايته . وتأتي الاجابات دائما مخيبة لامالها . فليس من تناسب يذكر بين لهفتها المسعورة لمعرفتها وبين المتعة التي تمنحها اياها . فتقول في نفسها : « ألم يكن غير ذلك ؟ » ويمتلىء قلبها حقدا دفينا على أنجيل التي لم توافها بالغنيمة الرائعة من الاسرار التي تتوق دوما اليها . وهي لم تستوعب بعد ، رغم أنها تجاوزت الخمسين ورغم تجربتها الفضولية الطويلة ، أن هوسها ذاك لا يرمي الى تحويل المجهول الى معلوم بل الى البحث عن المجهول لذاته والعيش ضمن نطاقه . وقد يكون ذلك ما سعت الطبيعة الى افهامها اياه بحرمانها من الحدس الممنوح للنساء بصورة عادية .

ومع ذلك ، فتلك المرأة الخلد كانت تريد أن تبصر ، وكانت معونة انجيل شيئا أساسيا بالنسبة لها ، لان الفتاة ، وهي أقل عمقا من المرأة التي تناديها « خالتي » ، تتمتع بكل الصفات التي تجعل مزاج الرجال صالحا للبوح بالاسرار . لقد تولت مدام اوند تربيتها على نحو ما تقوم حاليا بتربية فرناند الصغيرة ، لكن انجيل اخطأت حين نسبت اليها النية في تحقيق ارباح ، لان المعلمة لم تكن قط بخيلة . حسب المرء من النقائص واحدة . وما من شك في أنها طالبت أنجيل بدفع نسبة مما تكسبه ، لكن ذلك الامر كان نادرا ولا يقع الا في أواخر الشهر حين تصبح الموارد شحيحة . لكنها تقدم للفتاة مقابل ذلك غرفة بائسة الى حد ما ، وهي حقيقة لا تنكر ، بالاضافة الى كل الوجبات تقريبا . لذا كانت تجد نفسها دوما في موقع قوة اذا ما فكرت أنجيل بالانصراف فأين ستجد من يقدم لها الطعام بلا مقابل ؟ وغرفة بلا مقابل ؟

حصلت فيما مضى ، ولمرات عديدة ، مشاحنات بين مدام لوند وانجيل ، فالفتاة نفد صبرها . وبدت أكثر تبرّما مع مرور الوقت . لكن لم يسبق البتة أن كلّمت معلمتها بمثل تلك الصراحة القاسية ، أو عيّرتها بعيبها الفظيع . وعلى ذلك فهي بكلامها مع مدام لوند عن فضولها لم تسبب لها صدمة فقط ، بل باغتتها . وقالت المعلمة في نفسها بمزيج من الدهشة والغيظ : « فضولية ! هذه الصغيرة البائسة تقول عني فضولية ! ولكن لا بد لي من أن أستعلم عن الناس الذين استقبلهم على مائدتي . » ثم مضت تقول في داخلها بمهارة المخادع الذي يتواضع كثيرا حين يكذب على نفسه : « لو كنت فضولية حقا ، لاهتممت بمعرفة ما تفعله مع زبائني . » ثم أضافت بنبرة عالية ، وبنـوع من الرخامة في الصوت كأنها ترافع في محكمة :

— ولكنّ ذلك لا يعنيني .

إنها تعرف في الواقع ذلك النوع من الأمكنة التي يقصدها الزبائن مصطحبين انجيل ، لترددها عليها أيام شبابها . ويظل خيالها مطمئناً من هذه الجهة ، فغريزتها تنبهها الى أن من الحكمة عدم الخوض في تفاصيل هذه العلاقات التي تعرف جوهرها الأساسي . وبدا لها أنه ما دامت تتظاهر بتجاهلها فهي في مأمن من اعتبارها مسؤولة . إلا أنها يوم الأحد ، وهو موعد ما تدعوه بكل عفّة (طلعات) أنجيل ، تظل عصبية ومضطربة الى حين رجوع الفتاة متفكّرة بانزعاج لا تسعى الى تفسيره ، في كل أشكال الهزر التي لا بد لربيبتها من تحملها . وعبثاً تكرر بينها وبين نفسها « وماذا يعنيني من كل ذلك في نهاية الأمر ؟ » فالطمأنينة لا تعود إليها إلا وهي تسمع أنجيل صاعدة الى غرفتها .

وها هي أنجيل الآن بدورها تخفي شيئا عنها . ها هو الشخص الوحيد الذي تحسب أنها تعرفه حق المعرفة يفعل كالآخرين فيتهرب منها . وبدا لها الأمر على درجة من الظلم حتى أوشكت ألاّ تصدقه .

قالت في نفسها : « فعلت ذلك لتنكيد عيشي . تنكيد عيشي أنا ! بم أسأت إليها ؟ لقد ربيتها . أكلت خبزي ونامت تحت سقفي طوال اربعة أعوام بحالها . »

وهزتها لحظة ضحكة صامتة فقررت بينها وبين نفسها إعطاء خفَّين جميلين لأنجيل . لكنها عادت فتذكرت على حين غرة نظرتها ونبرة صوتها فتملكها اليأس . وأنت بصوت عال :

ــ لماذا لم أراقبها على نحو أفضل ؟ في حياتها شيء ما بكل تأكيد . وها هي الآن تفلت من يدي إنها غلطتي ، غلطتي أنا .

وتشنجت قسماتها لعنف الألم الذي اعتصرها وأرغمها على القيام والمشي في غرفتها كأنها لم تعد تدري ماذا تفعل بجسمها . وارتعشت الدموع في عينيها السوداويين فأسبغت عليهما بريق طلاء الخزف . وبدت لها بغتة ، وسط رؤيا مرعبة ، حياة العزلة وأماسي القلق الطويلة . فكيف أمكن لها أن تتحدث على رحيل أنجيل بذلك الاستخفاف؟ إنها لم تكن تدرك حقيقة ما قالته . فالموت أهون بكثير . أجل ، يبدو لها أن التواري والفَنَاء أسهل عليها من أن ترى زبائنها ينسحبون من حياتها واحداً إثر واحد ، حاملين معهم الأسرار التي كانت ترى دلائلها على وجوههم او في حركاتهم بل في ملابسهم . فمن الذي سيبقيهم بعد اليوم ؟ وخطرت ببالها فرناند ، لكن لا ! يستحيل عليهم البوح بأسرارهم إلا لفتاة كبيرة ، وما تزال فرناند في جميع الاحوال صغيرة جداً . وعلى هذا الأساس إذن ستحل نهاية المطعم . وهي ستكون الشاهدة على خيبة أمل الزبائن ثم على نقمتهم العامة . وجاءت رغبة غريبة لتهوي بها الى أسفل دركات الإذلال وتمزق قلبها ، فأرغمتها على أن تتخيل وجه المسيو بلوندو وهي تعلن على مسامعه أن نجيل لن تأتي من بعد ، ووجه المسيو غونسولان ومن بعده باريزيه وتريبت . وتخيلت أصواتهم ، سمعت أصواتهم بنبراتها الناحبة ، الغاضبة ، المتوسلة . وانتابها دوار . كانت وراء مكتبها ،

متشنجة الأصابع حول إناء الزهر الصغير ، شاحبة، واقفة تقدم التفسير والتبرير .

التصق كفاها بوجهها الملتهب تأثراً وخجلاً . لابد من منع الفتاة من الرحيل . ليتها تستطيع فقط أن تتوصل الى اكتشاف السبب الذي يدعوها إلى مفارقتها .

ثم قالت بصوت قوي وهي تشير بحركة آمرة :

ـ على كل حال ، سوف تبقى هنا . ولكن ماذا تخفي عني ؟

وقعدت ثم قامت على الفور .

تأوهت وهي تستأنف مسيرة لا تعرف الكلل داخل غرفتها :

ـ لكن يجب أن أعرف ، ليس من العدالة في شيء الا تخبرني .

ماهذا ؟ ما الأمر ؟

كان شكل معدني للمسيح ، معلقاً فوق سريرها ، باسطاً ذراعيه فوق صليب من القطيفة . فتوقفت فجأة أمامه وشرعت تتأمله بنظرة مشغولة بفكرة بعيدة . وبغتة رأته . بدا برأسه المائل وعينيه المغمضتين في الهيئة المرهقة لتلك المرأة ومشهد قلقها .

وكررت تقول كأنما تتوجه بكلماتها الى الكائن السماوي :

ـ ما الحكاية ؟

مرت بضع دقائق من غير أن تقوم بحركة وغرقت في تأمل ذرع لمصيبتها ، فعادت إليها طمأنينة ظاهرية على الأقل . وكان يتبين من

الأخاديد العميقة التي ظهرت على وجهها ، أن أفكارها قد ساقتها الى مهاوٍ من الحزن فتاهت فيهـا . واكتست السماء وراءها لوناً أكثر شحوباً ، يزينها زنار متورد فوق السطوح يعلن أن طقس الغد جميل. وهاهي أشعة الشمس الغاربة قد توزعت عبر معينات النافذة ، لتؤدي الى التماع البلاط ، وتمر ببطء فوق الجدران . واخرج وهج النور ذاك مدام لوند من تأملاتها . فتنهدت وضمت يديها مغمومة .وانحدرت الدموع التي عجزت عن حبسها حتى الساعة فسالت على جانبي انفهـا الكبـير المهيـب .

وتمتمت :

ـ اذا ما ارتحلت ...

لكن صوتها تهدج فلم يسمح لها باتمام كلامهـا . فأطرقـت راسها ومشت بضع خطى من سريرها الى كنبتها الى وسط غرفتها ، وعليها هيئة مسافر ضل طريقه داخل غابة .

وبعد برهة قالت متعجبة وهي تسمع النادل يدلف الدرج ليتوجه نحو المطبخ :

ـ يالهي ، تأخر بنا الوقت . فالطعام يقدم بعد ثلاثة أرباع الساعة.

حلت يداها ، من وراء ظهرها ، عقدة تنورتها التي مالبثت أن انزلقت فوق وركيها الضخمين . إذ ينبغي في الواقع أن تبدأ العنايـة بهندام المساء . وأن تلبس حلة التفتة المخصصة للعشاء . لكن قلبها كان يتفطر مرارة فأخذت تذرف الآن دموعاً حارة وهي واقفة وسط سناء الأصيل ، لا تلبس إلا صدار الصرج الباهت وتنورة داخلية من قماش النشاف رمادية اللون تكشف عن كاحلين هائلين لامرأة عجوز .

* * *

- ٩ -

بعد أن عبرت انجيل الساحـة ، سلكت درباً يـدور حول لورج مسايرا مجرى النهر واتجهت بعدئذ نحو شانتيليا . ذلك أنها اعتادت ، حين يتوفر لديهـا شيء من وقت الفراغ عند نهايـة النهار ، أن تستغلها فرصة للقيام بجولة قصيرة في المدينة ، والتوجه بتحية المساء الى هؤلاء والى أولئك ، لأنها لا تحب العزلـة . أما كلمات المجاملة العاديـة التي تتبادلها مع جيرانها فلها وقع عذب على قلبها . إنّ حاجتها لأن تكون محاطة بالناس وأن تلمح البسمات على الوجـوه لدى اقترابها وترى الأيدي تمتد لمصافحتها ، قد نشأت لديها منذ وقت طويل . شأنها شأن الذين عودهم حسن وجوههم على سماع كلام المجاملة وتلقي الترحاب من الجميع . وهي لم تكن تجهل البتة أنهم يذمونها بقسوة ، وأن العديد من الناس الذين يسمعونها عندما يلقونها أعذب الكلام ، لا يتوانون عن النيل من سمعتها في الأحاديث المتبادلة فيما بينهم . لكن الأمر لديها لا يعني شيئا . فظاهر من المودة يكفيها . وهدوء بالها منوط بما تلمسه لدى النـاس الذين تلقاهم كل يـوم من مزاج رائق اضف الى ذلك أن الألم يجتاحها لتغرق في حزن عميق لقاء كلمة قيلت بتبرم هنا أو سحنة بدا عليها التجهم هناك . ومن شـأن ذلك أن يفسر سهولـة خضوعها للذين لاحقوها وغازلوها بدءاً من عامها السادس عشر . وجاءت موافقة مدام لوند الضمنية لتدعم ميلها الخاص الى ان تكون محبوبة ، وأن تكون « بنتاً طيبة » . فانساقت بكل يسر لمعاشرة هذا وذاك ، سعيدة بمـا يغدقه عليها الجميع من مجاملات وملاطفات . ولم تضايقها السمعة التي اكتسبتها على هذا الأساس في شيء ، لأنها لم تكن لتتخيل أن الوضع يمكن أن يكون على غير ما هو عليه، مثلها في ذلك مثل كل الذين لا يعرفون المقاومة

بطبعهم . وكانت الحياة تبدو لهـا شبيهة على نحو غامض بنـوع من « الحظ » ، فيها الممتع وفيها المزعج تبعا للحظ الذي قد يحالف المرء وقد يعاكسه ، لكن كل ما فيها محتوم . حتى لتبدو لها فكرة وقوعها في الخطأ غريبة كل الغرابة .

وهكذا كانت مبادرتها الأولى في ذلك المساء أن تبتعـد عن لورج متحاشية بذلك حضور خالتها . لكنها وهي تمر أمام كنيسة سان جود ، لم تصمد أمام الاغراء في دخولها . كان بناء الكنيسة من الطرازين القوطي والرومي . وجرى تجديدها في القرن السابع عشر . وهي واحدة من تلك الكنائس التي تذوي حزينة في عالم النسيان ، لأنها شبه فارغة على الدوام . لكن أجيـالا من المؤمنين خلفت فيها نوعا من ذكرى ورعها . وعندما دخلت الفتاة الى تحت جناحيهـا ، كان الظل قد غمر موضـع الجوقة . ولم تعد الأعمدة الكورنثية المتعاقبة مع الأقواس القوطية تشاهد الا بمشقة . فجلست غير بعيد عن البوابـة تلتقط أنفاسهـا قليـلا وهي تنظر الى ما حولها .

كان يستهويها أخذ قسط من الراحة في كنيسة سان جود من غير ان تكون تقية . ولا تتعدى حدود ايمانها تلاوة صلاة قصيرة بين وقت وآخر ، مع وجود إحساس مشوّش بأن الأمر لا يشكل التزاما كبيراً من جانبها وانه لا يمكن أن يعود عليها بضرر . ثم إنها لم تكن راضية عما يبدر عن زبائن خالتها من استهزاء بالكاهن . وهـذا كل شيء . فالطقوس الدينية تبعث فيها السأم .

احست على أثر انفجار الغضب الذي وقع قبل قليل بالضرورة في أن تمكث ساكنة بعض الوقت ، وأن تتفكر في كل ما قالته وكل ما وجهـه إليها من قول . فدويّ صـوت مدام لونـد الغاضب ما زال يتردد في رأسها . وليس لما حصل اليوم أيّ مثيل سابق في حياتها الرتيبة . فما من أحد اغلظ لها في القول على نحو ما فعلت خالتها ، ولم يسبق أن رأت في عيني انسان بريق غضب على تلك الدرجـة من الشدة . أثار ذلك

المشهد اضطرابها . وكان يشبه يداً قوية جبارة تهزها على نحو مباغت لتخرجهــا من سبات طويل . فهي قد صدقت طوال أعــوام ، إطراءات الرجال وكلمات مدام لوند المفناجة ، حتى أنها استبعدت كل الظنون في أنّ أقوالهم العذبة وابتساماتهم ليست صادقة . وها قد عَرض أمامها علي حين غرة مشهد حقيقي لامرأة ذهب الخوف بعقلها فنهضت تلهث وتضطرب وتتشبث بيديها لتحول دون رحيلها . فانتابها هي نفسها نوع من الفزع حتى إن قلبها ما يزال يخفق بعنف بعد انقضاء ربع ساعة ، دون أن يقوى على استعادة إيقاعه المألوف .

حاولت أن تعود الى حالتها الطبيعية فبدأت تتلو « الســـلام عليك يا مريم » لكن الأفكار المتولدة في ذهنها كانت أقوى من كلمات الصـــلاة ، فواصلت شفتاها الحركة من غير أن تعرف نفسها الطمأنينة . لقد رأت غيريه لأول مرة في أحد شوارع شانتيليا وكان الوقت أصيلا . فمشى على إثرها بعض الوقت ثم سار بمحاذاتها ثم بادرها بالكلام لكن بطريقة مباغتة حتى حسبت باديء ذي بدء أنه في حالة غضب . وانتابها الشعور بأنه في عجلة من أمره ليقول لها شيئاً ثم يمضي في سبيله . ولم يتطرق في كلامه معها لذكر المال بل سألها فقط أين يستطيع أن يراها ثانية . فضربت له موعداً . لكن على مضض . لأن له طريقة غريبة في نطق الكلام وكأن أحداً يشد على خناقه ، ولأنه كان يشيح بعينيه حين تنظر إليه . إلا ان شعوراًمن حب الاستطلاع دفع بها نحوه . ليس من شك في أنها احست بالخيبة لأنه لم يقدم لها شيئاً ، لكن أحست معها بالدهشة ، وكانت الدهشة في نهاية المطاف أقوى من الخيبة . فهل قدمت الى الموعد لأنــه أثار فضولها ؟ ذلك أنها لم ترَ شيئاً من الوسامة لا في وجهه القلق ولا في قسماته المهزولة الذابلة . أما منكباه العريضان المقنطران فولدا في نفسها خوفاً لم تدر له سبباً . لقد بدا كمن ينوء تحت عبء ثقيل أو يرغب في التخفي كواحد من الجناة . وهو لم يخرج يديه مرة واحدة من جيبي ذلك المعطف الرمادي المنسدل حتى منتصف ساقيه ، لكن بدا لأنجيل رغم ذلك أنه كان ممسكا بذراعيها ومعيمميها طوال فترة الحديث . وقد

يعود السبب للالحاح الذي نظر به الى ذراعيها ومعصميها لأنه لم يرفع عينيه إليها البتة .

جاءت الى الموعد على كل حال . أما وقد وقد أخافها ، فكيف حددت له مكانا منعزلا في آخر النهار ؟ ومن الذي يغامر بالحضور ناحية العبارة بعد غروب الشمس ؟ وتذكرت أنه هو الذي اختار طريق العبارة وانها وافقت دونما تفكير لتتخلص منه دون شك . وعندما وصلت راته في انتظارها ، وبدأ من فوره في التحدث اليها ، فشرعت هي ، وقد تولاها الذعر ، في السير أسرع منه قائلة إن المكان غير مناسب وإنها لا تريد أن يراها أحد بصحبة رجل . قالت ذلك طمعا في كسب الوقت رغم أن كل خطوة تخطوها كانت تبعدها أكثر فأكثر عن المدينة وعن المنازل المأهولة . وراودتها فكرة الهروب والاحتماء داخل دغل . لكن ماذا لو عثر عليها ؟ لقد قرأت قصصاً عديدة عن نساء قتلن وسط الأحراش . وهو الآن يجري وراءها . فتوقفت وقلبها يخفق وكلمته بنبرة حازمة على نحو ما يفعل المرء مع حيوان هائج بقصد إرهابه .

لحق بها قرب العبارة وكلمها بغيظ على نحو ما كانت تتوقع ، لكنها صمدت أمامه متكتمة على فزعها ومتصنعة الغضب ، ولشد ما كانت دهشتها حين بدأ يعتذر اليها . بعدئذ اجتازا العبارة وحين صارا على الطريق في الجهة الثانية من الخط الحديدي ، قدم لها خاتما ، واكتشفت في تلك اللحظة أنها كانت غبية لشعورها بالخوف من إنسان وجل على شاكلته ، وقبلت الهدية ، وقد امتلأ قلبها ازدراء نحو ذلك الرجل ذي العينين الكسيرتين . قبلت تلك الحلقة التي سعى لأن يدخلها في إصبعها . لأنه بات الآن ممسكا بذراعها ، فلم يبق الأمر وهما ، ورأت فوق ذراعها الأبيض البض الجميل يداً ضخمة كثيرة العقد ، وهي ترتجف . لكنها لم تعد تخشى تلك اليد مهما بدت جبارة وقبيحة ، بل لم تعد تشعر بغير الشفقة على حركاتها الخرقاء . وعيل صبرها ، فأمسكت بالخاتم ، وهو غير ذي قيمة ، فذلك يرى لأول وهلة ، ووضعته بنفسها في إصبعها .

قالت في نفسها : « يا للفارق الكبير بينه وبين زبائن الخالة ! »
فأولئك لا يضيعون الوقت في تصرفات حائرة مضحكة ، ولا يتوانون قط
عن دفع المال الذي من شأنه التمهيد لهم كي ينالوا حظوة لدى أنجيل .
صحيح أنها تتعامل اليوم مع رجل غريب ، لكن هل يوجد حقاً رجال
على تلك الدرجة من البساطة والغباء ؟ وبدأ الخجل الذي يعاني منه ذلك
الرجل ينتقل إليها ويضايقها . لأنها لم تكن معتادة على مثل ذلك الصمت،
وذلك الموقف المتسم بكثير من المراعاة والخضوع . ولم يكن يساورها من
شك حول ما يبتغيه منها ، لكنها شعرت بأنها عازمة تحت تأثير نزوة
رهيبة من نزوات طبيعتها ، على أن ترفض منح أي شيء لهذا الرجل
لأنه لم يكن يزدريها .

ثم قابلته مرة اخرى . فقد كتبت اليه من تلقاء ذاتها حين بدا لها
انه يتلكأ عمدا في طلب موعد ثان منها . وربما كان يسعى الى تناسيها
والتخلص منها . وبدت راغبة الآن ، حين لم يعد يفزعها ، في معابثته ،
والاصغاء الى ما يَسَعُ الرجال الذين على شاكلته أن يقولوا لأمرأة ،
والنظر الى سحنته . واستعذبت نفاد صبره وأله وغضبه . واستمتعت
بالحفاظ على هدوئها أمام إنسان مضطرب ذلك الاضطراب العميق .
ولا يسعها في واقع الأمر أن تشك في أن ذلك الرجل يتعذب . ولم يكن
لعذابه ذاك أن يدعها غير مكترثة به ، بل كان على العكس من ذلك يثير
مشاعرها . حتى لتحس أحيانا بدافع مفاجيء من الشفقة ، فترى
نفسها وهي توشك أن تمسك بيديه وأن تمسح على جبينه ، من أجل
أن ترى فقط جرحه يندمل وترى الفرح يتجلى في عينيه . إلا أن الغرابة
القصوى في هذا الأمر تتمثل في انها كانت تكبت ذلك الدافع على الدوام .
فربما كانت تخشى مدى السأم المترتب على ذلك التصرف السخي : فمثل
ذلك العربون لا بد أن يستدعي عربونا آخر وهكذا دواليك الى أن تستجيب
في نهاية الأمر لرغبة غيريه ، لكن هذه الاستجابة لم تكن تروق لها ، أضف
الى ذلك الخطر المتمثل في أن يراها أحد . فيوم رآها مثلا للمرة الثالثة في
أسفل جادة البريست ، كان يكفي أن يمر أحد وهي تمد اليه يديها لتكون

المدينة كلها على علم بالأمر بعد ساعة واحدة فقط ، وكانت تخشى أن يكتشف احد مكيدتها الصغيرة تلك ، لأنها كانت تشعر بالخزي لوجودها مع ذلك الرجل .

كانت بسببه تشعر بالخزي وهذا ما جعلها تضرب له موعدا بعد الغروب أو في مكان مقفر ، كالمرة الاخيرة قرب النهر . كان يبدو طويلا جدا وذا شكل غريب في معطفه الفضفاض ، أما وجهه الطويل الحزين فمن شأنه أن يثير ضحك الناس الساخرين . والمدهش حقا أن تبدو فتاة مثل انجيل متمنعة الى ذلك الحد . حسب المرء أن يلقي نظرة على مطعم لوند أثناء العشاء ، والزبائن بكامل عددهم ، ليرى أن السادة الذين تجود عليهم بعطفها ، ليست وجوههم أكثر ملاحة ، ولا أشكالهم اكثر لياقة من الرجل الذي أبدت حياله كل قسوة . الا أن هذه الاجسام القبيحة وتلك الوجوه التي وسمها الغباء بميسمه ، كانت غير مبالية بها . وبدا لها أن زبائن خالتها هم على هذه الحال منذ أن كانوا . ومن غير المعقول ان يكونوا على غير ذلك النحو . وكان هذا الواقع يشكل جزءاً من حياتها مثله في ذلك مثل حجارة المنازل التي يقع عليها نظرها يوميا ، ومثل حوافي السوميانت ، وأشجار الدلب الصغيرة التي تزين طريق النزهة . لكن الوضع كان مختلفاً جداً مع غيريه الذي يمثل في نظرها عنصر المصادفة هذا اذا كانت قد وضعت ذلك في حسبانها. لذا شعرت نحوه بالفتور لأنه لم يكن وسيماً ، كما احست بالمهانة لانه لم يكن اكثر شباباً واكثر غنى ولان له يدين غليظتين وأكماما متسخة وبسبب هيئته المذعورة . أما كانت جديرة بغير ذلك ؟ بأي فرح كانت ستنطلق في مغامرة خيالية وبصحبة فتى في مثل سنها ، مليح الوجه يتفجر نشاطاً ! لكن بدلا من ذلك . . . ان القدر ليستهزىء بها حقا .

احست رغم كل شيء بأنها ملزمة بالعودة لمقابلة ذلك الرجل ، رغم ضآلة ما شعرت به من رضى فأضحت مثل لاعب يرفض الانسحاب من جولة بدات ، فيستمر في لعب لايجتني منه غير السأم ، حريصا على أن يرى كيف ستنتهي . الم تقطع شوطا بعيدا ، حتى أضحى التراجع

حاليا متعذرا عليها ؟ اذ لا يسعها أن تقول لذلك الرجل أن ليس لها فيه من رغبة بعد أن قامت من تلقاء نفسها فضربت له موعداً .

وبدأت على هذا الاساس بمزيج من منطق مغلوط ونزوة هوى عابرة ، تختلق المبررات القائه . ولقد توافق ظهور غيريه مع فترة بدات فيها أشياء كثيرة من حولها لا تثير فيها الا الاغتراب . ذلك أن العادة لم تقوَ على جعلها تقبل عن طيب نفس ذلك النظام المفروض على حياتها : عملها في المصبغة ، طلعاتها مع زبائن خالتها ، وترددها سرا على عدد من سادة المدينة . ففي ساعات معينة من العزلة ليلا ، حين تجعل شدة الحرارة النوم متعذرا ، أو في النهار حين تكون مرهقة بشكل لا تقوى معه على القيام بنزهة ، كان يتراءى لها مستقبلها كسلسلة طويلة من الاسابيع المتوالية والمتشابهة فيما بينها ، أو المختلفة فقط بسبب الامراض وصروف الدهر . وبدأت تطرح على نفسها مئات الاسئلة ، بتأثير نزعة في نفسها للنظر الى الاحداث من أشد وجوهها ظلمة ، فتبقى بلا جواب . ماذا سيحل بها اذا توفيت خالتها يوما ، واذا ما تبعثرت مجموعة الزبائن ، مورد رزقها المهين ؟ ماذا ستفعل لو حل بها ما حل بمدام بيلاتان ، بائعة اللحوم ، التي وفد عليها طفح جلدي تركها مشوهة ؟ لم تكن الاهمية بالنسبة لبائعة اللحوم الا نسبية اما بالنسبة لها ، فيا ملائكة السماء ! ان مورد رزقها الوحيد هو المهدد فعلا .

وها قد جاءها رجل مجهول . ليس رجلا كباقي الرجال ، فهو لا يشبه في شيء زبائن مطعم اوند الافظاظ الذين يشتهونها فيؤدون اليها الثمن ولا يفكرون فيها من بعد ؛ بل هو عاشق ، اجل ، رجل يجلها ، فيا له من أحمق ، بل يقدم لها خاتما صغيرا وكأنها خطيبته . وهو لا يتعرض في حديثه معها لذكر المال أبداً . ثم بدأ يتسرب شعور غريب الى قلبها لشدة ما تفكرت في تلك الاشياء . انها لا تحب ذلك المسكين غيريه لانه ليس وسيما ولا فتيا ولا غنياً . الا أنها راغبة في رؤيته . وعلى هذا فقد أحست بشوق اليه في تلك الساعة في تلك الكنيسة . وتمنت

لو سارت بصحبته على طريق ما ، فسمعته يتكلم بصوته الخفيض ، الخافت قليلا ، ذلك الصوت الذي يتبدى فيه احيانا شيء وحشي . وشعرت وهي أمامه بأنها جميلة وجبارة وسعيدة ، هي الصغيرة جدا في مواجهة ذلك الرجل الطويل والقوي . الا أنه يطرق الراس ويغض الطرف أمام نظرتها .

لكن ما دام يعاملها على هذا النحو ، فما من شك في أنه يجهل وضعها الحقيقي جهلا تاما . فبدأ التعامل معها على أنها فتاة أصعب منالا مما هي عليه في واقع الامر . ومرد ذلك الى انها لا تتخذ مظهر أولئك النساء اللواتي يصبغن شعورهن بلون اصفر فاقع جدا ويتجولن في جادة البريست ما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل . ثم انها لا تضع على وجهها المساحيق والاصباغ ولا تلاحق في لباسها الموضة ، ولكن هل من علاقة تذكر بين تلك المخلوقات المفزعة وبينها ؟ ان اكثر الالسنة سلاطة في شانتيليا تحترس دون الخلط بينها وبين تينك الشقيات . فهي متحفظة في مظهرها وخجولة . وهذا ما خدع غيريه دون أدنى شك لكن ماذا عساه يقول ، او نمى الى علمه يوما ، انها تهب نفسها لقاء المال مثل نساء شانتيليا ؟ سوف يلجأ بالتأكيد الى طرق أخرى حيالها فهل يضني المرء نفسه مع فتاة يستطيع اول عابر سبيل شراءها ؟

تنهدت بعمق وضمت كفيها . ليست فتاة يستطيع أول عابر سبيل شراءها . وليس أدل على ذلك من رفضها الخروج مع المسيو بلوندو . الا أنها لم تصمد في مرات عديدة ، واستسلمت لاشخاص كثيرين ، لانها دفعت نحوهم دفعاً من قبل خالتها ، ولانهم يظهرون لطفاء حيالها لقاء ذلك الثمن فقط . ولكن هل عرفت شيئاً من الفرح يوماً اثناء تلك الملاطفات الكئيبة كلها ؟ لم يحصل ذلك . فطلعاتها بصحبة زبائن المطعم تملأنفسها بالسأم والتقزز غالبا . ذلك أن زبائن مدام لوند ليسوا على شيء من الوسامة أو الشباب . لا بد أن يكون في العالم العديد من الفتيان الوسيمين ، لكن نوعا من القدر قام بتجميع كل ما هو بائس وبشع عند خالتها . شهدت ذات يوم ، قبل ذلك بعام مرور فيلق

من المشاة في طريق العودة من المناورات نحو معسكرهم . ومر على ذلك النحو من امامها مئات الجنود . كانت واقفة عند زاوية شارع ، فزعة بعض الشيء لرؤيتهم كذلك عن قرب ، ومتضايقة مما كان الكثيرون يقولونه لها ، لكنها لم تجرؤ على الهرب ولا كانت راغبة فيه . ويا للدقائق الغريبة التي عاشتها ! كانوا يسيرون بستراتهم المغبرة ، وعمراتهم على رؤوسهم بشكل عرضاني ، وفيهم من بدوا لها فائقي الحسن وفي غاية الانشراح . حتى أن ذكرى ذلك المشهد وحدها تجعل وجهها يتقد اتقادا ، فلقد بدا لها ذلك المشهد صورة لحياتها وملخصا عنها: كانت واقفة جامدة على حافة طريق بينما تمر من امامها تلك الكائنات مفعمة بالقوة والبهجة ، من غير أن تقوى ، بحكم نظام خفي للاشياء ، على القيام بحركة واحدة لاستبقائها . كان عليها أن ترى ذلك الحشد من الشباب يتوارى . ربما كان بوسع واحد منهم ليس الا أن يجعلها سعيدة طوال حياتها . ثم بدت وكأن صوتا صاح بها : « لاحقيهم بعينيك فالدرب يسير بهم نحو مدن اخرى حيث النساء اللواتي يعشقنهم ينتظرنهم ، وكوني على ثقة من أنهم ليسوا محرومين من الحب وليس هناك من يقابلهم بالصد ، لكن انظري ، ها هم ماضون وليس فيهم واحد لك » .

ومنذ ذلك الحين وذكرى تلك اللحظات الاليمة تعود الى ذهنها ، كلما عرض عليها أحد زبائن المطم أن تخرج بصحبته ، كأنها تستهزىء برغباتها . كان في شانيتليا رغم ذلك عدد من الشبان ، تنظر اليهم الفتاة المسكينة بلهفة حين تلتقيهم في الشارع ، لكن الجرأة تنقصها دون شك ، فغريزتها تدفع بها نحو التخفي حين يديرون أنظارهم نحوها ، فتولد لديهم انطباعا بأنها مزهوة وأنها تأبى التحدث اليهم . ولم يبد عليهم أنهم يولونها اهتماما كبيرا لأنهم ما كانوا يلاحقونها البتة . وآل بها ذلك الى الاعتقاد بأنها ليست جميلة بقدر ماكانت تحسب ، أو على الاقل بأن الجمال وحده لايكفي مالم يأت مدعماً بنظرة ومشية فيهما شيء من الجرأة والثقة يكملان سحره. صحيح أن الجرأة لم تكن تنقصها تجاه المسيو بلوندو حين تكون بصحبته، وتراه يقتّر مثلاً حول ما يتناولانه

من طعام أو شراب ، ولا تجاه المسيو غرو جورج عندما كان يحسب أن من حقه التحدث إليها وكأنها كانت وصيفته لأنه غني . لكن الأول منهما واهن والثاني في الستين . ألا يمثلان والحال هذه منتهى ماتستطيع تخيله كوضع حقير وكئيب ؟ فالذين كانوا يلتقونها للتغزل بجمال وجهها ورقة خصرها رجال على تلك الشاكلة . إلا أن امرأة قبيحة الشكل لكنها لينة الجانب مثلها بوسعها والحق يقال أن تحظى بنفس المديح والاطراء . فكيف لها أن تثق بمداهنات أولئك الناس التعساء ؟ أما اذا جاءها يوماً شاب جميل الشكل بهي الطلعة وفي مثل سنها ليتحدث إليها راجيا القرب منها ، فربما تصدق يومها أنها جميلة . كانت تشعر إذن ، بانتظار ذلك ، أنها دميمة ووضيعة في نظر أولئك الذين كانت تود أن تحبهم . وتذكرت بعد ظهر يوم من أيام الصيف ، بعد ظهر يوم رهيب أمضته عند نافذة غرفتها خلف المغلاق ، لأن بعض عمال رصف الطرق كانوا يعملون في الساحة الصغيرة المثلثية المنبسطة أمام المنزل ، ولأن واحداً منهم وكان مكشوف العنق والذراعين ، قد أفعم قلبها إعجاباً كأنه شيء خارق . كان يبدو أن رفاقه يعترفون له بسيادة بسيادته عليهم ، لأنه كان مختصاً بالمهمة الاكثر رفعة الى حد ما ، فقد كان وهو جاثٍ يتولى رصف المكعبات الحجرية التي يأتونه بها . وينتقل من مكانه بين وقت وآخر بتحركات خفيفة ، ليعود الى جلسة القرفصاء وهو مستقيم الصدر ، شبيه بامير يتقدم منه التابعون حاملين إليـه الهدايا .

وتوالت السنون من غير أن تشفيها من تلك الذكريات أو تبرىء الجرح العميق الذي خلفته في نفسها . فهي الفتاة التي لارغبة لأحد فيها . اما عيناها الجميلتان الصافيتان ووجنتاها المتلئتان فطعم لايجتذب إلا المسنين الحقيرين أو الرجال الواهنين أو الوجلين الذين لا يجرؤون على التوجه نحو أحد سواها . إيه ! يا للشكوى التي كانت ستتوجه بها نحو السماء لو كان قلبها عامراً بالايمان ! وهل يسعها أن تتصنع التمنع ؟ قدم اليوم اليها رجل ليس منفّراً بقدر الآخرين ، لأنه يحبها ويتحدث إليها بذلك الاحترام الوجل الذي تحمله هي نفسها في

اعماق قلبها ، تجاه أولئك الذين تلقاهم على حافة الطريق ، أو تنظر إليهم عبر شق النافذة . إنها تدرك الآن كل الادراك ، سر الرعشة التي كانت تهتز بها يد ذلك الرجل حين لمس ذراعها ! فهل يسعها أن تصد إنسانا يربطها العذاب معه بروابط لا حصر لها ؟

نهضت وسط الاضطراب الذي اوقعتها فيه تلك الفكرة . أليست تلك هي السعادة في نهاية المطاف ، والحب من اينما أقبل ؟ بل لو لم يكن ذلك هو الحب الذي داعب احلامها في عزلتها القلقة ، فهل عليها أن تزدري الهبة الغامضة المقدمة إليها ؟ ألن يكون شؤماً عليها هي التي لم تحلم إلا بالحب ، أن تأتي اليوم لتقابل الحب بالرفض ؟ اعتمدت على عارضة المركع(1) بيدها ونظرت فيما حولها وقد تملكتها الرهبة لما قد تخبئه الحياة لها . أما من وسيلة تمكن من تجنب كآبة المستقبل ؟ أليس هذا ما يرمي اليه المرء حين يصلي ؟ ورسمت إشارة الصليب عند أعلى صدارها دون كبير اقتناع . وبدت كأنها ادركت على حين غرة أن الحياة لا تجود مرتين . فينبغي اخذ عطائها والتشبث به . ومثل لها خيالها المكفهر الحياة على صورة كائن مزاجي رهيب ، وطاغية ، ليس من الحكمة التباحث معه . اخذ الليل يهبط الان بتسارع أكبر . وأمست جلبة كرسي يزاح من مكانه ، أو وقع خطى متجول في الشارع ، وحتى رجع الأصوات البسيطة جداً ، تكتسي في هذه الكنيسة اللأى بالعتمة ، صدى خارجاً عن المألوف . وازداد الصمت عمقاً . فهيمن على القبة الداخلية وموضع الجوقة ومواقع الصلاة ، التي غصت بنساء شقيات، قدمن فجلسن يلتقطن أنفاسهن قليلاً ، ويسمعين للتآلف مع اتراحهن . وهن يسردنها على مسامع السماء .

مشت بضع خطى في جناح الكنيسة وظهرها الى الهيكل . كانت تخفق في الهواء بقية رائحة البخور فعبت منهـا مرة أو اثنتين بمتعة حزينة . فهذا العطر المحمل بذكريات الطفولة جعلها تأسف فجأة على

---

(1) المركع : كرسي خفيض ذو مسند للذراعين يستعمل للصلاة .

الأشياء التي لم تنلها . ذلك أنها فيما مضى كانت وهي صغيرة تتخيل الفردوس على صورة سهل ممرج ، مترامي الأطراف ، تحت سماء ربيعية . تتوزع فيه مجموعات من الأشجار المزهرة ، فتقطع رتابة ذلك الامتداد الشاسع المتوج قليلا . وتناثرت هنا وهناك حلقات عقدها الأطفال وهم يرقصون ويغنون . كانت تتخيل على ذلك النحو السعادة الأبدية للنفس المتحدة بالله . ولا تزال ذكرى المفهوم الساذج تعتادها حتى الآن ، فتحلم بذلك من غير أن تبتسم ، رغم بعد الشقة بين تطلعاتها كبنت صغيرة والرغبات التي تدغدغ خيال شبابها حاليا . فتتساءل على نحو مشوش هل كانت السعادة كامنة في تلك الأوهام الخاصة بالسنين الأولى، حين كانت الروح تنساق بكل يسر مع عذوبة الاحلام ، من غير أن تتدخل قوة الفعل لتقويم مسار تلك الدروب المذبة التي يتيه فيها الخيال .

وحينما بلغت عتبة الكنيسة ، راحت تفكر بغتة بفيريه ، وبصوته الأجش والمهذب في آن معا . أما إذا اكتشف يوماً أنها قد باعت نفسها لكثيرين ، فبأية لهجة سوف يكلمها آنذاك ؟ أيمكن وهو في شانتيليا ، حيث اعتاد الناس الثرثرة ، الا يكون أحد قد أطلعه على واقع الحال ؟ وماذا لو امتلأت نفسه نفوراً فتركها ورفض لقاءها من جديد ؟ واحمر وجهها من تلك الفكرة المذلة ففتحت الباب . أهناك حقا ما يستدعي عناء قضاء ربع ساعة في كنيسة للخروج من بعد والقلب ممتلىء يأساً وغيظاً ؟

* * *

لم يكن عليه في هذه المرة أن يختار مكان جلوسه : فبينما كان يعلق قبعته فوق المشجب ، تقدم نادل ليقول له إن صحنه قد وضع على المائدة الكبرى ، فتوجه الى هناك ليجلس بين السيد موريستيل وبين بلوندو الابن ، وهكذا قطع عليهما نقاشا حاميا في السياسة وإن يكن بصوت خفيض . كانت المائدة مكتملة العدد ، فتعمد بدافع من الخجل ، نوعا من المباغتة ، وسعل مرة أو اثنتين وهو يبسط فوطته . لكن لو أتيح لهؤلاء السادة أن يروه قبل ذلك بخمس دقائق في عتمة الساحة الصغيرة ، حائراً وجلا مثل من اقترف ذنباً ، متردداً مرات ومرات قبل أن يدخل ، فهل من يدري مقدار ابتسامهم لرؤية تصرفاته الملأى بالثقة ، ونظرة التحدي تلك ، التي صوبها شطر جيرانه ؟ كان يبـدو قائلا : وصلت متأخراً ، بلا ادنى شك . فهل هذا يضايقكم ؟ إن ذلك ليؤسفني . كان يجهل في الواقع مقدار المهابة التي أضفتها عليه تلك الدقيقتان من التأخر . وبدت عليه الهالة الخطرة لأنه تحدى مدام لوند ، التي لم تكن تتساهل على الاطلاق في موضوع التقيد بالمواقيت . لكن لم يبد على مدام لوند أنها مغتاظة . بل على العكس ، كانت تبتسم له وتحني رأسها وهي تنظر باتجاهه بسماحة ملكية .

أبدى بلوندو دهشته قائلا بصوت خافت : عجبا ، إن للسيد حظوة كبيرة لدى المعلمة .

اجابه موريستيل بلهجة ملؤها الاعجاب : كنت أوشك ان أقول ذلك . فلم يسبق البتة أن وصل احد متأخراً من غير أن تقول له شيئا .

وعلق زبون لم يكن بوسع غيريه أن يراه بسبب نبتة شتوية كبيرة حجبته عنه : اذا لم يكن السيد من هنا فمن غير المدهش بالتالي أن يجهل واقع عاداتنا .

فمال موريستيل صوب غيريه كمن يبوح بسر قائلا : الغداء في الثانية عشرة والعشاء في السابعة .

ـ شكراً ، يا سيدي .

ـ حباً وكرامة .

وساد صمت قصير استهلكت أثناءه فضلة الحساء المتبقية في الصحون بجلبة كبيرة ، عاد بعدها الطاعمون يتبادلون الأحاديث بأصوات عالية أو خفيضة ، ضمن حدود الطابع الخاص الذي يحافظون عليه في مطعم لوند .

قال موريستيل ، وهو يمسح فمه ويلتفت ناحية غيريه :

ـ أرى أنك لست زبونا يومياً على نحو ما نقول هنا .

فأجاب غيريه : ذلك أني في الواقع لا أتمكن من الحضور إلا مرة في الاسبوع كما ترى .

كان يكره نفسه على الحديث الى ذلك الرجل الذي لم يرق له شكله ، لكن بدا ضرورياً من ناحية أخرى أن يستوضح عن بعض الأمور ، وها هي ذي الفرصة مواتية . تفحص جاره بنظرة سريعة . إنه شاب ذو كتفين ضيقتين ، يرتدي بزة من الصرج الأزرق بدت لماعة لطول الاستعمال . كان وجهه المنزوف وجه رجل أشقر سيء التغذية ، عليه تجاعيد مبكرة بدت مستمتعة بحفر اخاديد متعددة الاتجاهات في بشرة بائسة . أما فمه الصغير جداً والمحاط بكثافة من الشعر الاشقر فقد

بدا بلا شفتين تقريبا . وهكذا فهو كلما فتحه ليتكلم ظهرت سلسلة من التعابير المفزعة . وكان فضل زجاجتي نظارتيه السميكتين عليه ، إخفاء النظرة الوقحة والوجلة لعينيه الزرقاوين . لكن دمامة الرجل الأخلاقية آثرت أن تظهر موجزة في الأنف الذي صاغته الطبيعة دقيقاً حاداً كمنقار طائر . إنه لأنف غريب الشكل خال من الأنفة ، وعلى أهبة الاستعداد للاستكانة مرغما تحت وطأة الضربات . أضف الى ذلك أنه الجزء الوحيد الذي رضي الدم أن يتجمع فيه دون سائر أجزاء ذلك الوجه التعيس .

ثم استأنف غيريه يقول :

ــ أيسعني باوري أن أسألك إن كنت تأتي الى هنا كل يوم ؟

ــ كل يوم منذ عامين ونصف . أي أنني واحد من افضل زبائن مدام لوند واقدمهم .

فبادره أحد الطاعمين ولم يكن باديا عليه أنه مصغ إليهما :

ــ تقول أحد اقدمهم ؟ نحن هنا اثنان نتغلب عليك بستة اشهر وثمانية يا سيد موريستيل .

حينئذ قال الجار الأيمن لبلوندو الابن :

ــ أنا لا اخشى أحداً في ميدان القدم . واسألوا مدام لوند : ألم تقدم لي بنفسها وجبة عشائي الأول . وحين أقول لكم إن مدام لوند كانت تقدم الطعام بنفسها ، فإنما اقصد فترة ، قبل نيف وثلاثة اعوام .

قيل هذا الكلام بصوت كئيب وبطيء ، وبلكنة ريفية قوية ، من قبل رجل توارى رأسه الضخم ومنكباه العريضان ، على نحو شبه كلي ، تحت الفوطة المعقودة وراء قذاله . وانحدر شعره الأسود المجعد حتى

جبينه كما انسدل عند سالفيه ليغطي خدين مصابين بعدة وزدية(١) ، وكان وهو يتكلم ، يدير نظرة عدائية على الطاعمين الجالسين قبالته .

فأجاب الرجل الجالس وراء النبتة بنبرة لا تخلو من المرارة :

ـ معك حق ، يا مسيو بورج ، فأنا كنت أقصدك أنت ذاتك ، حين اوضحت للمسيو موريستيل أنه لا يعتبر اذا صح القول من أقدم زبائن مدام لوند . لكن ،على كل حال ، لنكن اكثر دقة في حساباتنا . ولنحذف أربعة أشهرغياب من الأعوام الثلاثة التي ذكرتها .

وباعد ما بين يديه ،على نحو ما يفعله خطيب ، والقى على من حوله نظرة ملأى بالثقة كأنه يريد تشجيع جيرانه على الوقوف الى جانبه .

عندها تمكن غيريه من رؤية الوجه جانبياً فبدت الصورة طويلة ولئيمة ، أضفت عليها بهجة الانتصار مسحة من ذكاء .

« أربعة أشهر ؟ » ردد ذلك القول ، السيد تريبت ، وهو شاب سمين أصفر اللون يجلس عند الطرف الضيق من المائدة .

كان ذا صوت حاد فالتفت كل واحد صوبه بهيئة تعجب وسخط ، لأنه تكلم بصوت عال جداً . لكن جوابه كان متوقعاً فخلف ارتياحا كبيراً . فجيران المسيو بورج ، بائع الدواجن ، ما كانوا ليخاطرون بازعاج رجل في مثل حدة طباعه ، أما هذا الغر فحديث العهد هنا . أما السيد باليسون الذي خاطب بورج من وراء النبتة ، فقد أطلق الجميع عليه لقب الوقاحة ، حتى أصبح مسلما لديهم ، ومعهم المسيو بورج ، انه يستطيع أن يقول كل ما يخطر منه على بال . ويروى عنه أنه تصنّع المكر مرة في مجتمع . وهو يمثل العنصر المتطرف في مجلس الأغبياء ذاك .

---

(١) عدة وردية : احمرار ناجم عن تمدد في الاوردة الشعرية .

واستأنف قائلا :

ـ قلت أربعة أشهر ، يا مسيو موريستيل . لكنكم زبائن جدد لدى مدام لوند . لا يسعكم أن تعرفوا ، إن لم يخبركم أحد ، أن المسيو بورج قد تغيب أربعة أشهر كاملة ، غير منقوصة ، في العام الماضي ، وهذا ما ينقص أشهر حضوره الى اثنين وثلاثين ، أي الى عامين وثمانية أشهر .

فهتف المسيو بورج وقد علا صوته من حدة الغضب :

ـ إنك لتغيظني بحساباتك . فهل الذنب ذنبي إن كنت قد أصبت بنوبة احتقان رئوي ألزمتني الفراش ستة أسابيع ، تلتها ستة أسابيع نقاهة ، وكل ذلك على حساب توقف تجارتي أيها السيد الذكي ؟

ـ نوبة احتقانك الرئوي ؟ كان بوسعك أن تقول نوبتك فقط ، بل إصابة مخك . فذلك أقرب الى الحقيقة .

أطلق المسيو باليسون تلك الكلمات بنبرة باردة . فرد عليه المسيو بورج مزمجراً وهو ينض عن مقعده قليلاً ، وقد احمر وجهه فصار قرمزياً :

ـ اصابة مخي ! انا لم أصب في مخي البتة يا سيد ، وكل الذين يقولون ذلك كاذبون .

ارتفع هنا صوت مدام لوند البعيد قادماً من صدر القاعة :

ـ اخفضوا أصواتكم ، أيها السادة ، اخفضوا أصواتكم . إنكم تتناسون أين أنتم .

تطلعت الانظار كلها الى المعلمة . لم يكن يظهر منها ، لارتفاع المكتب، إلا رأسها الساكن وكتفاها الجبّاران ، لكن باقة الآذريون الصغيرة انتقلت فجأة وبحركة من يديها غير مرئية من اليمين الى اليسار .

فتمتم موريستيل قريباً من أذن غيريه : إنه لنذير سوء حين تمديدها الى أزهارها .

وساد الصمت بضع ثوان ايضا . كان النادل يدور حول المائدة بلا ضجة ليوزع اللحم بينما عاد المسيو بورج الى الجلوس . وبدأت قطرات من العرق تسير ببطء داخل تجاعيد جبينه لتتلاقى وتسيل من فوق انفه الصغير فتجعله يلتمع . أما الغيظ المكظوم فجعل حدقتيه تسودان واضاف إليهما تعبيراً وحشياً وبائساً ، كان من شأنه أن يثير شفقة قلوب أكثر حساسية من قلوب جيرانه . وحين قدم إليه طبق اللحم ، غرز شوكته في ضلعيّة بوحشية اثارت ابتسام الجميع وأدت الى تبديد جو الترقب الذي اشاعته كلمات مدام لوند .

وهمس موريستيل يقول :

ــ كنت حاضراً يوم أصيب تلك الاصابة المخيفة . شيء عجيب . لقد اصر دوما على أن الاصابة في صدره ، إذ سبب له تيار من الهواء احتقانا رئوياً . لكن المسيو باليسون موجود في الصيدلية ومثل هذه الأمور كما تعلم لا تنطلي عليه . وهو يتحدث الى المسيو بورج من وقت لآخر في موضوع اصابته بدافع من التشفي ، لأنهم لم يشتروا الأدوية من عنده . ولن يطول الأمر بذلك الرجل السمين قبل أن تلم به اصابة اخرى .

فقال غيريه وقد ضاق ذرعاً بتلك الروح العدائية : يا له من رجل مسكين !

فاتسعت عينا موريستيل من فرط الدهشة .

ــ أهذا ما تراه ؟ ذلك أنك لا تعرف بورج حق المعرفة . ولولا خوفه من الدرك لكان لوى عنق باليسون منذ وقت طويل .

التقط السيد بلوندو هذه الكلمات الأخيرة مع انها قيلت بصوت خفيض ، فلوى فمه على الفور ناحية غيريه بحيث لا يكون مسموعاً من قبل بورج الجالس الى يمينه :

ــ إن شئت ان تجعله سوداوي المزاج ، اسأله كم باع من الدواجن ، العام الماضي في معرض بون ــ اميليار الكبير . فالأمر مضحك الى درجة لا يسعك أن تتخيلها !

قال ذلك ورفع الكأس الى فمه ، كأنما ليخدع المسيو بورج الذي تيقّظ الشك لديه على نحو مفاجىء ، وشرب أربع أو خمس جرعات من الماء بمظهر من البراءة .

وبغتة صاحت مدام لوند بالنادل :

ــ هيا استعجل : فها أنت ترى أنهم ينتظرون السلطة . ضع وعاء شرائح العجل جانبا ، وهب لإحضار السلطة . استعجل ، يا ولــد ، بسرعة اكبــر .

فقال موريستيل : إيه ، قلت لك حقا إن الأمور سوف تسوء .

كان واقع الاحساس بالتنحي يولّد في نفس المعلمة كل ذلك السخط . فقد تبينت أن دراما كاملة تدور أحداثها على المائدة الكبرى ، من غــير أن تتوصل لالتقاط كلمة واحدة . اما تلك الهوة من البغضاء التي تشرف عليها من علياء مكتبها ، فكانت تتمنى أن ترمي بنفسها فيها ، أن تسبر أغوارها ، وتستكشف خباياها ، أن تعرف ، آه لو تعرف ! وفكرت : « لكن ما الذي يقولونه فيمــا بينهم ؟ لِمَ سحنة المسيو بورج مقلوبة على ذلك النحو ؟ والمسيو غيريه ، ماذا يقول لجيرانه ؟ » كتفت يديها

وأغمضت عينيها بألم . وقالت في نفسها بنوع من المواساة : « كل ذلك ستعرفه أنجيل يوم الأحد » . « أجل . ولكـن هل ستحكيه لي ؟ » وعادت تتألم مجدداً .

وأضاف موريستيل وهو يقطع شريحة اللحم في صحنه :

ـ لقد تنازعت حسبما أرى مع الصغيرة .

سمع غيريه هذه العبارة ، لكنه تردد هنيهة قبل طرح السؤال الذي يفكر فيه من بداية العشاء . انقبض حلقه . فقبل قليل ، وبينما هو يتجول حول كنيسة سان جود أبصر أنجيل . كانت تجري فتتبعها . دخلت المطعم ، فرآها تجتاز القاعة لتتوارى خلف الحاجز الداخلي . لماذا لم تخبره بأنها تعرف مدام اوند ؟

وسأل بعد قليل : ومن تكون الصغيرة تلك ؟

فقال موريستيل واللقمة في فمه : ولكنها أنجيل .

وتلا الصمت مجدداً تلك الاجابة .

وبغتة سأله موريستيل قائلاً : الن تأتي على شريحتك كلها ؟ فأومأ غيريه أن لا .

ـ هل ترضى إذن بأن تتخلى لي عنها ؟ شكراً ، شكراً جزيلاً .

ثم اضاف يقول بمزيد من المودة ، وكأن تلك الهبة القطعة من اللحم تستحق جزاء مقابلاً :

ـ اذا كنت لا تعرف الصغيرة فليس في ذلك ما يثير الدهشة . انها ابنة أخت مدام اوند ونحن ندعوها كذلك .

ـ كـذا ؟

ـ أجل . ويبدو لي مضحكاً أن لا تكون مطلعاً على ذلك ، الا ترى؟ لقد انقضى زمن طويل ونحن على معرفة بها . ونتخاطب بكل يسر أنا وإياها بكلمة : انت(١) .

فقطع بلوندو الكلام قائلاً :

ـ يبدو لي أن جارك يسرد عليك ترهات . ومن يسمعه يحسبه أحد ... كبار العشاق . فقال باليسون بسرعة : يحسبه دون جوان .

فأطرق موريستيل . وابتسم بلوندو . اما بورج الذي لم يلتقط شيئاً من الحديث ، لكنه رأى شيئاً من الخذلان في سحنة موريستيل ، فقد كتم ضحكة وراء فوطته .

فأوضح بلوندو قائلا وهو يؤدي حركة ، كمن يمسك بزهرة بين ابهامه والسبابة :

ـ الجانب الصحيح في كل ذلك أن انجيل ليست بريّة .

كان وجهه مستديراً ومبتهجاً ، تنبسط بشرته لما تحتها من شحم فتلتمع . أما فمه الذي لا يطبقه بشكل تام أبداً فممتلىء وصغير . واذا ما رأى المرء طريقة تلاعبه بناظريه ، أيقن أنه مزهو بحدقتيهما العسليتين الواسعتين وهدبهما السميكة . أما دهن الشعر الذي يستخدمه فتفوح منه رائحة بنفسج ونضح صوف مقززة . وتنتفخ ملابسه ، وهي من الصرج الأسود ، لأنها تحيط بقامته القصيرة وجسمه البدين فلا يبدو من شخصه إلا الدوائر .

---

(١) tu = أنت . حين يتخاطب بها الاثنان بدلا من vous = انتم ، فدليل على المودة ورفع الكلفة ـ م ـ .

ثم اضاف بشيء من الصلف : حسب المرء أن يعرف كيف يتحدث إليهـــا .

فقاطعه المسيو باليسون بنبرة ازدراء :

ـ لكن اسكت . فالمرء يعرف دوماً كيف يتحدث الى فتاة عـلى شاكلتها اذا كان في جيبه مئة فلس .

فرد بلوندو ساخطاً من ذلك الايضاح :

ـ ما خلا الأيام التي تصرف فيها الصيادلة عن وجهها .

فرد عليه باليسون قائلاً :

ـ اذا كنت تقصدني بكلامك ذاك ، فلي الشرف أن أقول لك إنك تكذب ، يا صغيري بلوندو . وقد عرضت علي بنفسها أن نخرج يـوم الأحد الماضي ، لكنني ، وأنت تسمعني جيداً ، أنا الذي رفضت .

وهنا اسمع بورج صوته . فقال بانفجار فرح وفظاظة :

ـ هذا غير صحيح . إنها هي . واقسم إنها على حق . فحسب المرء أن ينظر اليك لكي يفهم .

دارت تمتمات حول المائدة . واصفر وجـه باليسون وهو ينهض قليلا ليمد يده من فوق النبتة ويشير باصبعه مضيفاً :

ـ ولقد رفضت ، لأن النساء اللواتي مَسَسْتَهن يا مسيو بورج، لا يثرن بي اية رغبة من بعد ، اية رغبة ! واذا كانت لدي من نصيحة اسديها إليـك ، وهي نصيحة مجانية يا مسيو بورج ، فهي أن تكون متنبهاً مع النسـاء . فالذي لونه بلونك ورقبته مثل رقبتك ...

فصاحت مدام لوند بعد ان اصاخت السمع بلا جدوى :

ــ أيها السادة لا يسعني أن أسمح بأن تتحدثوا بهذا الصوت العالي.
لقد استبدّ بها الغيظ لأنها لم تتمكن حتى من إدراك معنى ذلك النزاع ، بل أوشكت في لحظة ما أن تسأل عن سبب تلك الجلبة التي لم يصل إليها منها إلا نوع من الصدى المضطرب . واذا كان صوتها قد أوقف الدمدمات ، فقد عجز عن السيطرة على باليسون الذي لم يدر حتى رأسه ، بل تابع وهو يشير باصبعه الى بورج :

ــ برقبة مثل رقبتك ، يا مسيو بورج ، لو كنت مكانك لتملكني الخوف .

ومن ثم قعد . وران صمت رهيب فكان ضرباً من التعليق على تلك الكلمات . وفجأة بدا كأن الموت حل على نحو مباغت فاتخذ مكاناً له على المائدة الكبرى . وأرخى بورج فكه ونظر فيمن حوله ، من غير أن يقوى على التلفظ بحرف واحد ، باحثا في عيون جيرانه عن فكرة تطمئنه ، إلا أنهم كانوا يشيحون بوجوههم وبدوا كأن صدورهم ضاقت بمنظر تلك الاستغاثة .

ــ واخيراً !

هتفت مدام لوند بذلك متعجبة وعليها هيئة من احرز النصر بمشقة.

كانت على استعداد لأن تضحي باصبع من يدها مقابل أن تعرف ما كان يقوله باليسون . لكنها كبتت بحزن ذلك الاندفاع المفاجىء الذي كان يدفع بها الى استجواب زبائنها ، فتحولت بسخطها على رأس النادل :

ــ أسرع بالفاكهة يا ولد ! أنت تتباطأ منذ بضعة ايام . وانا احذرك : فانت تعرف أنّ هذا لا يروق لي .

واستمر الصمت بضع ثوان أخرى لم يسمع خلالها إلا صرير السكاكين وهي تعالج عظام الضلع لتنتزع عنها آخر بقايا الغذاء . ثم أطلق أحد الطاعمين تنهيدة فخاطر جاره بإبداء ملاحظة جرى التعليق عليها فوراً . ثم استؤنف الكلام .

وتمتم موريستيل قائلاً لفيريه :

ــ بوسع تلك الفتاة على كل حال أن تتباهى بتأجيج العديد من نيران العداوات على المائدة الكبرى . فالنساء غادرات جداً .

كان الارتباك ما يزال بادياً عليه بسبب الإهانة التي تعرّض لها قبل قليل ، فأخذ يواسي نفسه بكلام يطال العموميات ، لكنّ غيريه لم يجب من فوره . كان مكتوف اليدين كأنه يسعى للسيطرة على الانفعال العنيف الذي تسبب في ارتعاشهما . وحلّ أخيراً عقدة لسانه فمال ناحية موريستيل وسأله من غير ان ينظر إليه :

ــ الا قل لي ، لقد ذهبت إذن بصحبة الجميع ؟

فأجاب هامساً :

ــ تقصد بصحبة جميع الذين هنا ؟ أجل ، بالتأكيد . بدءاً من باليسون الذي لم تعد راغبة فيه ، وانتهاء ببلوندو الذي ينبغي أن يخرج معها يوم الأحد . لكن علينا الا نتكلم بصوت عالٍ جداً . لأنك إذا ما أثرت بينهم موضوع الأولويات مجدّداً فسوف يمزق بعضهم بعضا . ثم إن مدام اوند تنظر إلينا شزراً .

ــ وماذا على المرء أن يفعل من اجل ان يخرج بصحبتها ، على نحو ما تقول ، يا مسيو موريستيل ؟

ــ إليك . تتوجه اولاً الى مدام لوند وتطلب تسجيل اسمك على القائمة ليوم الأحد في التاريخ الذي تحدده . وعليك طبعاً أن تدفع

سلفة ، لكنّك لن تأسف عليها ابداً ، فهيّا . حين تراها بادىء الأمر تحسبها صغيرة بعض الشيء . فهي ذات سيماء يمكن أن تخدعك ، لكنّها في حقيقة الأمر أشدّ مكراً من أيّ فتاة في شانتيليا . وعيناها عينا ملائكة ، كما قلت لك ، لكن مع العينين ... يبدو أنّ ما أقوله لا يروق لك . أنا الذي أودّ إسداء خدمة لك .

ـ شكراً ، يا مسيو موريستيل . قلتَ إنّها ستخرج بصحبة المسيو بلوندو . فمن هو المسيو بلوندو هذا ؟

ـ لا ترفع صوتك هكذا . إنّه جارك من اليمين .

ـ وإذا لم أرغب في انتظار مرور المسيو بلوندو ؟ هل تستطيع مدام لوند تسوية هذه المسألة أيضاً ؟

ـ لا ادري . فمثل هذه الحال لم تحصل البتة . إذهب بنفسك واسأل المعلمة . لكن دعني ! لقد آلمتني وأنت تشدّني على هذا النحو .

ـ معذرة ، يا مسيو موريستيل ، فأنا لا أدري أين شرد ذهني . هل ترغب في نصيبي من الفاكهيّة ؟ تفضّل خذها . وتعال ننتهي معاً من زجاجة نبيذي ، بعد أن أفرغت زجاجتك . ذلك انّي لا أحسّ بشهيّة نحو الطعام هذا المساء ، لكن لدي رغبة كبرى في شرب كأس بصحبتك ، يا مسيو موريستيل !



الانتظار . ما من سبيل أمامه غير الخضوع له رغم شعوره بنوع من تأجج اللهفة في قلبه . فمنذ أسابيع وهو لا يعرف من راحة للبال . فلا يتوقف ولا يتحول عن الدروب القاحلة التي تسير به الرغبة عليها . هناك جوع دائم يفترسه . ومهما تكن معاناته منه كبيرة ، فكل ما لا يمت الى ذلك الجوع بصلة يثير نفوره . ما قيمة الحياة وهمومها الصغيرة إذا ما قورنت بالواقعية الرهيبة لهذا القلق ؟

لم يرقد من اجل ان ينام . لكن من المستحسن ، وقد حلّ الليل ، ان ينتفع بنداوته وسكونه . فبوسعه على الأقل أن يستسلم لعنائه . فالحاجة تعتمل في داخله من أجل ان ينكأ جرحه ، وأن يمزّق نفسه ويسمّم ذاته ، ما دام عاجزاً عن الشفاء . ماذا يجني لو سلى النفس عن داء انشب مخالبه في جسده وروحه ؟ من الأجدى الا يقاومه وليترك البلوى تفعل فعلها حتى أقصى المدى .

ظلّ راقداً مدة تربو على ساعة ، وأجفانه حرّى ، وفي رأسه ثقل وعناء ، حتى ظنّ مراراً أنه مغرق في النوم ، لكنّ فكرة ظلّت ساهرة في مكان ما من اعماق دماغه ، كلسان لهب عجزت أيّة نفخة عن اطفائه . كان يميز وسط الظلمة مساحة بيضاء طويلة تبدو امامه مرتعشة قليلاً ، تليها بقعة سوداء : الجدار والباب . سوف يجتاز يوماً عتبة هذا الباب كي لا يرجع من بعد إلى هذه الفرفة التي سبق أن عانى فيها مرّ العذاب . أيكون ميتاً أم على قيد الحياة ؟. والى أين سيتوجّه إذا كان على قيد الحياة ؟ ترى ماذا سيلقى ؟ خيراً أم شراً مما عرفه حتى الآن ؟ اليس

مفزعاً أن تبقى على هذا النحو محصوراً داخل معرفة الحاضر لا تدري : هل سيخفف المستقبل من آلامك أم سيزيد في عذابك ؟ إنّه لشحّ يلتزمه الزمن حيالنا فيوزّع آلامنا متفرّقة على ساعات وأيام . ولا يجود علينا بها إلاّ بمقدار ، كيلا يقتلنا بسرعة فائقة .

أخذ الغطاء يلهب جسده رغم إحساسه بالهواء البارد على وجهه وكتفيه . فنهض باحثاً عن قارورة الماء التي تعوّدت زوجته أن تضعها كل مساء فوق المنضدة المستديرة في وسط الغرفة ، لكنّ يديه الملحاحتين لم تقعا عليها فوراً . فاضطر الى فتح النافذة قليلاً كي يراها. كان الجو في الخارج رائقاً . اكتست الغرفة حلّة غير مألوفة وسط الضياء البارد والقاسي المتسرب من فتحة النافذة . وبدا كأنّ الكراسي الثلاثة حول المنضدة ، والطبقية ، وأرض الغرفة ، كانت غارقة في سبات يفوق الوصف ، لعمق السكينة المخيمة . في تلك الساعة يطال الخدر الآلام العظمى ، ويخلد الهمّ للرقاد ، ويغوص المريض في نوع من الاغماء المستطاب فيستمد قوى يتصدى بها للأوجاع . ويلوذ الهواء بالصمت . قد لا توجد في قريتي اورج وشانتيليا نفس واحدة لم تذق لحظة السلام تلك ، بينما هو واقف ، وجسده دبق من الحمّى ، مثل معذّب حرّمت الراحة عليه . طاف خياله على مئات الراقدين ، شيوخ تجمّعوا على أنفسهم وسط أسرّتهم ، رجال على ظهورهم وأذرعهم منبسطة على طول أجسامهم مثل القتلى ، فتيات بأجساد بيضاء ممتلئة، وأنفاس تثير البهجة ، وعالم كامل بلا حياة منجذب نحو النهار .

ورآها هي أيضاً : كانت مستلقية على سريرها بشكل عرضاني قليلاً ، ورأسها مرتد الى الخلف ، مشرّعة نحرها للجريمة أو الحب . اما ذراعاها المرفوعتان كجناحين فتتواريان داخل الموجة السوداء لشعرها الكثيف . كانت نائمة وكأنّها ميتة . فالدم أبطأ جريانه في عروقها وكفّ عن تلوين وجنتيها . لو أنّ أحداً قتلها ذات ليلة لعثروا عليها بكل تأكيد وهي على هذا النحو ، إلا انّها ستكون عارية وسوف يتدلى شعرها وذراعاها على الأرض . ولو أنّ أحداً ضمها حتى الاختناق التام ،

لأضحت بذلك الوجه الشاحب والفم المفتر الذي لن يقوى من بعد على الصراخ أبداً .

الاما أشد ما يزدريها ! ففي الأول من أمس فقط ملأ الحنان شغاف قلبه وهو يفكر في يديها وفي أذنيها الشبيهتين بأذني بنت صغيرة . فتلك الذكريات وهي تعتاده في العزلة كانت تحمل له شيئاً ودياً مواسياً . حتى كأنها هي نفسها كانت تهمس قائلة له : « لا أريد أن تعاني كثيراً » أما الآن وقد بدت الحقيقة جلية . الآن وهو يعرف أنها استسلمت للجميع ولم تتمنع إلا عليه ، فقد بدا له أن قلبه لم يعد يقوى على احتواء كل الحقد الذي أودعته فيه تلك المرأة . كان يبغضها بخاصة ، لأنه كان يشعر أن تولهه بها لن يعرف الوهن أبداً . فالكائن الذي يتعلق آخر ، إنما يتخلى في الوقت ذاته عن حريته والى الأبد . قد يخبو الشوق ، والعشق قد يذبل تماماً ، لكن يظل في أعماق القلب شيء لا يسع المرء التصرف به على هواه . فهو يُعطَى لكن لا يؤخذ أبداً . وحين يقع الرجل في الهوى يبيع روحه . وعبثاً يأتي الحقد لينازع الحب مكانه ؛ فهو حتى الممات مملوك لمن أحبهم . كان مدركاً ذلك . وأنذرته غريزته بالمظهر الغريب الذي ستتخذه انجيل في نظره بعد عشرة أعوام ، بعد عشرين عاماً ، وبالتبعية التي سيحياها أبداً وعبودية الذكرى . وسوف يظل خاضعاً حتى آخر حياته ، بفكره وقلبه بل وبحواسه ، لامرأة جعل نفسه هزأة لها ، فسخرت بكل تأكيد منه ومن مظهره .

أما وقد ثارت في نفسه الآن تلك الثائرة على الحب فإن رغبته فيه قد ازدادت . وتمور احياناً بداخله فورات من الغضب المباغت وهو يتذكر ما ألحق به من عذاب ، فتمزق صدره الرغبة في إلحاق الأذى بدوره وتحقيق النصر . الاما أروع العنف ! وأي تشفٍ سيفعم قلبه حين يطأطيء حتى الأرض رأس تلك التي أذلته !

بدا له أنّ نسغ قوة جديدة بدأ يسري منساباً في ذراعيه حتى بنانه . أما يداه فكانتا مثل كائنين حيين لهما حياتهما الخاصّة ، فتنقبضان وتنفتحان وتتقابلان باستمرار ، سعيدتين متحفزتين للعمل .

ولفرط ما فكّر فيها حصلت لديه واقعة غريبة . لقد نسي صورة وجهها طوال ساعات كاملة . تذكّر بكل يقين شكل أنفها وشفتيها اللماعتين المنقسمتين كفلقتي ثمرة ، لكنّه لم يتوصّل لأن يتمثّل ذلك الوجه كوجهٍ نابض بالحياة ، وجه يستطيع التعرف عليه . وبغتة تتجلّى لناظريه بوضوح يصيبه بالذهول . ها هي أمامه وشعرها يداعب غرتها ، وذلك التعبير الغامض الكامن في أعماق العينين السوداوين حيث يعتقد أنه يرى شيئاً من التحدّي والتوسّل في آنٍ معاً . كانت تتنهّد وتهزّ رأسها . وبدا أنّ كل حركة تصدر عنها تزيدها فتنة أخّاذة ، حتى كأنّ جمالها السائر نحو الكمال يسمو ارتقاء أكثر فأكثر حتى لينتشي من مرآه . فيغمض أجفانه ليحتفظ لنفسه على نحو أفضل بتلك الصورة العذبة والرهيبة . وأبدت شيئاً من الحيرة حياله ما بين المكر والقسوة ثم تلاشت بغتة . لقد كفّ عن رؤيتها وحاول عبثاً وهو يردّد اسمها ويعتصر رأسه بيديه أن يعيد صورة السراب . لكنّ كل شيء قد انتهى ، ولم يعد لها من وجود هناك .

وفي غمرة الغمّ الذي اجتاحه ، دار عدة دورات حول المنضدة ثم هوى راكعاً على ركبتيه ، لأنّها قد تتحنّن فتشفق عليه لو رأته على تلك الحال ، هل من داعٍ لهذا العذاب الطويل ؟ وهل ينحو به ذلك منحى أفضل ؟ منحى أفضل ! لم يكن كل ما فيه إلا عنفاً ونهماً . وهوى تحت عبء أساه فانطرح بطوله أرضاً ما بين السرير والمنضدة . لم لا يلفظ أنفاسه ؟ كم يلزم من الأسى لقتل إنسان ، لكي يتصدع القلب وينفطر ؟ تحدّث قبل ذلك بساعات الى مدام لوند على نحو ما أشاروا عليه . فأخذت قطعتي الخمسة فرنكات اللتين ناولها إياهما ووعدت بتسوية الأمر مع انجيل . عندئذ غمرته بهجة عارمة ، بهجة مشينة قادته من

شارع الى شارع حتى حافة الماء ، وتذكر أنه في معرض هذيانه ، رقد هناك على الضفة مصغياً لزفيره اللاهث في سكينة الليل .

مكث هناك زهاء نصف ساعة ، بل ربما أكثر . فعلى أي نحو انقلبت بهجته الى قنوط ؟ فها هو يعود الى بيته أكثر كآبة وأكثر غماً مما مضى. وكيف يمسي مصيره مرتبطاً على هذا النحو المفاجىء بمصير امرأة التقى بها في الشارع ؟ واذا كان يزدري تلك المرأة فلم لا يهرب منها ؟ واذا كانت الرغبة وحدها هي التي تربطه بها فلم لا يغتبط لما قامت به الحياة من تنسيق للأشياء بيسر وسهولة ؟

نهض فشرب كأساً من الماء . غرفة زوجته مفتوحة . فالباب مسند بكرسي يحول دون خبطه ، فيتحرك تيار هواء خفيف يشعر المرء بوجوده مثل مرور شخص غير منظور . انتابته فضولية مباغتة . توجه نحو الباب ونظر الى زوجته النائمة . تلك المخلوقة الشقية ترزح تحت عبء إعياء يسحقها سحقا ويقيد جسدها في سكون مطلق . فهي مستلقية على جانبها وذراع تحت جسمها والاخرى تتدلى خارج السرير ، فتبدو مثل ساقط في قلب هوة . ويضيء نور خافت ذلك الوجه الذي ولى منه الشباب هارباً . لقد استقرت ملامح الكبر الى الأبد في هذا الجبين وهذين الخدين الاجوفين .

وزادت التجاعيد القاهرة بروز القسمات الدميمة حدة : فمرارة في الشفتين ، وفي الأجفان إرهاق . نظر اليها وفكر : « لم أهوها البتة »، وكأنما شعرت بتلك النظرة القاسية الظالمة تقع عليها ، فباشرت فينومها حركة من يدها وتنفست بعمق أكبر .

لم يتزحزح . فمتعة فريدة أبقته في مكانه ، متعة في أن يتأمل تلك المرأة ، ويقيس المسافة التي تفصله عنها . مسافة ما فتئت تتسع من عام الى عام . ليس فيها مايبعث في نفسه البهجة ، لا وجهها ولاجسدها ولا حبها . كانت خاضعة له ، لكنه كان يفضل على هذا الخضوع

استخفاف انجيل وقسوتها . كانت تحبه من غير أن تساورها الظنون بشأن خياناته ، فلا يثير ذلك الجهل في نفسه ، وتلك البساطة ، غير الازدراء . ويتساءل كل مرة ، وقد تملكه نفس العجب ، كيف أمكن له أن يتزوجها . فالحياة هنا أيضا قد تلاعبت به . كانت هذه المرأة جميلة بلا شك . ولا يزال يتذكر ذلك الوجه النقي من قبل أن تجتاحه الهموم ، والجسد الندي الأبيض وقد حطمه العمل .

كان ينبغي أن ينذره شيء ما بأنها ستفقد بسرعة ملامحها الجذابة. وأن ستة أعوام ليس غير ستجعلها دميمة ومملة . لقد غزا الشيب جانبا بأكمله من شعرها . إنه ليراه يلتمع حتى في ضوء القمر الباهت التماع النصال . وقارن في ذهنه ذلك الشعر الكئيب بالجدائل المبعثرة فوق مخدة انجيل في كل اتجاه ، مثل ألسنة لهيب طويلة سوداء . عندئذ استولى عليه إحساس بالهول من الحياة التي يحياها ، وتقزز مـن نفسه ومن الدنيا حتى انسحب الى غرفته وخبأ وجهه بيديه . وتراءى له في تلك اللحظة أنه يلمس بيده الى حد ما حد حزنه الاقصى : بوسعه أن يتألم عن بعد ، لكن بدا مستحيلا أن يتألم أكثر .

وبعد أن فكر لحظة أرتدى ملابسه وخرج . دقت الساعة لتوهـا معلنة الثانية . أي مسلك يسلكه الآن ؟ أكان بوسعه أن يخمن بالأمس أنه مع فجر اليوم الطالع سيركض في الشوارع على هذا النحو ؟ وما سر هذه السكينة الكبرى التي حلت بغتة على قلبه ؟ فالحركة ، والهواء الندي الذي يلامس خديه ، جعلاه سعيدا بعض السعادة . وعاد اليه تعلقه بالحياة مع القرار الذي اتخذه . أليست هذه المرأة هي السبب في كل ما يعانيه من ألم ؟هاهو ماض لرؤيتها . وهي لا تريد أن يموت ، أليس كذلك ؟ سوف يوضح لها والحال هذه أنها اذا كانت لا تحبه فسوف يلقي بنفسه في الماء ، سيرتمي في السوميانت الذي يمر قريبا جداً من المطعم ، ذلك أنه متوجه ليراها هناك في غرفتها . سيرن الجرس فيفتحون له . لا يمكن للأمور أن تسير على غير ذلك النحو . لكن لا بد له من أن يعيش أياماً من الغم كيما يتوصل الى ادراك ذلك . ليست مخاطبة انجيل على

الطريق وتقديم مال اليها وضرب موعد معها بالأمر اليسير . فما رصدت هذا ولا أعدته له الحياة ، تلك القوة الالهية المستترة . ثم إنه يعرف الآن ماذا سيحصل . سيدخل الى غرفة أنجيل في هذه الليلة ذاتها ، بل بعد خمس دقائق ،وسوف يتحدث إليها فيمسك بذراعيها ويرغمها على الاستماع إليـه .

ركض بسرعة من غير جلبـة . وقاده بالتدريج شارع فآخر نحـو الأدنى باتجاه الساحـة الصغيرة والنهر . وتولد لديـه الاحساس بأن الشوارع تجري معه وتحمله وتتناقله فيما بينها مثلما يتناقل اللاعبون الكرة . أما الشارع الذي يسلكه الآن فينزل بانحدار أشد من الشوارع الأخرى . كان قبل خمس ساعات قد سلكه صاعداً ، محني الظهر ينوء بحمل رهيب . أما الآن فكل خطوة من خطاه تبدو كأنها تقذف به الى امام على الرغم منه تقريبا لترمي به في الساحة التي بلغها أخيراً .

في البداية لم يتعرف شيئا ، لا أشجار الدلب ولا المقعد الحجري الذي جلس فوقه ولا المنزل الذي كان في انتظاره . فكل شيء يغدو بلا لون وسط الضوء الغريب الذي ينشره القمر . وورقة الشجرة ذات لون شاحب كلون ملاط الجدار . ويبدو أردواز السطح مثل حجارة الساحة بلون أبيض . أما الظل فهو في الأماكن التي يحجبها ، على درجة من العمق والسواد حتى ليمحو معالم ما يغطيه محواً تاما . ومن يرى ذلك يظن أن تلك الساحة لم تر البتة من حياة مرت فيها . وأن صمت الأشياء ذاك وسكينتها لم يعكر صفوهما من شيء ولو لمرة واحدة .

نظر الى المنزل . يعلو فيه طابقان وتبدو واجهته عادية جداً : نوافذ المطعم الطويلة في الطابق الأرضي يحجبها ستار حديدي ومن ثم ست نوافذ موزعة بين الطابقين الأول والثاني . المصاريع كلها مغلقة . كانت أنجيل وراء إحدى هذه النوافذ . قيل لغيريه إنها تنام في الطابق الأول وفي زاوية المنزل الشمالية . إنها راقـدة على سريرها ، والنفس بصدرهـا يعلو ويهبط ، من غير أن يخطر ببالها أن نفسـها إياه تسبب في عذاب كائن

بشري . وهي تتقلب في نومها دون شك لتزيح ذراعها من تحت جنبها ، ورأسها مثقل بالاحلام ، لكن هـذه الحركات التي يمكن أن تسلب لب الشقي ، يبقيها الليل الشحيح لنفسه . لا جدوى في أن يكون جسدها جميلا وعنقها أبيض مستديراً وأن يشع كتفاها التماعا . بل يمكن في ذات الوقت أن تكون دميمة أو أن لا يكون لها من وجود قط طوال تلك الساعات التي لايقع فيها النور على وجهها .

عبر الساحة راكضاً . فهذه الأفكار اخرجته عن طوره . وفجأة استشاط غضبا من الظلمة والجـدران وكل ما يختلس منـه الحب . وأوشك في لحظة من اللحظات أن يرن الجرس لكنه عدل عن ذلك على الفور . فالطابق الأول ليس عاليا . ويشكل ستار نافذة المطعم الحديدي حافة عرضها عدة سنتمترات . فوضع قدمـه عليها ، ويـده ملصقة بالصفحة المعدنية ، بينما تسعى الأخرى لتتمسك بزاوية الباب ، لكن توازنه اختل واضطر الى ان يقفز الى الوراء كيلا يسقط .

جعله التحرق والانفعال يلهث قليلا . فأجال نظره على واجهـة الدار ، ذلك الحائط العاري الذي لا يهيىء أية مسكة لأصابعه . راودته مجدداً فكرة رن الجرس ليستبعدها كما في المرة الأولى . وبعد تفكير دام لحظات التقط حجراً فرمى به النافذة . ولكن سرعان ما تبين له ما في هذا العمل من تهور . فعليه الا يحذر انجيل من قدومـه بل عليـه أن يباغتها . وخشي أن يكون قد أفسـد فرصة النجاح في مسعاه فتراجع ليختبيء تحت الأشجار عازماً على أن لا يتحرك اذا النافذة انفتحت .

لكن وقع الحجر على النافذة كان اضعف بكثير من أن يوقظ أنجيل من سباتها ، اذ مرت عدة دقائق والنافذة لم تفتح . فتوفر لديه الوقت للتفكير فيما يريد القيام به . وبدا له الطابق الأول ، من مكان وقوفه ، قريبا جداً الى الأرض حتى ليسع ولداً أن يتسلق اليه . والمهم أن يجد اسهل طريقة لتحقيق ذلك الصعود . وما تلك بمسألة قوة بل مسألة

اناة . أما القوة فلديه منها رصيد كاف . وسوف يستخدمه حين يتوجب عليه فتح المصراعين من الخارج .

عاد الى الستار الحديدي ورفع ذراعيه ليقيس المسافة التي تفصله عن الهدف . لقد لامس تقريبا ، وهو باسط يديه مطيلا أصابعه الى اقصى حد ممكن ، أعلى النافذة الطويلة . بقيت ثلاثة سنتمترات فقط أو اربعة تحول دون وقوفه في وضع مجد ، لأنه إذا ما وثب ليبلغ الحافة العلوية للنافذة ، فسوف يفقد معها القوة اللازمة للتمسك بها ، فاندفاعة الوثبة ستجعله يفلت يديه . وحاول مع ذلك لكن المحاولة باءت للمرة الثانيـــة بالاخفاق .

عندئذ احس بألم يعتصر قلبه وثار فيـــه بفتة غضب جامح القى به ارضا . اذا لم يبلغ تلك النافذة فمن الافضل له ان يموت ، من الأفضل له أن يَشُجّ رأسه فوق تلك الحجارة وان تنزف منه حياته البائســـة مع دمه النازف . وفجأة جاءت نقزة أقامته فوراً . أيكون هناك على بعد بضعة امتار من أنجيل ولا يقوى على تسلق جدار وفتح نافذة لينعم بلمسها ، باختطافها ؟ وشعر كأن موجة من الغيظ والعنف تسري في كيانه . فهرع مجدداً نحو أشجار الدلب ليختبىء مثل وحش جريح مهتاج ، وليشاور نفســـه .

برز بعد لحظة الى النور مندفعاً نحو البيت كأنه خارج لمنـــازلة عدو. فأدركه بثلاث وثبات وأوشك أن ينجح. فالقوة التي تأتينا لا ندري من أين ، حين لا تكون قوتنا كافية وحدها ، هذه القوة بدت وقد رفعته عن الأرض لتعلقه على الستار الحديدي حتى إن صدره كله تجاوز الحافة التي ما استطاع ان يطالها قبل قليل . ولو أنه كان رافعاً ذراعيه ، لاستطاعت يداه بكل يسران تمسكا بالمصراعين اللذين ينوي أن يفتحهما ، لكن حضور البديهة خانه . وظل هناك ثانيتين أو ثلاثاً فاتحاً ذراعيـــه منفرج الساقين ، وراحتاه ملصقتان بالحجر ، ثابتاً في مكانه بفعل عزيمته وحدها ، شبيها بأحد تلك الطيور الليلية الكبيرة التي يسحرها جـــدار

شاحب جداً ويجتذبها رغما عنها ، فتلتصق به ، كأنها تريد أن تنتشي ببريق ذلك البياض المقيت . ثم انفصل فجأة وسقط على الأرض .

عندئذ غشيه غضب مسعور أعماه فشرع يثب من غير تحفز فيتمسك كيفما اتفق بذلك الجدار الغادر الخالي إلا من نتوءات فائقة الارتفاع أو الانخفاض ، خادشاً بأظافيره الحديد والحجر . وتوصل عدة مرات لأن يبقى واقفاً على الحافة الدنيا للنافذة الكبرى ، من غير أن يتجاوز نجاحه ذلك الحد . وعبثا تنبسط ذراعاه يمنة ويسرة للعثور على ملمس خشن أو نتوء ما أو أي شيء يعيق سقوطه . لكن كل شيء بدا محسوباً سلفاً من قبل مهندس فطن ، ليكون الاخفاق مصير أية محاولة من هذا القبيل .

قعد على الأرض وتنهد . لكن لا بد أن يكون بلوغ الطابق الأول لمنزل ما أمراً يسيراً . أيمكن الا يتحقق له ذلك مع كل ما في قبضتيه من شدة وبأس ؟ وخطرت بباله فكرة البحث عن شيء يصلح موطئاً لقدمه . كأن يكون واحداً من تلك المكعبات الحجرية الكبيرة التي وقعت عليها عينه صباحاً ، في شارع ما يزال في طور البناء ، لكنه لم يشأ مغادرة الساحة الصغيرة . اذ تراءى له أن مصيره يتقرر هناك وأنه سيبدد كل أمل له بالنجاح اذا ما ابتعد عن ذلك المنزل . سيدخل غرفة الطابق الأول قبل بزوغ الفجر وإلا فلا ، لا ، لن يشعر أبداً من بعد بتلك العزيمة الجنونية التي حملته وألقت به على الستار الحديدي . فمع إشراقة النهار تعود الوساوس والشكوك . لا بد له من استغلال تلك الهلوسة التي يعيش فيها منذ ساعات والاستفادة من الواقع الخارق بأنه موجود هناك وأنه يسعى الى دخول ذلك المنزل مثل أحد الجناة . وما همه ما سيكون رأيهم فيهم ؟ فهو يستشعر أن وجوده كله قد تجمع في تلك الدقائق التي تمر بسرعة قصوى . وياللبهجة التي ستغمره وهو يرتمي داخل تلك الغرفة التي تنام فيها انجيل ! هل ستجرؤ حينئذ على مقاومته ، أو الكذب عليه ، أو خداعه بالكلام على نحو ما فعلت في الطريق ؟

قام بعد أن استراح قليلا ، فشدّ بيديه إطـار الباب وكأنه يعزم على سحب ذلك الجزء من المنزل باتجاهه وركز قدمه اليسرى في الزاوية التي تشكلها الفرجة فوق الأرض ببضعة سنتمترات . حسب بادىء الأمر أنه لن يتماسك . فالإحساس بأن الجدار يصده فيما هو يصارعه أوشك أن يرغمه على التخلي . فالدم يتدفق تحت أظفاره ويلهب بشرته لكن مرفقيه كانا يرتفعان ببطء . وتجمعت كل القوة المختزنة داخـل جسمه الكبير في معصميه اللذين كانا يختلجان من شدة الجهد . ولم يعد بوسعه الآن أن يخفق ، لأن المسألة ستكلفه حياته ، فالسقوط الى الوراء يعني الموت المحقق . رفع قدمه اليسرى وركز اليمنى في وضعية مماثلة . في رأسه طنين . وكل أوداج رقبته تنبض وتنتفخ . حين ارتفع مرفقاه حتى مستوى رأسه ، اعتمد بقدميه على الإطار ورفع صدره الى أعلى ما باستطاعته . فتجاوز جبينه أعلى الباب ، ثم أنفه ثم فمه . ارتد برأسه الى الخلف واسند ذقنه الى الإفريز الحجري الرقيق ، فسمحت له نقطة الارتكاز الجديدة هذه أن يتصرف بيده اليسرى مدة ثانية ، كانت كافية للامساك بزاوية الإطار العليا . وأرغمه ذلك على أن يميل بجسده جانبا حتى لا يختل توازنه واتخذ وضعاً منحرفاً فتقوست قدماه متلامستين على الباب . ورجع رأسه الى الارتفاع الذي كـان عليه قبل هذا الوضع الجديد . أحس باليأس يدب فيه وكاد يتخلى عن الطريقة كلها . فهناك شيء يعانده ويقف في وجهه . لكنه أدرك في ذات الوقت أن الكفة قد ترجح لصالحه اذا ما اختار جانب المخاطرة فنقل بحركة مباغتة يـده اليمنى الى جانب اليسرى . ابتعدت قدماه عن الاطار دفعة واحدة وتأرجح لحظة متعلقاً بأصابعه وهو أقرب الـى الأرض أكثر مما كان منذ بداية المحاولة .

غرق رأسه في لجة من الدوار والعياء . وبدأت القوة تتسرب شيئاً فشيئاً من يديه اللتين طفقتا ترتعشان بفعل ثقل رهيب . بعد عشـر ثوان أو خمس عشرة سوف ترخيان فريستهما ، تلك الحافة الحجرية التي مازالتا تتمسكان بها . فكر في نفسه : « اذا ما تراخيت وسقطت

فلن أراها . » وقام بما يشبه وثبة من غير تحفز فرفع ركبتيه وضرب بهما مصراع الباب . بدأ قلبه يخفق بشدة متزايدة فيسمع خفقانه كوقع خطى كائن غير منظور ، ماشيا ، واقدامه في صدره . توتر جسده كله . لوى مرفقيه وركز قدميه عند جانبي الإطار . كان التعب يشد عضلات أطرافه وكأنه يريد أن يفسخه . أما صدره الذي شالته حركة المرفقين فارتفع مجدداً . وفجأة ندت عنه صيحة وهو يضغط بكل قواه على رأس قدميه ، ورفع يديه معاً فألصقهما على الجدار فوق الباب وانتصب . كانت راحتاه تنزفان وقد كشطتهما الحجارة . واحس بالخشب يصر عند رأس حذائه فأدرك انه سينزلق . لكنه قام بجهد أخير وثنى قدميه على نحو بات معه محمولاً على رؤوس أصابع قدميه فقط ، وكأن رأس خنجر قد انغرس في لحمه . وكان الألم على درجة من الشدة انتزعت منه تأوهة . وفي نفس اللحظة تقريبا ضربت قدماه الباب ، بعد ترك موقعهما ، لكنه لم يسقط : لقد تشبثت أصابعه بقضبان النافذة .

تأرجح بضع لحظات ، مرضوض الجسم ، والدم يسيل على معصميه . فكانت فترة العطالة تلك ، رغم كل شيء ، فترة راحة ، اتاحت له المجال لاستجماع قواه . صار في وسعه الآن ، وقد بلغ النافذة ، وشدت يداه على القضبان بقوة ، أن يستخدم ساقيه على نحو ما يشاء دون أن يخشى فقدان توازنه . فتسلق الباب خلال دقيقة مستعينا بقدميه وركبتيه ، واستطاع ان يقف على حافة الباب ويداه على ساعدة النافذة . لكن تلك ليست نافذة انجيل . زفر قليلاً ، وارخى يده اليسرى ليسير فوق الحافة العلوية للنافذة الكبرى الواقعة في الطابق الأرضي . كان الفاصل بين نوافذ الطابق الأول يقارب المترين . بسط ذراعيه الى أقصى ما يستطيع ويده اليمنى متمسكة بساعدة النافذة التي غادرها ، واليسرى تتلمس الجدار . كانت الحافة التي بدات تسلكها قدماه ذات عرض يقل قليلا عن عرض حذائه ، لكنه كاف لحمله . تقدم على ذلك النحو بشكل غير ملموس وجسمه لاصق بالحجر ،

حابساً انفاسه ، كافاً عن التفكير . أخيراً احس بأصابعه تلامس ساعدة النافذة فكمشها . مـن ثم فتـح يده اليمنى التـي انضمت الى يده اليسـرى .

اما الآن وكتفه تلاصق شق المصراعين ، فقد حاول أن يتغلب على آخر عقبة تعترضه وذلك بأن يجعل المزلاج الحديدي الصغير يلتوي . لكن الخشب هو الـذي استجاب . فبعد دفعتـين فثلاث اكثر فأكثر عنفاً ، تشقق أحد المصراعين بطقطقة دوّت وسط الصمت كصوت رشقة سلاح ناري .

هوى الى داخـل المنزل وتدحرج على أرض الغرفـة . كان الدم يدندن داخل رأسه . زفر لحظة ثم قام ، ذاهلاً من نجاحه ، متجاسراً بعض الشيء على تنقيل نظرة في الغرفة ، فجال على أثاثها الذي تخيله مرات ومرات . ونفذت الى الغرفة بدخوله أولى تباشير الفجر فأضاءت الجدران القذرة والسجادة المهترئة . عندئذ رأى أن الغرفة فارغـة والسرير لـم يمس .

الدقيقة الحاسمة مرت . وقف قـدر ذلك الرجل حائراً لحظة ، وهو لا يدري ماذا يفعل به ، ملقياً به لإرادته العمياء ، لكن الطريق عاد فانشق مجدداً في وجه هذا الرجل . وامتدت يد لا تعرف الوهن فدفعت به ليسلكه ، وشارفت هلوسة الليل على نهايتها .

كان مستقلياً على السرير غارقاً في رائحة الجسد الغائب . ميـز الموقع الذي تضع فيـه رأسها فتلمسه بخده وشفتيه وعينيه ، ومر براحتيه الداميتين على الأغطية والمخدة ، العابقة بعطر عب منه حتـى انتشـى .

راحت خطى تتحرك في الرواق جيئة وذهابا . وفتح باب ثم اغلق . وارتفع صوت منادياً : « ما هذا ؟ من هناك ؟ » وتجاسر بفعل الصمت فشرع يصرخ : « النجدة ! » .

أصغى اليه دونما إدراك ، مثلما يصغي المـرء لصوت يخرجه من سبات عميق . واقترب أخيراً فأصبح لدى الباب . هذه مـدام لوند تجأر بالصراخ . فالخوف أخـذ بخناقها ، إلا أن صراخها يعلو أكثـر فأكثر . وفي إحدى المرات نادت أنجيل .

جلس بعد هنيهة فانتزع عن المخدة غطاءها ودسه في جيب سترته . ثم قام فمشى بضع خطى داخل الغرفة . كانت عيناه تنتقلان من شيء الى آخر ، من السرير الحديدي الذي ناء بحمله فسمع له صرير ، الى المرآة الصغيرة التي ردت إليه صورة وجهه الزائغ . رأى الجدران وقد بقعتها الرطوبة ، وكرسيين من القش قرب الباب ، والطاولة التي لم يعد لها اجرّار . سوف يحمل معه ذكرى هذه الغرفة التي قادته الحياة إليها من أجل أن تغدر به ، مثلما سيحمل قطعة البياض تلك والتي كان شعر أنجيل يتبعثر خصلاً وضفائر فوقها .

وحينما كان يتخطى ساعدة النافذة سمع الباب يدَقّ دقات عديدة . بعدئذ فتح الباب ، لكنه كان قد انزلق من النافذة ليسقط متكوما على نفسه عند أسفل الجدار . وسمع وهو في الساحة نداءات مدام لوند التي دخلت الغرفة الفارغة لتكتشف سرير أنجيل دامياً . ولم يكن عليها الا أن تنحني من النافذة لكي تراه . انتصب رغم ما أحس به من ألم أصابه في خاصرته إثر سقوطه ، ومشى بمحاذاة المنزل حتى الشارع المار عند زاويته . فتوقف هناك لالتقاط أنفاسه . وعمـد في غمرة ما انتابه من جزع الى كم فمه بوجه المخدة الذي سرقه ، لكـي يكتم جلبة لهاثه الاجش . دوخه العطر فأغمض عينيه . وتبدى أمامـه عالم كامل من الذكريات . فقد تراكم في حياته الكثير الكثير من الذكريات بدءاً باللحظة التي رأى فيها أنجيل . وهي أشياء صغيرة يمكنها اذا اخذت مداها أن تكون ذات حجم كاف لسنين طويلة من اللوعة والعذاب .

وبغتة ثاب الى رشده ففتح عينيه ، كانت مدام لوند وراء النافذة توالي الصراخ واستطاع أن يرى من مكان وقوفه النور الأصفر الصادر

عن مصباح جيب تحمله بيدها . أعاد قطعة البياض الى جيبه وزرر سترته كأنه عازم على الهرب . أما الصوت الذي خنقه الرعب وضخمه فكان يعلو ويخفت تارة فأخرى ناطقا بكلمات رهيبة : « أنجيل ليست هنا ! لقد ذبحوها ! الدم في كل مكان ! سمعت رجلا هنا ! هو الذي فعلهـا » .

نظر بحيرة يمنة فيسرة . على يمينه المدينة والصرخات تلك ستوقظها وعلى يساره السوميانت والبرية ، لكن توجهه يسارا يعرضه للوقوع تحت نظر مدام لوند فتعرفه . فتوجه راكضا ناحية اليمين . هـذه نافذة أضيئت وأصوات عدة بدأت تتجاوب من بيت لاخر ، لكن أحدا لما يخرج . اذ لابدمن مرور دقائق كاملة حتى يستجمع المرء شجاعته . مضى محاذيا للجدران . في ركبتيه وهن وعلى صدره ثقل يضغط عليه فيحطمه بقبضةلا تعرف التراخي . أما قلبه فيخفق مثل قلب رجـل مسعور يرتمي على جدران زنزانته سعيا للافلات . اذ لم يسبق أن عرف مثل هذا الخوف البتة . فجريمة القتل التي يتهمونه بها ، وموت أنجيل الذي قد يلصق به ، أليس محتملا ، أليس صحيحا ؟ ترى هل كان يفعـل غير لك لو أنه عثر على الصبية في سـريرها ؟ نعم سيحز رقبتها ليثأر منها ، ليسكتها ، ويداهستكونان ، مثلما هما الان ، حارتين ثقيلتين لزجتين .

قطع الشارع وانزلق نحو اليسار في زقاق معتم لا تبلغه صرخات مدام لوند . لكنه لم يجرؤ على التوقف . وبعد أن جرجر نفسه قرابة عشرين مترا وصل الىشارع يعرفه معرفة جيدة لانه تبع فيه أنجيل مرة . وهو يؤدي الى النهر . لو كان الضوء قويا لامكن لمدام لوند ان تراه ، لكن الظلمة مازالت كافيـة للمخاطرة ، فاستجمـع قـواه ثم استأنف جريه . كانت البيوت وطيئة تصطف متتالية على جانب واحد من الشارع ، اما الجانب الاخر فيرتفع من أوله الى اخره حائطمستودع الفحم . فعدا بمحاذاة ذلك الحائط . ثم وقف مترددا عنـد طـرف

الشارع . فالصرخات عادت لتسمع بكل وضوح . نظر الى اليسار فلم ير شيئا وانعطف بغتة الى اليمين .

كان الطريق عريضا ومرصوفا بحجارة صلدة فغدا لوقع خطاه عليها رنين . فبلغ التلعة التي تفصله عن النهر وطفق يركض فوق العشب ، تحت أشجار الدلب التي تساير السوميانت في مسيرته الواهنة عبر المدينة . فهو حينما سيبلغ اخر واحدة من تلك الاشجار القصيرة يكون قد نجا . اذ يبدأ هناك في الواقع حرج كثيف الاشجار يتيح له أن يختبىء .

بدأت السماء تنكشف شيئاً فشيئاً ، واخذ ضياء باهت شاحب يبْرز من قلب الظلام آخر منازل المدينة ، التي تحدّ الطريق من جانبه الأيمن ، وتلاه نزول الندى . قد تكون الساعة الرابعة . مدّ يديه الملتهبتين للقطرات الصغيرة الباردة وهي تلتمع في الجو الرمادي . اما جسده المنهك فلم يعد يحسّ بالتعب . فالأطراف ، حين تتجاوز مرحلة معينة من الارهاق ، تكفّ عن الشعور بالعناء وتستجيب تلقائياً للإرادة التي لا تعود تملك قوة توجيه الأوامر إليها . فلو دعاه الأمر الآن يمشي ساعة اخرى ، أو اكثر من ساعة ، لفعل .

تعثر عند طرف الحرج بغصن يابس ، فتهاوى على الأرض المغطاة بالأوراق ، ثم ما لبث أن راح يغطّ في سبات عميق .

* * *

- ١٢ -

استيقظ حوالي الساعة العاشرة وخرج من مخبئه . فاستأنف سيره على الطريق ، لكنّ وجهته الآن تلك البيوت التي هرب منها في الليلة المنصرمة . وجفّت ملابسه في الريح وهي تهب . لم يجرؤ على استخدام يديه مخافة أن يعود فينكأ جروحه ، ومضى مشعّث الشعر وجسده ملتهب بحمّى جعلت وجهه متورّداً . لم تعد تشغله إلا فكرة واحدة : العثور على انجيل . فهو قد بدأ ولا بد أن ينتهي . فهذه الليلة المفزعة التي عانى فيها كل أصناف العذاب معاً ، لا يمكن أن تكون كابوساً خالياً من أيّ معنى . لا ريب في انّ لها ثمناً ، ولا بدّ أن توجد ساعة في مكان ما من الزمن ، أو دقيقة تعوّضانها .

مرّ اشخاص على مقربة منه ، فلم يرهم ولم يردّ عليهم سلامهم . سيذهب الى المطعم للسؤال عن انجيل . وسيضرب عرض الحائط بكل ما سيقولونه عن شكله ويديه المسودتين من الدماء ، وبكل ما قد يثيره من ظنون . لا يمكنهم أن يلقوا القبض عليه لأنّ شعره مشعّث ويديه مليئتان بالخدوش . لكن ماذا لو انّ شيئاً ما قد وقع لانجيل ، ماذا لو انّ احداً قد قتلها ليلاً ؟ لو انّها قد ماتت ؟

لو أنها قد ماتت ؟ أرغمته هذه الفكرة على التوقّف حتى كأنّ يداً غير منظورة وجّهت على نحو مباغت ضربة الى صدره . كرّر السؤال بصوت عال ، من غير هلع ولا انفعال ، انّما بذهول من يتلفّظ بكلمات غريبة يصعب عليه إدراك معناها . استأنف السير بسرعة اكبر . لا يمكن لها ان تموت من قبل أن يحتويها بين ذراعيه . فهي ملك له . لقد وهبته

إياها الارادة الخفيّة التي تنظّم مصائرنا ، تلك القوة التي تسود العالم وهبته هذه المرأة . فهي له لأنه أحبها ولأنه تعذّب من أجلها .

حين بلغ جادة السوميانت أسرع خطوه ليفلت من انتباه فريق من خمس نساء أو ست كن يتبادلن الأحاديث تحت أشجار الدلب . وها قد بدأ يلمح الساحة التي خفق قلبه لدى مرآها . كانت أمامه امرأة تسير في نفس الاتجاه . فتجاوزها ، لكنّها جرت وراءه ووضعت يدها على ذراعه .

سألته قائلة : « ما بك ؟ » .

إنّها أنجيل .

وعادت تقول : « ما بك ؟ الى أين انت ذاهب ؟ » .

ازاحت بظاهر يدها خصلة شعر تدلّت على جبينها . واتّسعت عيناها وهما تلتمعان . نظر اليها لحظة ثم قبض على ذراعها بحركة متشنّجة . وسألها :

ـ أين قضيت الليل ؟ ـ اجابت :

ـ أعاروني غرفة في المصبغة . أنت الذي دخلت الى بيتنا إذن مساء أمس ؟ لا ينبغي في هذه الحال أن تظهر بعد . عد الى بيتك بسرعة . اتركني .

ـ كلا .

ـ لنمض . لا ينبغي أن نظلّ هنا . أنت ترى أنّ الناس يمرّون .

ـ لن أدعك تذهبين . تعالي معي .

ـ أرخِ ذراعي على الأقل . ما دمت أنا التي جئت بنفسي اكلّمك . . . كنت مررت بقربي دون أن تراني .

ـ أخبريني لماذا جئت تكلّميني .

ـ لا أستطيع أن أقول ذلك لك إذا لم تتركني . إليك كيف يسير الناس باتجاهنا وينظرون إلينا .

لا ينبغي أن نظل هنا .

ـ سأذهب الى أي مكان تريدينه لكنني لن أتركك .

أدارت ظهرها للمطعم وبدأت تسير باتجاه الحرج . وتدلى ذراعها الأسير على جانبها .

سألته : « الا تخشى أن أستغيث ؟ » .

ـ كلا ، لا أخشى ذلك . ـ قالت بعد هنيهة :

ـ اصغ الي ، ينبغي أن تعود الى بيتك وتعيد ترتيب هندامك . ثيابك كلها ممزّقة . ستساور الناس الظنون وهم يروننا على هذه الحال .

ـ هل تذهبين معي ؟

ـ كلا ، لا يسعني أن أقطع المدينة بصحبتك .

ـ ولم لا ؟ ـ توسلت اليه :

ـ اتركني . هيّا اتركني . سأقول لك كل ذلك فيما بعد .

ـ اين امضيت الليل ؟

ـ لقد قلت لك : في المصبغة .

ـ هذا ليس صحيحاً . بصحبة من كنت ؟

ـ لا ترفع صوتك كثيراً . ها هم الناس يمرّون .

سكت هنيهة ، ثم استأنف يقول بصوت خافت من غير أن ينظر اليها:

ـ اخبريني فقط مع من كنت .

ـ لم اكن مع احد .

ـ اعرف انك استسلمت هنا للجميع . مع من كنت ؟ مع المسيو بلوندو ؟

فجأة اجهشت بالبكاء وحاولت أن تتملّص منه ، الا انه كان ممسكاً بها جيداً . وأضاف :

ـ كنت مع احدهم . فمن هو ؟ لعله المسيو غروجورج ؟

بقي السؤال بدون رد . سارا هنيهة في صمت . ثم سألها مجدّداً وهو يهزّ يدها :

ـ قولي . اكان هو ؟

ـ لا هو ولا غيره . كنت وحدي . لم اشأ أن انام عند مدام لوند . كنت واثقة من انها ستأتي لتكلمني بشأن المسيو بلوندو .

ـ أعطيت وعداً بالخروج معه يوم الأحد .

ـ لم أعد بشيء . بل على العكس ، قلت إنني لن اخرج .

ـ انت تكذبين . قال لي بنفسه إنّ الاتفاق حاصل .

ـ هذا ليس صحيحاً . لكن دعني . حسبي ما أنا فيه من شقاء . قلت لك أرخني . أنت توجعني .

شدّها بكل قواه وارغمها على ترك الطريق وتسلّق التلعة . قال :

ـ ما دمت تخافين أن يرانا الناس ، فسوف نسير على الحافّة .

أما النبرة التي قيلت بها تلك الكلمات ، والنظرة التي صحبتها فقد افزعتا الفتاة . وأحسّت بغتة أنّ التلعة التي تسلّقتها مرغمة شكّلت فاصلاً بينها وبين الحياة . وعبرت ذهنها مجدداً فكرة الصراخ «النجدة» لكنّ غيريه بدا كأنّه قرأ تلك النيّة في عينيها ، لأنّه سلط نظره عليها وقال لها :

ـ أنا هنا الأقوى . إذا ما استغثت ارتميت وإيّاك في الماء وغرقنا .

فقالت وهي تضبط انفعالها :

ـ يا للأسف . فأنا لا أفكر في الاستغاثة .

ـ لماذا تقولين : يا للأسف ؟

ـ لأنك في حالة . . . من يرك يحسبك مريضاً .

إنّها المرّة الوحيدة التي تراه فيها وهو يضحك ، منذ أن تعرفت به . لكنّه استرجع على الفور هيئته الجدية .

ـ أراهن على أنّ ذلك يشقّ عليك .

ـ أجل .

فقال وهو يهزها من يدها :

ـ ولكن لا . فذلك لا يسبّب لك أيّ غم ، لكنك تخافينني . فعبثاً تقولين في نفسك إنّه قد يمرّ أحدهم على الطريق بين لحظة وأخرى . أنت تعلمين بأنني إذا ما رغبت في أن نفرق فلدي أربعة أضعاف الوقت اللازم لذلك . لذا تقولين إنّ الأمر يحزنك . لكن احتفظي بحزنك هـذا لآخرين غيري .

أحسّت بحرارة لهاثه تلامس بشرتها فأشاحت بوجهها قليـلاً . قال بغتة :

ـ قولي لي إنّي أثير اشمئزازك .

فقالت وهي ترتعد :

ـ كلا ، كلا . بل على العكس . وإذا كنت تركت مدام لوند ، فمن أجلك أنت . كنت راغبة أن أوضح لك .

فكرّر بقوة :

ـ قولي لي إنّني أثير فيك الاشمئزاز . آمرك بذلك .

ـ إلا أنّني أقول لك إن هذا غير صحيح .

فدفعها بعنف من غير أن يرخي يدها وجعلها تسقط على ركبتيها :

ـ قولي ذلك إن كنت متمسكة بالحياة .

فتأوّهت مذعورة :

ـ أجل ، أجل .

ـ قولي : أنت تثير اشمئزازي .

فقالت بصوت لاهث :

ـ أجل ، طيّب ، أنت ... تثير اشمئزازي . اتركني .

حاولت بذراعها الأخرى أن تطال احدى الأشجار الصغيرة التي تحدّ السوميانت والتي تشاهد رؤوسها من على الطريق بازغة من فوق التلعة .

سألها :

ـ ماذا تريدين أن تفعلي ؟

ـ أنت ترى اني أريد النّهوض .

كان واقفا حيالها ، ملتهب الوجه ، يحجب عنها السماء بهيكله السامق وكتفيه العملاقين . تركها لحظة تتخبط من غير أن يرخي ذراعها التي كانت تلتف وتدور داخل قبضته . توصلت الى رفع ركبة ووضع إحدى قدميها على الارض ، وسعت لتلتقي عيناها بعيني الرجل كأنها تريد التوسل إليه ليسمح لها بالاستفادة من ذلك النصر . فدفع بها على نحو مفاجىء فسقطت على الحافة . وانتزعت منها المباغتة والرعب صرخة .

أمرها وهو ينحني فوقها :

ـ كفى .

لكن لم يعد بوسعها أن تتمالك نفسها : قلبها يخفق بسرعة فائقة . وانطلق من حلقها على الرغم منها نداء رهيب ، جئير حيوان وقع في الفخ ولم يعد له من ملاذ غير صرخات الألم واليأس . مشهد الهلع هذا

جعل غيريه يخرج عن طوره . فصفعها بادىء الأمر ثم أرخى معصمها ليأخذ رأسها بيديه ويدق به الأرض عدة مرات . فأخذت تلهث وتولول ايضاً . فوضع يده على فمها ، فعضت يده . فانتابته عندها نشوة من نوع خاص ، نشوة من الغيظ والألم . ادار فيما حوله نظرات امرىء سقط في البحر . وطوّح بذراعيه تطويحات كبرى فلامس أغصان الاشجار من حوله وفجأة أمسك بواحد منها ، فسعى وهو يتشبث به على نحو مسعور لأن يقتلعه . انثنى مرة فاثنتين ثم تمزق بطقطقة هائلة ، كاشفاً عن شرخ كبير أبيض في الجذع نجم عن اقتلاعه .

نهضت أنجيل في تلك الأثناء وأخذت تركض على حافة السوميانت . وعندما اضحت على بعد عشرين متراً من غيريه أرادت ان تصعد التلة ، لكنها كانت في ذلك المكان على ارتفاع مترين من سطح النهر وبميل شديد جداً . فخذلتها القوة . فعادت الى الدرب الصغير واستأنفت عليه الجري .

لحق بها في بضع ثوان وأمسك بها من رأسها . التف شعر تلك الشقية الثقيل الأسود منسابا على ذراع الرجل . ظل ساكنا لحظة وهو يحس على ظاهر يده بنداوة تلك الضفائر ووزنها ، ثم انقبضت أصابعه . صرخت وحاولت أن تستدير تجاهه ، لكنه رمى بغصنه جانبا، ليقبض على الجسد المنتفض بكلتا يديه ، فيهوى معه على الارض . كانت الفتاة تلهث وقد قهرها الإعياء والرعب . وفجأة شعر ، وهو في غمرة غيظ مسعور أفقده كل سيطرة على حركاته ، بدفقة من الحنان وهو ينظر الى بياض ذلك الجسد المهتز بلهاث شاق فتمتم باسم انجيل ، لكنها نظرت إليه من بين خصل الشعر المبعثرة فوق وجهها وعاودت الصراخ ، إذ أخرجها عن طورها الظن بأن هذا الرجل سيقتلها . وأمكن لها أن ترى السخط يعود الى عينيه كموجة بدلت لونهما ، فأغمضت أجفانها . قبض على عنقها ليخنق تلك الصرخات في حلقها .

ردد بنبرة توسل وسخط :

ـ اسكتي(١) .

وفيما كانت تحاول التملص وتصرخ ، ضربها على صدرها ووجهها ضربات عديدة . وبدا له على نحو مباغت أن النهر والاشجار والهـواء تضطرب كلها من حوله ، وأن السماء امتلأت بهدير لا ينقطع . فأخذت القبضات تعلو وتنزل من غير أن يسيطر عليها . وأضحى همه الوحيد إسكات تلك الصرخات البشعة المنطلقة من ذلك الفم ، وذلك الصوت الحاد الذي اخترق دماغه كخنجر واخذ يمزقه . وتملكه رعب مفاجىء، تملكه رعب ضحيته ذاتها . لم يعد يعرف كيف يهرب من نفسه ومن جريمته ، وكيف يمنع يديه من الضرب ، وكيف يسكت تلك الصرخات. لم تعد عينا الفتاة تنظران إليه،لقد اضطرب نظرهما وانصرفتاجاهدتين تفاديا لمنظر الوجه المنحني فوقها ، فبدت في وضعها ذاك أشبه بعمياء أو بمعتوهة ، بل بدت أشبه بمشهد القتيلـة على نحـو ماتخيلـه في الليلة الفائتة .

وبغتة ، اخذ الغصن الملقى جانبا ، وكان في متناول يده . ورفع سلاحه وهو في سورة غضبه ليضرب أنجيل على وجهها ، على خديها ، على جبهتها الى أن سكتت وحجب الدم عن عيني ذلك المنتصر تلـك القسمات التي أحبها حتى العبادة .



١ ـ الخطاب هنا للمرة الوحيدة بصيغة المفرد .

- ١٣ -

هبت الريح طوال النهار وجالت بالأوراق الجافة ما بين جانب الطريق الرئيسة وجانب آخر أو بعثرتها فوق صفحة السوميات الساكنة . كان العشب الكثيف على ضفة النهر يلتمع تحت أشعة الشمس وينبسط راقدا حتى كأن أجسادا منهكة استلقت فوقه لتعبة من النداوة المتصاعدة من الأرض والماء . ونشرت الشمس ضياء ثابتا . فما من غصن الا وألقى على الأرض خطاً واضح المعالم ومتقلبا من غير أن تقوى الريح على محوه . ليس هناك ما يضاهي أوائل أيام الخريف هذه عذوبة . فالهواء المضطرب بتقلبات جبارة يبدو بحرا غير منظور تتحطم أمواجه بين الأشجار ، بينما الشمس المهيمنة على ذلك الصخب والاضطراب تمنح أصغر زهرة ظلا تجعله يدور عند قدمها حتى المساء . وينجم عن هذا الهدوء وذلك الجموح انطباع تمتزج القوة فيه بعذوبة تعجز لغة الانسان عن أدائها . فهي راحة لا تواني فيها واستثارة لا تلي اي ارهاق . فالدم يسري اكثر جذلاوانطلاقا ، وينشغف القلب بتلك الحياة التي تجعله يخفق . في تلك السويعات المعطاءة تحمل الطبيعة السعادة ، لأولئك الذين لا يعرفونها ، مصحوبة بأريج الغابات وزقزقة الطيور ، وأناشيد الأوراق وكل الأشياء النابضة بالطفولة .

أمضى النهار بطوله يمشي في المنطقة بمحاذاة النهر . وأبصره أناس فتابعوه بنظرهم فخاف وأسرع في سيره ، لكنه كان يلتقي على الدوام بوجوه أخرى تستدير ناحيته ببطء ، وعيون تدقق فيه النظر بنفس التمعن ونفس الدهشة لما في هندامه من فوضى . ورجع قبيل المساء الى المكان الذي ولى منه هاربا قبل بضع ساعات . إن السكينة التي

حلت الآن في قلبه تفنــد ما تقوله ذاكرته . فهو لم يعــد يعاني أي قلق أو تعب ، بل يستمتع بالهواء المنعش وتلك الساعة التي يخفت فيها النور . حمل في رأسه لوقت طويل جداً ذكرى تلك الصرخات ، وذلك السكون المباغت ، الذي أحس فجأة بعجزه عن تصديقه . إن ذلك لا يشبه باقي حياته في شيء حتى يكون صحيحا ، ولم يتعرف على نفسه في تلك الحركات التي ظلت تمر على التوالي أمام عينيه . لو قص أحد عليه قصــة العراك الشنيع قرب النهر ، لضحك من غير شك . فسار على حافة السوميانت ليتحقق من عدم وجود أي شيء ، وفتش عن المكان ليبرهن لنفسه على أنــه غير موجود .

وعثر عليه : هذه الأغصان المكسرة ، رآها في كابوسه . أيمكن أن يكون قد لاحظ في سورة جنونه ذلك القدر من الأشياء الصغيرة والأزهار والأشجار والانعكاسات ؟ هناك شيء ما ظل في داخله متيقظا ، بينما غرق كل ما تبقى من كيانه في شبه حلم فظيع تمت فيه أعمال ما كان يحسبها ممكنة ، أعمال إجرام وشهوة . ولم يعد أمامه مجال الشك . وتبدت له الحقيقة بكاملها . لقد قتل تلك المرأة وأقبــل أناس فحملوهــا ، أناس تجمعوا حولها ، فتأملوا القتيلة وشناعة ذلك الوجه المهشم ، ثم ألقوا على رأس الشقية قطعة ملابس أو كيسا أو أي شيء آخر ، لأنه روعهم . وماذا لو لم تمت ؟ لم يعد بوسعه أن يتذكر هل ظلت تتنفس أم لا ، كل ما يتذكره أنه شاهد بغتة بعد عدة دقائق ذلك الجرح الذي أحدثه في وجهها وأنه أصيب بالهلع فولى هاربا .

جرى بمحاذاة النهر ثم ارتقى التلمة واستدار رغما عنه ليراهــا أيضا . كانت هناك ، ساكنة ، مستلقية على الدرب مبعثرة الشعر . عندئذ استأنف الجري ليلتفت ابعد بقليل ، لكنه لم يعد بوسعه أن يراها من هناك . وعرف في تلك اللحظة بالذات أعظم راحة في حياته : لم يقع أي شيء مطلقاً ما دام لا يدع شيئا على الحافة . واستأنف الجري فدخل الحرج بما استطاعته ساقاه من سرعة وخوفاً من أن يراوده الاغراء فيرجع الى الدرب الصغير ليراها .

أما الآن وهو يقف كرة أخرى قرب النهر ، في مكان حدوث تلك الأشياء ، الآن والدرب الصغير فارغ ، فقد بدا كل شيء له واقعيا جداً حتى لكأن جسدالمراة الشابة ملقى عند قدميه . مشى بضع خطى يمنة ويسرة وهو لا يدري لم يلبث هناك بدلا من أن يهرب . فالجلوس عند تلك الحافة يمده بنشوة ، لا يجد في نفسه القدرة على التخلي عنها فوراً . ولو ابتعد لرجع لتوه . ولم يخلف عنفه من ندامة لديه . فقبل قليل كان يلاحقه الخوف مماجنته يداه ، ومع ذلك لم يكن ليصدق الأمر . أما ووعيه الآن يزوده بالدليل على جريمته فقد هدأ باله . كان يمعن النظر في العشب ويعكف عليه كأنه يريد العثور على آثار الجسد الذي أدماه . ويخفق قلبه لا خوفا وإنما بفعل وجد جديد فلا يكبح جماحه ، وبفعل الغرابة الخارقة لكل ما يسبغ على ذلك المكان طابعه الخاص . رائحة النهر ، البرودة المتصاعدة من التربة ، وذلك الخفقان الدائم الاغصان من فوق رأسه . كان يكرر بصوت خفيض : « في هذا المكان » . وأغمض عينيهمرةأواثنتين وتنهد بعمق . ثم انتزع قبضة عشب ودسها في جيبه . وفجأة ارتمى على الأرض باندفاع مباغت ، واستلقى في نفس المكان الذي كان مستلقيا فيه قبل بضع ساعات . وسمع كما في الصباح صوت تدفق الماء عند الضفة ، وتمتة الأوراق . ولو فتح عينيه لرأى السوميانت من فوقه ، لكنه لم يكن يتبين ضفته الأخرى ولم يكن أمامه سوى الأعشاب التي تتقلب عليها الأنوار والظلال كما في الغابة وبعدها النهر عاليا ومستقيما كالجدار .

كان . ووجهه الى الارض ، يلتزم بسكينة تتبعثر فيها كل قواه شيئاً فشيئاً . وتهيأ له انه يفقد وعيه بذاته . وأن عنصراً غير منظور يبسط سيطرته عليه ، إنه انبثاق غامض يتوارد من كل حدب وصوب، ومن تلك النباتات التي نفذت رائحتها الى أعماقه . واحس في راسه الذي أمسى خفيفا ، بشيء من الذهول جعل أفكاره مهوشة . وتلاشت ذراعاه وساقاه وجسده كله ، وتمازجت مع كل ما كان يتنفس ويضج من حوله . وأغرق ، من غير أن يقدر على النوم ، في بحران من الانشداه حتى نسيت روحه بعض الاوقت حقيقة وجوده .

بلغته جلبة حديث جعلته يثوب الى رشده . كان بعض الناس على الطريق يتكلمون بحماسة . توقفوا مرة فاثنتين وبدوا وهم يتداولون في وجوب العودة الى الوراء أو متابعة دربهم . واذا كانوا لم يكفوا عن رفع أصواتهم فانه لم يستطع أن يفقه شيئاً مما قالوه . والكلمة الوحيدة التي استطاع التقاطها كانت « أبعد قليلاً » وتلك الكلمة أرعبته . كان أولئك الرجال يبحثون عنه . وليس عليهم لاكتشافه إلا الانحناء قليلاً من فوق التلعة التي تحجبه عن عيونهم . لذا عبرت ذهنه فكرة الهرب ثم استبعدها فوراً . فأقل نأمة قد تفضح أمره . والأنسب له أن ينتظر ويتغلب على الرعب الذي جعل دمه كله محتبساً في صدره . إن مضوا في سبيلهم فخيراً يفعلون ، وإن انحدروا الى الضفة ألقى بنفسه في الماء.

لقد ابتعدوا . وحملت نسمة اليه أصواتهم وهي تزداد حدة بفعل المناقشة . وبعد لحظات زحف باتجاه معاكس للاتجاه الذي سلكه حتى الآن فزاد المسافة التي تفصله عنهم قرابة عشرين أو ثلاثين متراً. استراح برهة هناك ثم نهض فتسلق التلعة ليستلقي بعدئذ في الخندق الصغير الموازي الطريق . كان بوسعه أن يراهم وهو يعتمد على مرفقيه. إنهم ثلاثة يمشون ببطء لكنهم أمسوا على مسافة لا بأس بها ، واحد منهم قصير هزيل يشبه المسيو بانسو ، وهو الذي كان يشد زميليه من ذراعيهما ليرغمهما على التوقف ، فيقوم بعدئذ بحركات واسعة من عكازه .

انتظر حتى ابتعدوا بضع خطى أخرى ، ونهض وقد خاف أن يعودوا على أعقابهم فقطع الطريق بكل استعجال . كان الموقع الذي اختاره ملائماً جداً ، فقد ظهر أمامه زقاق في الجانب الآخر من الطريق ، فسلكه وجهد ألا يعدو فمشى على الرصيف صعداً باتجاه المدينة .

غاب النهار بسرعة . فهذا الجزء من لورج غير مضاء ليلاً . ولن تتيسر الرؤية فيه بعد ربع ساعة . فأوحى اليه الحذر بالمكوث هنا والانتظار ، لكن كيف السبيل الى الانتظار اذا كانت اطرافه لا تستجيب

لآية راحة ؟. كان يتنقل على الرغم منه بين جانب من الزقاق وجانب آخر ، وكأن أمنه قائم على بقائه في حالة حركة دائمة . وكأن الخطر سيحيق به متى ركن الى السكون .

ولما كان في حالة يستحيل عليه معها التفكير بشيء أو القيام بمحاكمة عقلانية مع نفسه ، فقد واصل تجوالاً كان من شأنه أن يجعله موضع ظنون المارة وشكوكهم لولا أن الزقاق مقفر . فحركاته كانت تنم على هلع مكبوت بمشقة كبيرة وامسى ظاهراً عجزه عن السيطرة على نفسه إذ كان يديم التلفت من حوله ويتوقف على نحو مباغت ويقوم بكل ماهن شأنه إثارة الشكوك . وبلغ وهو على تلك الحال شارعاً أعرض بقليل لكن الحركة فيه قليلة مثلما كانت عليه في الزقاق الذي تركه لتوه . فليس فيه شجرة واحدة والعشب ينمو بين الحجارة على قارعة الرطيق. تذكر كيف رأى هذا الشارع عند الفجر فمنعه مظهره المشؤوم من أن يسلكه . لكنه أمسى الآن يناديه . كان يمضي بين تلك البيوت الفقيرة، بنوافذها المغلقة . فيركض على مرأى منها وقد استولى عليه هلع لم يعد يقوى معه على اختيار أفعاله ، فبات يديره كيفما شاء ، كان وقع خطاه يرافقه ويتزايد على ما يبدو مثلما تكبر باستمرار جلبه صادرة عن الجند . هل ينعطف عند نهاية الشارع يمنة أم يسرة ؟ إنه لا يدري. فساقاه سوف تحملانه حيثما تشاءان وحيثما تقدران . لم يعد له سوى الملاذ الأخير الذي يلجأ اليه اليائس باعتماده على إلهام المصادفة المفاجيء . والأهم لديه أن يجري رغم ضربات قلبه الرهيبة التي أمست ترعزع أركان صدره ، ورغم الدوار الذي يثقل رأسه ويشوش الرؤية أمام عينيه . كان يصدر عن حلقه المتشنج لهاث أجش . وسمع صوت نافذة تفتح بعيداً من ورائه فركض بسرعة أكبر . اما حين بلغ نهاية الشارع فقد انعطف يميناً ، وما ذلك إلا لأن التوجه يساراً سيرغمه على الصعود ولم يعد يحس لديه القدرة على ذلك ، ورأى شخصا يقف على مسافة قريبة منه فبدا كأنه في انتظاره .

إنه رجل يرتدي معطفاً أسود اللون ويعتمد على عكاز ، وينسدل أمام عينيه حرف قبعة عريضة ليزيد في جعله أشبه بعاجز مسن حصل على إذن بالخروج من المصح للقيام بجولة في المدينة . ذلك انه كان أحدب بفعل السنين وكان في تفصيلة ملابسه ما ينم على مظهر عسكري.

أمعن كل منهما النظر في الآخر هنيهة وقارعة الطريق تفصل ما بينهما . فالهارب توقف في مكانه جامداً . كان يتخيل وجود من يلاحقه ، لكنه لم يحسب أن من الممكن ملاقاته وانه سيجد احداً في انتظاره . ماذا يمكن لهذا الرجل أن يفعل لو أنه واصل الجري ؟ لاشك في انه اضعف من أن يلجأ الى ملاحقته ، لكن في مقدوره أن يصيح فيدب الصوت في المدينة . من هو ؟ هل هو على علم بشيء ؟ ولم لا يتحرك ؟

حطم التعب أضلاعه . فرفع يديه الى خاصرتيه وجهد ليسحب نفساً طويلاً . كانت كل حركة من حركاته موضع مراقبة العجوز الذي لم يتح أي مجال للكشف عما يمكن أن يكون لديه من نيات . ومرت عدة ثوان وسط صمت مطبق . كان الشارع ضيقاً وطويلاً . يصعد يساراً فيتلوى عبر المدينة ، وينزل يمينا بانحدار سريع صوب النهر . وهدأت الريح حتى كأنها لم تهب منذ الصباح إلا لتطرد النهار خارج ذلك الجزء من الأرض . فالضياء يخفت من دقيقة الى دقيقة . وما من نأمة تأتي لتحطم جدار الصمت . وبدت الحياة معلقة بسبب السكون التام الذي شمل كل شيء . شعر غيريه بنوع من السحر يستولي عليه شيئاً فشيئا فيسلبه حريته . مرت ثانيتان أو ثلاث ، ما في ذالك من ريب ، لكن غيريه ناء بحمل هذا الوقت القصير جداً والذي كان يسحقه . فالساعات المعدودات التي عاشها منذ الفجر ولدت في نفسه انطباعاً غريبا على انها حياة داخل حياته ، حياة فظيعة ، ملأى بالعذاب والدماء ، لا هي بالقصيرة ولا بالطويلة ، ويستحيل قياسها استناداً لمواصفاتنا البشرية ، لكنها متكاملة بذاتها، ومنغرسة في حياته هذه كموقع الحلم في ساعاتاليوم الاربع والعشرين ، فلا تماثل حياته هذه في شيء بأكثر مما تماثل رؤى الليل ما نؤديه في نهارنا من حركات . وهي توشك أن تنتهي ، فهو

سيستيقظ ليسترجع الهموم المألوفة من سأم في الصباح وضجـر في المساء . لكن ماذا لو استيقظ بيدين داميتين ليجد أن كل تلك الفظاعة كانت حقيقيـة ؟ أيمكن للكابوس أن يتحول بنفسه الى حقيقة ليمتزج بالاشياء اليوميـة ؟

صاح على نحو مباغت :

ـ لم تنظر إليّ ؟

ـ أنا لا أبغي منك شيئاً .

كان الصوت الذي أجابه رقيقاً واهنا ، كان صوتاً بطيئاً لا يقـوى على نطق سليم للكلام .

قال غيريه والهلع يستوطن قلبه :

ـ إن كنت تحسب أنك تخيفني ... وسكت ثم أضاف :

ـ ... بعكازك . أيها الواشي الهرم !

فهزّ العجوز رأسه وقد احمر غضباً وقال متلجلجاً :

ـ أنا واش ؟ أنا لا أعرفك . إنني أتجول في شارعنا . أتكون إذاً قد فعلت فعلة سيئة حتى أمسيت تخاف الناس ؟

فكرّر غيريه :

ـ أخـاف !

أخذ ينتفض غيظاً . وبدرت منه الحركة العنيفة لرجل ينزع عنه ملابسه وهبط عن الرصيف فتقدم خطوة وسأل :

ـ ماذا ، ايخيفني واحد مثلك ؟

ورأى العجوز يهز رأسه ثانية وقد فغرفاه، فوثب عليه بغتة وانتزع عكازه . وتدحرج الاثنان على قارعة الشارع ، سقطت السيدارةلتكشف عن رأس ذي شعر أشيب واقف . أمسك المعتدي بالسيدارة وحاول أن يدسها في فم العجوز الذي كان يصرخ بصوت واهن . وأحس بقوة خارقة تدعمه ، فتسري في أطرافه كالكهرباء ، متلهفة وجذلى . تشنجت ساقا العجوز بعد عدة محاولات للتملص ، فالذراعان المقيدتان كفتا عن المقاومة . وشل الذعر ذلك الجسد الذي تهاوى مثل شجيرة جافة . الوجه وحده بقي محتفظاً ببضع إمارات حياة ، لكنها حياة تدنت حتى حدّها الأقصى بفعل خشية رهيبة من الموت ، فاعتصمت لا في العينين اللتين أمست نظرتهما فارغة ومستقرة ، بل في حركات يائسة للفكين وهما ينفتحان وينطبقان على اليد الجانبية . انهالت العكاز المرفوعة بادىء الأمر على صدر الضحية ، لتتحول بعنف مسعور على الجبين والصدغين حتى نفر الدم .

انتصب فجأة وقد رأى الخطوط السود تجري وتتلاقى فوق ذلك الجلد المصفر . ما من صرخة أنذرته بأن الحياة ولت هاربة ، وأن الموت أقبل وسط جلبة ، بلا صدى ، لوقع ضربات العكاز . عاين وهو واقف يلهث ذلك الرجل القصير الذي أجهز عليه بعصا . بعد هنيهة ابتعد لبضع خطى ونظر فيما حوله . إنها لمعجزة ألا يكون أحد قد رآه أو سمعه . مازالت يده تقبض على العكاز التي استخدمها فرمى بها ثم التقطها ليلقي بها في فتحة كهريز كانت هناك . وسمعها ترتطم مرات عدة بالجدران الحجرية . إنها تطفو الآن على صفحة مياه قذرة متوجهة نحو السوميانت الذي سيلفها ويحملها بعيداً جداً حتى إنها لن ترى أبداً من بعد .

هبط الشارع من غير ان يستدير . باتت الظلمة تامة تقريبا . اضيئت نافذة ثم أخرى وهذه في لحظة مروره تحتها تماما . وعندها عاد

يركض . كان الانحدار شديداً حتى تعثر وكاد يقع . فخطاه تتلاحق رغما عنه . كان يعلم أنه يركض بسرعة فائقة ويحدث ضجة كبرى . ما عساه يفعل حين يصل الى الجادة التي تساير النهر ؟ فها قد بدأ يلمح أشجار الزيزفون ترتسم بسوادها على سماء لا اون لها . إنه يمضي الآن محاذياً لجدار أبيض فيضيء بياضه الشارع في ذلك المكان. تذكر وهو يركض أنه يعرفه ، فعجل في بلوغ طرفه ليفلت من ذلك الضوء المنتشر الذي كان يبلغ عنه . فبعد ثانية يصل الى الباب الشبكي للمركم(١) . وبعد أن يصل الى هناك سيتوقف ليلتقط أنفاسه ولينتقي الطريق الذي سيسلكه ، لأن النهر لا يبعد سوى أمتار قلائل ولا يجد غيره في نفسه القدرة على السير في تلك الطريق مجدداً ، والهروب بمحاذاة تلك الضفة التي ترعبه ذكراها . وبرزت من قلب الفوضى التي غرق فيها عقله فكرة ظلت واضحة : إنّ ضفاف السوميانت والدرب والحرج وكل المنطقة التي تألم فيها صباحا أمست محظورة عليه الآن بما فيها الشارع الذي نزاله لتوه مسرعا . ويستحيل عليه الرجوع من حيث أتى مهما بدا له ما في الفكرة من جاذبية وتأثير . عليه أن يمضي قدماً ، حاملا طاعون جريمته بعيداً . نحو شوارع لم تره البتة منذ بدء كابوسه .

كانت ساقاه ترتعدان بشدة حتى أخذ يشك في قدرتهما على حمله حتى التجويف الكبير المظلم الناشيء عن باب المركم وسط بياض الجدار. حاول أن يخفف من سرعته فيمشي ، لكن تبديل السرعة يتطلب منه جهداً لم يعد بوسعه أن يبذله . فالانسان المنهك لا يكف عن الجري لكي يسير سيرا ، بل يمضي في جريه قدما الى ان ينهار . بدا له انّ صدره يتفجر ، لعجزه عن احتواء قلب جن جنونه لينهال على جنباته ضرباً . أما لهاثه فيشبه لهيبا يملؤه وينهشه .

(١) مركم : مكان يضع فيه التجار الحطب أو الفحم المعد للبيع . — م —

تساءل على حين غرة : « مم أنا خائف ؟ » الواقع أن الشارع خال وليس ما يعكّر الصمت سوى جلبة وقع خطاه فوق الحجارة . فتحير الفزع داخل نفسه في ظرف ثانية واحدة . ظهر في تلك اللحظة ، خيال رجل عند طرف الرصيف حيث يشكل الجدار زاوية مع الجادة . وكان هو الآخر يحمل بيده عكازا . وحين سمع صوت ركض في اتجاهه توقف جامداً وصاح : « يا هذا ! » لكن نداءه لم يلق جوابا . أضف الى ذلك الجلبة التي سكنت . انتظر الرجل هنيهة ثم قفل راجعا وهو يحرص على السير في وسط الشارع . وحين تجاوز باب المركم الشبكي لم يعد يجرؤ على الذهاب أبعد ، فتوقف . وتأمل الظلمة من حوله فتوجس خيفة . ثم انتابه الفزع فهبط بسرعة زائدة نحو الجادة . رمى غيريه بنفسه في باحة مركم الفحم . ولو لم تكن الشبكة الحديدية مفتوحة لكان انتهى أمر ذلك الشقي : كان سيسلّم نفسه للمتجول الخائف ، رافعا عقيرته بالصياح : « أمسكوا القاتل » ، كي يضع حداً لمحنته ، أما وهو يرقد الآن على الأرض وراء الشبكة ، فقد بدأ جسده بالاسترخاء واخذ العرق الذي بلل أطرافه ، يجف في هواء المساء المنعش . ورأى وراسه مرتد الى الخلف وعيناه مغمضتان ، سماء سوداء تدور فيها الكـواكب .

حين فتح أجفانه كان قـد مضى ربع ساعة وحل الليل . وشيئا فشيئا أخرجته بعض الأصوات من خدره . كانت صادرة حسبما يدل وقعها ، من البناء الذي يحتل أبعد زاوية في الباحة . وفهم أن البحث يدور حول اضاءة فانوس الباب . أعاقه التعب عن النهوض ، لكنـه استطاع أن يجر نفسه بجانب كدسة كبيرة من الحطب فدار حولها ورقد وراءها . ولم يعد من شعور يهزه بعد أن غاص في حالة من البلادة . وسمع كمن هو غارق في حلم وقع خطى تقطع الباحة قطعا مائلا . وبلغت الباب فتوقفت . عندئذ طرق سمعه وقع حذاء ذي صفائح معدنيـة يتسلق أحد النصبين اللذين يحدّان المدخل . أطلق أحدهم صفيرا . وبعد هنيهة قفز من فوق النصب الى الارض وعبرت الخطى الباحة مجدداً . وفتح باب ثم أعيد اغلاقه .

ظل ينتظر . لم يكن ضوء الفانوس يصل اليه بسبب أكداس الحطب لكنه كان يتبينه من فوق رأسه . كانت رائحة التراب والخشب تعبق ندية ثقيلة من حوله فيعبّ منها بنهم حتى كأنها سترد إليه قواه . عادت كفّاه تنزفان ثانية . وكان يشعر بذلك كلما أطبق أصابعه على راحتيه . لكنه لم يعد يفكر بالنهوض والهرب . لقد منحه الشعور بأنه بلغ بشكل ما حدود شقائه ، طمأنينة جديدة . لانهم ولو اكتشفوه وراء كدسة الحطب وأوقفوه فلن يقدّر له أن يعاني أبداً أكثر مما عاناه اليوم . لقد طفح به الكيل . وكان وسط الصمت لايميز إلاّ بمشقة صوت أنفاسه المنتظم . هذا الصوت الذي لعله كان يُعدُّ آخر ما تبقى أمامه من دقائق الحرية .

سمع دقات ساعة آتية من بعيد . لم يدر في خلده بادىء الأمر أن يعرف الوقت . ولم يول انتباها إلا للدقات الخمس الأخيرة ، لكن لا بد أن تكون الساعة السابعة فالليل أظلم . كانت قطع الفحم أمامه تتلقى ضوء الفانوس فتبرق كالزجاج . تأملها بعينين مثقلتين ثم أرخى رأسه بعد أن رفعه لحظة ، ونام وخده على الأرض .

دام رقاده حتى منتصف الليل . أيقظه شيء يتحرك بعناد جيئـة وذهابا على مقربة من وجهه حتى ليكاد يلامسه . أحس وسط الأحلام المشوّشة التي راودت خياله بيد كبيرة تريد أن تتكمش بشعره فيحاول أن يتفادى ملمسها بحركات متلوية تهز كتفيه . لم يكن في الحقيقة سوى واحد من تلك الجرذان اللماعة المتخمة التي كأنها ولدت آنياً من قلب الفحم فتنام نهاراً وتسرح ليلاً في مركمها وكأنها في روضة مسحورة عابقة بالروائح القوية وملأى بمتاهات المماشي .

نهض فبلغ الجدار متعثراً وحاذاه حتى الباب الشبكي فوجده مغلقا . كان الفانوس مطفأً لكن القمر ينشر ضوءا قويا وساطعا فيرغمه بريقه على عرك عينيه . الباحة مستطيلة الشكل . وتفصل موقع الباب عن مكتب الادارة مسافة تعدل خمسة عشر مترا ، والمكتب بناء من طابق واحد على يمينه باب ينفتح على الشارع . ويقوم على طول أحد الجدران

طنف ذو ميل قليل ومنبسط الى حد يكفي ليقي من المطر عربة ذات عجلتين وكدسة كبيرة من رزم الحطب مركونة بجانب المنزل .

ارتفعت في وسط المركم ثلاث أكوام من الفحم ، متساوية الاحجام ومنفصلة فيما بينها رغم انهيارات تؤدي الى تسوية رأسها وتوسيع قاعدتها لتتقارب اكثر فأكثر . وكانت الثلاث تعكس بشدة الضياء الذي يغمرها . ما كان لجدار من الجبس أن يبدو أكثر بياضا من صفحتها المواجهة للقمر . وإذا كان الجبس باهتا ، فان صفيحات الركاز(١) الماسية تلمع مثل ماء يضطرب ويتلألأ . لقد أسبغ ذلك الجريان الساكن على كتل الفحم والأنترسيت طابعا غريبا . فبدت خافقة مثل كائنات وهبها الكوكب السحري طوال ساعات حياة غامضة ومذهلة . كان على صفحة إحداها شرخ أفقي يشكل ثلما لا يطاله الضوء ، فيوحي بضحكة صامتة في وجه معدني . وتكاد ظلالها تتلامس من ورائها ، فتشكل هوات على شكل مثلث وتبدو كأنها انبجست من داخلها فبرزت الى سطح الأرض لتبدو خارجة من الجحيم . أما الشكل الاعتباطي لوضعها ، كثلاثة أشخاص تجمعوا للتشاور فيما بينهم ، فكساها بمهابة كئيبة . وإذا ما امعن المرء النظر فيها مطولاً ، وسط صمت منتصف الليل ، وتحت سماء سوداء بدا القمر مثبتا في كبدها الى الابد ، رآها مرعبة مثل الهة تشهد مأساة يتقرر فيها مصير الخليقة .

ما في الجو من نسمة . وكل مظهر من مظاهر الحياة كان معلقا بين تلك الجدران كما في مكان مسحور . والأشياء المتحولة بفعل إنارة شديدة لم تعد من هذا العالم بل تنتسب لكون يجهله الانسان ، فيحسب المرء ذاته بين أنقاض حاضرة ، لكنها حاضرة غير ارضية ، لشدة ما خفق القلب لكل ما حفل به ذلك المكان من بهاء وخيبة .

---

(١) معدن غير خالص . وهنا الفحم الحجري .

نظر أمامه بعض الوقت من غير أن يفهم تماما أين انتهى حلمه ومتى بدأت مرحلة يقظته . فحين ألقى بنفسه جانبا قبل ذلك بخمس ساعات، حتى يتفادى الرجل القادم نحوه ، منعه التعب من ملاحظة طابع المكان الذي التجأ إليه . أما دماغه المنهك فلم يعد يتلقى أي انطباع . قطع ثلاث خطى أو أربعا ، ورأسه ممتلىء وهماً فوصل كومة الفحم الأولى . لم تأت بعد أية ذكرى لتملأ نفسه اضطرابا . وقف مثل ولد مندهشا لرؤية ذلك الهرم المتلألىء وهو قدامه . وانحنى فغمس يده كأنما في تيار سيل فأخرج حجرا أسود ذا مكاسر ملأى بالشرر .

قطعة من الفحم . قبض عليها براحة كفه هنيهة ثم أرخاها . دار ببطء حول الهرم الأول ، ومر أمام الثاني ، ومشى حتى وسط الباحة كمن يمشي وهو نائم . كانت قدماه تصدمان الحجارة . أما نظره فلا يستقر على شيء بعينه ومع ذلك فهو يتعرف على المركم تدريجيا ، لكن الفوضى المسيطرة على فكره لم تتراجع . فتبرز أمامه صور مهوشة من غير أن يقوى على إحكامها وإسباغ شيء من الواقع عليها .

لم يعد في حلم وهو يقطع الباحة . فالحلم هو اليد التي كانت تسعى قبل قليل لأن تتشبث بشعره ، أما الخطى التي تسير به نحو البيت في طرف المركم فحقيقية . فهو يصغي الى وقعها . ويرى ظله يمشي أمامه صغيرا وأسود ، ثم أكثر طولا ، بل أطول من ثانية لأخرى ، فبدا كمن كان متلهفا الى الوصول حتى يجره من قدميه .

حين بلغ البيت توقف . هناك ثلاث درجات تؤدي الى باب نزعت قبضته . كانت المصاريع الخشبية مغلقة . ارتقى الدرجات الثلاث فأسند ظهره الى الباب وأجال طرفه متأملا المركم بكل امتداده . الأهرامات الثلاثة بنسق مائل ، كدسة الحطب التي رقد في ظلها ، الباب الشبكي المغلق ، الجدران العالية البيضاء ، الطنف الأسود ، العربة وذراعاها على الارض كأنها غافية ، ذلك المشهد الغريب اثار اضطرابه . هبط الدرجات وتوجه ناحية العربة . فرؤية تلك الأشياء عن كثب قد

تنزع عنها منظر الرؤيا الذي اكتسته بفضل الاضاءة الآنية الخاصة . مع ذلك تذكر الآن هذا المركم . لقد سار بمحاذاة هذا الجدار ودخل من ذلك الباب الى ذاك المكان الذي كان معروفا لديه من قبل لأنه سمع كلاما بشأنه . أليس من هذا المكان عينه يأتيه الفحم الذي يشعله في بيته ؟ ليس ما يدعوه اذاً الى خوف لا مبرر له . بل عليه أن يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المكان المسوّر . قد لا يكون الباب الشبكي مغلقا بمفتاح ؟ بل قد يتمكن من تسلقه بكل يسر . لقد استطاع التسلق من قبل الى الطابق الأول من مطعم لوند .

أرغمته تلك الذكرى على التوقف كمن تلقى ضربة على وجهه مباشرة. فالحياة الواعية استأنفت نشاطها بعد أن هامت فيما يشبه الضباب . والذاكرة وجدت نفسها على حين غرة . لقد حاول المراوغة معها دون جدوى لأنها أقوى منه . وليس ما يقهرها إلا النوم أو الموت . وذلك ما كان يخشاه . لم يعد بوسعه أن يخدع نفسه ، فعليه المضي بحياته في الاتجاه الذي أعطاها إياه بدءاً من يوم أمس .

كان في متناوله قبل أربع وعشرين ساعة أن يتصرف مثل باقي الناس ، فيلبث في بيته أو يخرج منه ، يستلقي على سريره أو يخرج متجولا في البرية ، يتحدث الى الناس الذين يلقاهم في الشارع أو يلوذ بالصمت . أما الآن فلم يعد بوسعه أن يمشي خطوة واحدة إذا لم تكن تؤدي به الى مأمن من الناس ، ولا أن يتوقف من غير أن يتخفى .واذا ما لبث في هذا المركم فهو يقامر بافتضاح أمره . واذا ما أفلت منه ، فسيعرّض نفسه لالقاء القبض عليه في الشارع أو على الدرب أو وسط الحقول . إنه لم يعد حراً . أي كأن حياته في السجن قد بدأت . فأول عابر سبيل سيكون عنده كأنه السجّان . واذا ما صادف عند زاوية الشارع امرأة او والدا فستكون حريته رهن اشارة منهما ، هذا إن لم يقم بقتلهما مثلما قتل الرجل العجوز . لكن يده لن تطاوعه من بعد . وهو يشعر بذلك . فالقدرة على القتل ، وهي نوع من انواع الهبة قد أعطي إليه بالأمس ، وسحب الآن منه . وجد نفسه ، كما كان في الماضي،

ضعيفا وجلاً ، لكن فكره مثقل بذكريات يسعى دون جدوى لاستبعادها، فيئن لشدة هولها . شعر بالحر وبدا العرق يسيل على ظهره فيلتصق قميصه بجلده . وبدأت يداه بدافع من قنوطه تتحركان دون أي مبرر فتتشبثان بسترته ، وتجوبان بشرة صدره كأنما ستمزقانها . وقيّده خوف بشع في ذلك الركن من المركم ، وهو الخوف من أن يُرى اذا ما خرج من الظل الذي أنمم به الطنف عليه . وتولد لديه انطباع بأن الضوء حين يسقط عليه يجأر بالصراخ ليشي به فيجن جنونه . أما هنالك وسط الظلمة فبمقدوره أن يفكر .

أول ما عليه أن يفعله بعد مغادرته المركم ، وهو عازم على مغادرته ، أن يصل الى بيته بأسرع ما يستطيعه . فالمفتاح في جيبه . سيدخل من غير أن يوقظ زوجته فيأخذ كل ما في حوزته من مال . ثم يتوجه سيراً على قدميه الى المدينة المجاورة ليركب أول قطار عابر . بقي بينه وبين الفجر أربع ساعات الى خمس . وهو وقت كاف بشرط ألا تنقصه العزيمـــة .

سار بضع خطى في الظل محاذياً كدسة حزم الحطب ، وكأن ذلك الظل يشكّل واقيا على حافة هوة هي الضياء . وتغلب جبنه حتى على الغريزة التي تدفع به نحو الهرب . فهو يستطيب كل مسوّغ يطيل تلك اللحظات الخطرة من التردد . ولا بد من التفكير والتقاط الأنفاس قليـــلا .

اصطدمت قدمه على مقربة من العربة بدلو موضوع بين الذراعين . كانت تطفو على سطح الماء قطعة من الاسفنج استخدمت اثناء غسيل العربة . نظر الى الماء ، فخطرت بباله فكرة غسل يديه ليزيل بعض البقع المشبوهة التي يمكن أن تلاحظ عليهما ، وحـــين انحنى نحو الدلو استبدت به رغبة مفاجئة في أن يرى وجهه . فقد انقضى نهار وليلة من غير أن يرى نفسه . وهذه أول مرة يفكر فيها بذلك الأمر ، وأصبحت الرغبة أشد الحاحاً . فكيف أمسى بعد ما قام به ؟ إنه يريد أن يعرف .

بدا على صفحة الماء شكل غير واضح المعالم ، أشبه بظل لم يميز فيه سوى معالم رأسه وكتفيه . وأخذ الظل يرتعش تحت لهاثه لأنه ركع أمام الدلو ، لكنه لم ير شيئا من قسمات وجهه ونظرته .

عندئذ تناسى خوفه من النور ، الذي منعه من الخروج من تحت الطنف ، فأمسك بالدلو من قبضتيه وحمله الى تحت ضوء القمر . وتأوّه حتى كأنّ ثقل الماء قد أنهك قواه . ركع ثانية وانحنى لكنه استقرّ في الموقع الغلط فمنعه ظلّه من أن يرى نفسه . فدار حول الدلو ورمى بقطعة الاسفنج جانباً وانتظر حتى تسكن صفحة الماء .

اذا هو لم ينحن كثيراً واذا ما اتخذ وقفة شبه منتصبة فسينجح في رؤية نفسه . لم يكن الماء صافياً . لكنّ القمر أحاله مرآة . خفّت شيئاً فشيئاً حدة التجاعيد التي تراقصت على السطح وبدأت الصورة التي ميزها تزداد وضوحاً . بات الآن ساكناً : فذلك الرجل الجامد هو هو .

لبث بضع دقائق بلا حركة . شعره مشعّث . لحيته ترسم ظلاً على خدّيه . ملابسه تتبدّى فيها الفوضى . كان يتوقع ذلك كله فلم تتولّه اية دهشة . إلا أنه بدا ، وهو راكع وذراعاه تتدليان ملاصقتين لجسمه ، في حالة انبهار فلم يأتِ بحركة . أما الرعشة الخفيفة التي تهزّ جسده ، فكان يتبيّنها في الصورة المرتدّة اليه عن نفسه . قد لا يتمكن أبداً من تحويل نظره عن ذلك الانعكاس المذهل . أما وهو مغمور بذلك الضوء الجنائزي فلم يكن خائفاً من القمر بل من النظرة التي تلاقي نظرته فتستوقفها كما يفعل السحر . أما عن الملاحظة فقد رأى تلك النظرة مراراً وتكراراً من قبل حتى لاحظها . والنظرة تلك مقبلة الآن عليه باحثة عنه ، بل هي تنطق وتنبض بالحياة مثل هذا الفم الذي ترتعش شفتاه وهما توشكان أن تنفرجا لتتلفظا بالنداء . بدا على ذلك المحيّا الواقع في أعماق الماء انه يصعد فيرتفع بهدوء ليخرج من الدلو . لقد تعرّف عليه هنيهة ، لكنّ الرعب احدث فيه على نحو

مباغت تغييراً خارقاً فلم يعد هو نفسه . إنّه يوشك أن يخرج من الماء ليخفق في الجو قبالته ويصرخ . توترت ساقاه على حين غرة فهب واقفاً من فوره وقلب الدلو .

أحدث الصمت من حوله جلبة تلقّفتها أذناه ، وأطلق صوت انذار كأنّ الدلو المتدحرج على الحجارة قد أيقظ الليل . وضع قبضتيه على صدغيه وجرى وراء كومة فحم ثم اندفع باتجاه الباب الشبكي فحاول فتحه مديراً القبضة بعنف في هذا الاتجاه ثم في ذاك ، وقد أخذ الهلع منه كل مأخذ بسبب ما أصدرته من صرير . كان الباب مغلقاً بالمفتاح . فصعد على الدعامة مثلما فعلوا من قبل لدى اضاءة الفانوس ، ليتبيّن له من هناك أنّ كل جهد لبلوغ أعلى الجدار كان بلا طائل . فنفد صبره وأحسّ بوهن في قوته وضيّق الوقت عليه الخناق . فالفجر لم يعد بعيداً . قفز الى الأرض وجرى نحو المنزل . فالقدرة المتبقية لديه تتبدد بسرعة واذا لم يهرب على الفور فسينتهي أمره . قد يكون احتبس في ذلك المركم عمداً . فربما توقّعوا انّه سيتوجّه الى هناك وانتابه الشعور بأنّهم يترصدونه من وراء أكوام الفحم متلذّذين برعبه . صعد درجات البيت ثم نزلها وحاول فتح الباب الصغير فقاوم مثل الباب الشبكي .

أظلمت الدنيا في عينيه وأخذت ركبتاه تصطكان . وبلغ به الخوف مبلغاً جعل دموعه تسيل على خديه . وقعت عينه على العربة فصعد فوقها من غير أن يدري ما هو فاعل . فتحركت ببطء رافعة ذراعيها . وحاول أن يرتد الى الوراء لكن الأوان قد فات . وأدرك انّه سيهوي فوثب الى أعلى كدسة حزم الحطب . فظلّت متماسكة تحت ثقله هنيهة ثم أحسّ انها بدات تميد بقدميه ، لكنّ الجدار أضحى حينئذ في متناوله . ولم يبق عليه إلا أن يرفع ذراعيه ويتسلّق مستعيناً بركبتيه ، معرّضاً جسده للتمزق وهو يحتك بالحجارة . إلا انّه كان يتسلّق سور سجنه .

تدحرجت الحزم من تحته على الأرض فأحدثت صوتاً شبيهاً بصوت سقوط البَرَد . لبث لحظة فوق الجدار وقد حطّم الإنهاك صدره . ثم شدّ على الحجر بذراعيه وانقلب الى الناحية الثانية من الجدار وقد تدلت ساقاه فوق الشارع . كم تبلغ المسافة التي تفصله عن بلاط الرصيف ؟ إنّه لا يدري ولا يقوى على التفكير . تراخت أصابعه شيئاً فشيئاً . عليه أن ينزلق ملامساً الجدار . عليه أن ينزلق ؟ كيف ؟ وبغتة أطلق صرخة وسقط .





القسم الثاني

- ١ -

ـ يا له من طقس سيء ، يا مدام لوند . قد تقولين لي إن الأوان لا يستحي من أوانه . لكنّ الشتاء لا يقْبِل في بعض السنين بمثل هذه السرعة . وَيْلي من هذا البرد . . . الا تشعرين به ؟

ـ أنت ، على عهدي بك ، بر ّيدة دوماً ، يا مدام كوز . اما أنا ، فحسبي أن أحسّ بالدفء في أطرافي . هل تفهمين ؟ لذا أشعر اني في غاية النشاط بوجود مدفأة الأقدام وقفّازيّ العريضين .

اطلقت مدام كوز ضحكة باهتة وقالت :

ـ تقولين قفازين عريضين ؟ هل تتخيلين شكلي وانا اقوم بإعداد الطعام ويداي في قفازين عريضين ؟ لكن من حسن الطالع أنّ الجوّ في مطبخي أدفأ منه هنا .

التزمت مدام لوند صمتاً مليئاً بالمهابة .

فاستأنفت مدام كوز قائلة :

ـ قلت ذلك دونما قصد إساءة . اعتذر كثيراً إن كنت قد عكّرت مزاجك .

ـ البتة يا مدام كوز . انا احافظ هنا على الحرارة التي اراها تواتيني . واذا عانيتِ منها فذاك شأني .

قالت ذلك بصوت حازم وهادىء . وحدّقت في محدّثتها لتؤكد عجزها عن نقد كلماتها الأخيرة . لكنّ مدام كوز ما عادت تفكّر بذلك : من السهولة بمكان لجم لسان تلك المرأة القصيرة ، التي كانت ترتجف وتفرك يداً بيد ، دون أن تجرؤ على رفع نظرها . لقد استهلك عملها الشاق جسدها وأنهكه ، فكانت تجلس مطويّة نصفين في حلّة فضفاضة من قماش النشاف الغامق ، قاعدة على كرسي بشكل مورروب مثل ولد يخشى أن يحتلّ المقعد بحاله . وبدت بحدقتيها البرّاقتين ، والدم المتجمّع في أديم خدّيها وجبهتها ، كأنها ما زالت قبالة قرنها . ولو رأيتها لقلت إنّ النار ، ذلك الوحش الذي لا تني الطباخات تستثرنه دوماً بسطامهن(1) داخل حفرته ، قد وثبت على وجهها ذات يوم ، إذ لم يكن لها أهداب ولا حاجبان وكان جلدها الصلب اللمّاع يحتفظ بما يشبه أثر حرق .

قالت :

ـ ينبغي عليّ أن اذهب بعد بضع ثوان . فالدنيا قد أظلمت .

لم تكن مدام لوند تهوى العزلة . فقالت بلهجة من يصدر امراً :

ـ بوسعك البقاء لبعض الوقت أيضاً .

ـ بقي عليّ إعداد العشاء ، يا مدام لوند ، ناهيك بانني لم اعد الآن أرغب في الخروج وحدي .

ـ عجباً ! انت خائفة إذاً كالآخرين ؟ ممّ تخافين ؟

ـ للمرأة مبرّر خوف دائم وهي وحدها على الطريق .

---

(1) سِطام : حديدة تحرك بها النار .

ــ ربما للمرأة الفتيّة . اما أنت فعجوز بما فيه الكفاية ليَدَعوك وشأنك .

ــ يمكن ذبحي بنفس السهولة من أجل سرقة حافظة نقودي ، كما يمكن تحطيم دماغي بهراوة ، على نحو ما وقع لذلك الرجل المسكين . . .

ــ حسبك حشواً لراسك بهذه الأفكار ، يا مدام كوز . فها هي ذي البلد في حالة غليان واضطراب منذ ستة أسابيع ، بسبب عجوز بائس قتل عند زاوية شارع . ماذا ستكون حالك لو انك في باريس حيث يقتل ما لا يقل عن عشرة أشخاص كلّ ليلة ؟

ــ اسكتي ، يا مدام لوند ، فأنت تخيفينني . إنك تتحدثين على ذلك بكل هدوء . . .

ــ لست أرى ما يدعوني الى القلق من اجل أمر ضئيل جداً .

ــ قال المسيو غروجورج للسيدة منذ ايام . إن العزم على اقتراف جريمة ينتشر بالعدوى كالاصابة بالحمّى ، لذا فإنّ الجرائم تقع دوماً بوتائر متسلسلة .

ــ وماذا قالت السيدة ؟

ــ لم تقل شيئاً . إنّها لا تقول شيئاً ابداً .

ــ ها انت تلاحظين انها لا تصدّق ذلك .

ــ لست متأكدة من الأمر . فقد كانت هيئتها غريبة حقاً . مثل حالها مع الجريدة منذ بعض الوقت . . .

ــ مع الجريدة ؟

ـ أجل ، إنّها تتلقّفها بلهفة .

ـ يا إلهي ! وأنا ايضاً ، وأنت أيضاً . إنّها تريد معرفة الأخبار .

ـ انت لم تريها مثلي ، يا مدام لوند . هل ترتعش يداك وانت تفتحين الجريدة ؟ كلا ، أليس كذلك ؟ امّا يداها هي فترتعشان . وذلك فقط منذ حادثة الآنسة أنجيل .

ـ علام يدل ذلك ؟

ـ على انها خائفة ، وحق العذراء .

ـ لو كانت خائفة لما خرجت ليلا .

ـ الواقع انها ذهبت الى المحطة لاستلام رزمة ، امس الأول بعد العشاء ...

ـ ادري . رزمة مرسلة من باريس .

ـ كيف بلغك ذلك .

ـ إنك لفضولية .

ـ كلا ، مطلقاً . لكن هذا ما قالته للسيد وهي داخلة . رزمة من باريس تحتوي جزمة قصيرة .

ـ انت ترين إذاً ...

ـ انا لا اصدق انك تخمنين . كان بوسعي فيما مضى أن استنتج بأن السيد يقول ذلك لأنجيل ، وان انجيل تتولى اعلامك من بعد ، لكن بما أن السيد لم يعد يراها ...

ـ دعي انجيل وشأنها ..

ـ ايه ! عفوك ، يا مدام لوند . أدري أنه ما كان لي أن اتحدث معك بهذا الشأن . وأدرك أن الأمر يشق عليك . فتاة على ذلك القدر من الجمال ... ومثل ذلك الجرح في وجهها ... أي رجل ، بل اي وحش هو غيريه هذا . يا مدام ! ويمكن القول إنه نذير شؤم لكل من يعرفه ، ولزوجته قبل من عداها . أتعرفين ماذا حل بها ؟

قابلت مدام لوند هذه الكلمات الاخيرة بتجهم : إنها لا تود أن تقول « كلا » رداً على سؤال من ذلك النوع .

ـ قيل لي إنها رجعت الى ذويها في مقاطعة بريتانيا . وقبل ايام ، سمعت الوصيفة السيد يقول للسيدة إن غيريه ما كان له أن يقترن بواحدة مثل زوجته . وإن ذلك سبب كل البلاء .

ـ هكذا ؟ وبماذا أجابت السيدة ؟

ـ لا شيء . قلت لك إنها لا تقول شيئا أبداً . ولو لم تكن تتكلم لاصدار تعليمات ، لحسبها المرء بكماء . لكن ، يا الهي ، لقد استغرقت في الثرثرة وهذا الليل أقبل . إنني منصرفة الآن ، مثلما تعلمين .

ـ كما تشائين .

ـ الى اللقاء يا مدام لوند . سوف امشي مسرعة وأسير في منتصف ارض الشارع . اذا ما سمعت صرخات فاعلمي انهم يذبحونني أنا .

ـ لا تخشي شيئا ، يا مدام كوز . انت تقولين هذا دوما . لكنك محظوظة بالبقاء في بيتك .

ـ هيا ، سأولي هاربة . الى اللقاء يا مدام لوند . لا تنهضي .

ــ الى اللقــاء .

قالت بصوت خافت حين لبثت وحدها : « انهض ! إنها تتخيل الآن أن علي واجبات تكريم جيالها . » ثم أضافت وهي تميل صوب زجاج النافذة : « هيا أركضي ، أيتها العجوز الخوافة » .

لقد نطقت بهذه الكلمات الأخيرة بصوت عال ، ومزيج من العداوة والازدراء ، حتى شعرت هي نفسها بالمفاجأة . نظرت فيما حولها بهيئة من الضيق وسعلت على نحو ما يفعل في أغلب الأحيان الأشخاص الـذين يكلمون انفسهم ، قاصدين من غير شك الى جعل الذين يمكن أن يكونوا قد سمعوهم ، يحسبون أنهم ينقون حلوقهم . وأن جلبة الكلمات تلك ليست إلا صــوت نحنحة .

لكن إذا كانت مدام لوند في واقع الحال تهمهم أو تتعجب وهي وحيدة ، كنتيجة لمصيبة واحدة من مصائب الشيخوخة الصغيرة ، فانها لمعذورة ، لأن اثر السن بدأ منذ أربعة شهور يسيء معاملتها . فبصرها اخذ يخف . لم يعد بوسعها ، من غير الاستعانة بنظارة حصلت عليها حديثا ، أن ترى على نحو كاف . لكنها لم تكن تجرؤ على استخدامهـا امام الملأ . ما نفع شعرها الجميل الفاحم الذي ما زالت محافظة عليــه إذا كانت ستشوه شكلها بتلك الأداة المهزونة ؟ وهي ليست أخيراً إلا في الخامسة والخمسين . وبصرها يكفيها تماما للتعرف على زبائنها ، اما اذا رغبت في القراءة أو الخياطة فبوسعها أن تنفرد في غرفتها . لكن ما يتسبب لها بأشد الضيق، و"قر" جديد" زاد مؤخرا في اذنيها. فنسبت ذالك بادىء ذي بدء الى عيب في النطق لدى محدثيها ، لتسلم فيما بعــد بالأمر الواقع : فحواسها تخونها واحدة فواحدة . ولم يعد هناك سوى أنجيل التي استطاعت ، دون من عداها ، الابقاء على صوتها مسموعا لديها على الدوام : لقد أتقنت الفتاة إتقانا تاما المعيار اللازم لرفع عقيرتها، حتى تخترق حجب ذلك الصمم الناشيء حديثا .

هزت مدام لوند رأسها وهي تتفكر في هذه الأمور ونظرت من النافذة ثم نهضت . كانت بوشاحها الصوفي القصير الأسود ، وهو يقي كتفيها من البرد ، ذات شبه قريب من أحد رجال الكهنوت الذين يلبسون الجبة . دارت في غرفتها بخطى ثقيلة وهي تفرك يدا بيد ، وحين توجهت صوب الأريكة عادت ذكرى مدام اوز الى ذهنها ، فدمدمت مغتاظة : « كلهن خائفات » .

ذلك الضرب من الذعر الذي ينتاب المدينة بعد غياب الشمس يثير القلق لديها ، فلو استسلم الرجال لجبن النساء لقضي على مطعمها . إذ لابد قبل الوصول اليه من نزول شوارع طويلة سيئة الاضاءة . وليس في النزهة شتاءاً ما يبهج .

توقفت الآن امام الموقد فأضاءت السراج وقالت بينها وبين نفسها، فيما هي تضع العاكس فوق ساعد السراج الزجاجي : « مازلت أمسك بهم بحكم العادة . فهم لا يحبون التغيير . ناهيك بأنني لا ازال وحدي في البلد أتعامل معهم بأسعار متهاودة . بل ينبغي القول كذلك إنني أفرضها عليهم . لكن يحتمل الا يظل الوضع على نحو ماعرفوه سابقاً يوم كانت انجيل تخرج بصحبتهم .. » .

وقام فكرها بونبة ناحية الأمور العامة ، كأنه يريد الإفلات من عذاب ذكرى محددة بعينها . فقالت بصوت عال :

« ماسبب كل هذه الهموم ؟ لم ناء القدر علي بحمله على حين غرة ؟ قبل ثلاثة اشهر كنت احسبني تعيسة ، الكنني كنت سعيدة ، أجل ، سعيدة . كنت آكل وأنام من غير انشغال بال . وبدت حياتي منتظمة الى الأبد ... » .

حملت السراج وقطعت الغرفة متجهة لفتح الخزانة . وأضافت وهي تدس ذراعها بين الأثواب والشالات :

« انتهى بي المطاف الى الخوف حذر الغد . ولا يعلم إلا الله ماذا ينتابني كلما سمعت طرقاً على بابي . لا احد . ليس من احد بالتأكيد في هذه الخزانة . بل كيف يمكن لأحد أولاً أن يقف فيها . ينبغي أن يكون طواله مئة وعشرين . ويلي من هاتيك العجائز وحكاياهن ... إلا أنني قبل ثلاثة أشهر ماكنت أحسب لضرورة تفتيش غرفتي أي حساب » .

أغلقت الخزانة وقصدت السرير فوضعت السراج على الارض .

« لا يشق علي تصديق ارتعاش يدي مدام غرو جورج حين تفتح الجريدة . وأنا أيضاً ! إن الدم لشيء فظيع . فالفكرة بأن أحداً يطالني برأس خنجر ... » .

ركعت كأنها ستؤدي صلاتها أمام صورة المسيح وهو باسط ذراعيه فوقها وفوق مخاوفها ، لكنها لم تره . وتأوهت : « علي وأنا في سني هذا أن أركع لأنظر تحت السرير ! لو وجدت أحداً لأمسك بي لامحالة . وهذا برهان على أنني غير مصدقة أبداً . ومع ذلك فلن أغادر هذه الغرفة قبل أن أتثبت من أن أحداً لايختبىء فيها » .

استندت براحتيها الى البلاط وانحنت الى أمام حتى لامست الأرض بشعرها . فانحدر الدم الى رأسها محدثاً طنيناً .

تنهدت قائلة : « إنني لا أرى شيئاً . كان عليّ أن أضع نظارتي . فالسراج لا يضيء حتى النهاية تماماً . ويبدو لي آخر الأمر أنه ليس من يستطيع التسلل الى تحت حتى لو كان نحيلاً جداً . لكن المرء لا يستطيع أن يجزم أبداً . فالبعض يصير في منتهى المهارة ، حين يتعلق الأمر بتعكير صفو الناس الأشراف » .

وضاع صوتها تحت السرير . فكانت وهي تئن على تلك الحال أشبه ما تكون بحيوان سمين يلهث تحت باب سجنه . كان غسق الشتاء يضيء النافذة بوهن من ورائها . لم تعد الآن تتحرك أو تنطق

بكلمة . فنظرتها المكفهرة تتحرك من اليمين الى اليسار . أما مؤخرتها الساكنة الضخمةالمتلألئة داخل غمد من الصرج اللماعلشدة الاستعمال، فكانت توجه شتيمة لآخر اشعة النهار .

حين اغلقت المطعم في ذلك المساء وضعت قبضة القفل في جيبها وصعدت الى غرفة أنجيل . كانت الفتاة قبل وقت قصير قد رقدت في سريرها وأطفأت النور . لذا فان زيارة مدام لوند باغتتها ، وجعلتها تخشى أن يكون قد وقع حادث خارق ، فقالت من داخل سريرها :

ـ ماذا هناك ؟

التقطت مدام لوند أنفاسها ووضعت السراج فوق المدفأة . ثم قالت بنبرة مرح مصطنع :

ـ ماذا تريدين أن يكون ؟ جئت أتمنى لك ليلة سعيدة . وآمل انك لم تكوني نائمة .

وضعت كرسيا عند طرف السرير فقعدت . واستأنفت تقول :

ـ في هذا المساء راودتني وانا تحت أفكار مظلمة .

ثم قالت بغتة وقد رأت الفتاة تبقي الغطاء مسدلاً فوق وجهها : « لم تتحجّبين على هذا النحو ؟ »

ـ لأن النور واقع على عيني .

ـ طيب ، ها أنت تقاطعينني دوماً حين أبدأ الكلام .

وقامت تدمدم متذمرة فوضعت السراج فوق الطاولة ، في زاوية مغايرة من الغرفة ، على نحو يجعل سرير أنجيل يقع في الظل من جديد.

ـ قلت لك إن أفكارا سـوداء راودتني . اجـل . فكآبـة أولئك الرجال استولت عليّ . ما عادوا يتحدثون كما في السابق . تلك حقيقة واقعـة .

ـ ما كانوا في العادة كثيري الكلام إلا ساعة يتخاصمون .

ـ لكم أود أن أراهم يتخاصمون . ومهما قلت فلابد من التسليم: ذلك الصمت لا يوحي بالخير . لم تكن لهم مثل تلك الهيئة قط مذ أن عرفتهـم .

ـ وهل في ذلك من ضير ؟ ليس لك إلا أن تدعيهم وشأنهم .

ـ يا لقلبك الطيب ! وماذا لو انصرفوا ؟

ـ من قال لك إنهم سينصرفون ؟

ـ لا أحد . لكن إذا كانوا صامتين فهم غير راضين . واذا كانوا غير راضين فيمكن أن ينصرفوا . ولديّ ما يشبه الاحساس المسبق .

ـ لديّ أنا إحساس مسبق بأنهم باقون ، لأن السعر أرخص من اي مكان آخـر .

فقالت مدام لوند بلهجة حارة مباغتة :

ـ والمسرة ، يا ابنتي . ألا تزال في رأيك من مسرة بالحضور للعشاء في لورج ، بينمـا كثيرون منهـم يقيمون في شانتيليا ، وأن الجـو في شانتيليا أكثر مرحا ومليء بالضياء والناس ؟ أما لورج فتسودها سمعة مشؤومة ، وشوارعها غير مضاءة . ولا يتردد اي واحد من أولئـك الرجال عن دفع خمسة وعشرين فلسا إضافياً للعشاء في مكان يستطيع العودة منه الى بيته دون أن يخشى من أن تحتز رقبته .

ـ لِمَ تحدثينني في كل هذا ، يا خالتي ؟ لقد وعدتني ...

فاستأنفت مدام لوند وقد امتلأت غيظاً لم تعد تقوى على كظمه :

ـ لكن دعيني . ينبغي أن أتكلم وأن تسمعيني . فالكيل طفح بقلبي، هل تفهمين ؟ زارتني مـدام كوز قبل قليل . إنهـا واحدة من اللواتي يقتلهن الخوف حين يضعن قدمهن خارجاً . وذلك كله يغيظني . فحين يستبد الخوف بالناس في مدينة صغيرة مثل لورج تسوء الحالةبالنسبة للجميع . لا اريد أن يشعر المرء أنه يخاطر بحياته وهو قادم للعشاء في مطعمي . وها هو الشتاء قد حل. فالدنيا تظلم بدءاً من الساعة الخامسة ظلمة حالكة . حسبك ، أنت لـن تبكي . أليس كذلك ؟ لأنك بنوبات الدموع التي تعتريك تجعلين حياتي هنا مستحيلة . ناهيك بأن الحالة فيما مضى لم تكن بهيجة جداً ، يا أنجيل ! أتسمعينني يا أنجيل ؟

ـ أجـل .

ـ سأطرح عليك سؤالا من اجل صلاح أمرك وأمري وهو سؤال جاد . انت تعرفين اسم الذي اعتدى عليك . فمن هو ؟ قولي لي .

ارتدت أنجيل فارتمت فوق السرير ورأسها بين ذراعيها . فحالت دموعها هنيهة دون قدرتها على الرد . وبغتة صاحت قائلة :

ـ كنتِ قد وعدتني بعدم التعرض لهذا الأمر ثانية . هيا اتركيني .

لم تتزحزح مدام لوند من مكانها . يمكن أنها تعودت مثل هـذه الثورة . اخيرا قالت بصوت اخفض :

ـ لم اعد أقوى على الاحتمال . فبعض الناس يقولون انك تعرفين اسم ذلك الرجل وان واجبك يقتضي تعاونك مع العدالة . الا تعرفين أنك بصمتك تثيرين المدينة ضدنا ؟ واذا ما تعرض امرؤ لاعتداء فـي

الشتاء فسوف يقال بكل تأكيد انه ما كان لذلك ان يقع لو انك أبلغت عن الجاني ، عندئذ لا يبقى أمامنا الا الرحيل .

ــ لكني لا أستطيع ان أقول لك اسم الرجل لاني لا أعرفه .

ــ الا انك لن تقنعيني بأنك أيضا لم تريه . فقولي ، كيف كان شكله ؟

ــ كنت قرب الماء . فقدم من ورائي وضربني على راسي . هذا كل ما أعرفه .

ــ لكنهم شاهدوك معه على الطريق ايتها الشقيّة . فمدام كوب قد رأتك . ومن بعدها صانعة الكراسي عند سان جود رأتك .

ــ ينبغي اذاً توجيه السؤال اليهما لتقولا بصحبة من كنت ، لا سيما أنهما شاهدتاني .

واعقب هذا الجواب صمت طويل ، تقطعه فقط شهقات انتحاب مخنوق تصدر عن انجيل ، وزفرات صاخبة من مدام لوند . لقد جهدت هذه الاخيرة لتبقى منتصبة في جلوسها على الكرسي لتبدو دون شك على جانب أكبر من الرهبة في عيني الفتاة ولتفرض عليها رأيها . كان رأسها نصف مضاء بالسراج الذي وضعته وراءها فبرزت صورتها الجانبية القاسية الطويلة كخيال محاط بما يشبه الهالة . فكرت بضع ثوان . وبدت عينها البراقة باحثة عن الشر الذي يمكن أن يتسبب في اشد الاذى . وقالت اخيراً :

ــ سوف نرى بوضوح كيف سيكون ردك أمام محكمة الجنايات .
وصمتت أنجيل . ثم أجابت بهدوء :

ــ لو كنا في غير هذا الوقت ، لاثرت ضحكي . فما الذي يمكن أن أخشاه من محكمة الجنايات ؟

ـ سيقولون انك متواطئة مع أحد الجناة وانك أخذت مالا مقابل سكوتك .

ـ ينبغي أولا اثبات ذلك .

ـ المحامون يثبتون ما يرغبون في اثباته وسوف تدخلين السجن .

ـ اتتخيلين انني في الثانية عشرة من عمري فتحاولين اخافتي ؟ ومتى كانوا يضعون المجني عليهم في السجن ؟

بعد توقف قصير ، استأنفت مدام لوند تقول بأناة حشرة ووحشيتها:

ـ أقول ان الجاني عليك سيعاقب ، اما أنت ، فسوف يجعلونك تدفعين ثمن سكوتك الذي منع العدالة من القاء القبض عليه في وقت مبكر . ومن يدري ؟ قد تكونين السبب في ارتكاب جرائم أكثر هـولا أيضا ، لان ذلك الرجل الطليق يشكل خطرا تماما . وهو طليق بفضل صمتك يا ابنتي . واذا ما رغب على سبيل المثال في أن يحتز عنقي هذا المساء ، الا تعرفين انك ستتحملين جزءا من المسؤولية ؟

ـ أنا يا خالتي ؟ ولكن كيف ، كيف ؟

ـ برفضك اعطاء اسمه .

ـ أكرر لك قولي اني لا أعرفه . أجهل كل شيء عنه . ولن اكون قادرة على أن أقول كيف شكل وجهه .

ـ الا أنهم شاهدوك على الطريق وأنت تتحدثين اليه . وهنـاك شـهود .

ـ الشهود يكذبون .

ـ ستوضحين ذلك أمام المحكمة ، يا حبيبتي .

ــ آه ، دعيني اذن وشأني ، يا خالتي . فماذا تجنين من ازعاجي؟

ــ قولي لي فقط ، ان كان هو السيد غيريه أم لا . فهناك شكوك تحوم حوله . واذا لم يكن هو ، فحسنا تعملين بقولك لي . فانت لا ترضين بان يتهم بريء ، أليس كذلك ؟ وزوجته ؟ فكري بزوجته . هيا ، أهو ذاك ؟ لا عليك الا أن تقولي نعم أو لا .

فجلست انجيل في سريرها . وقالت بقوة :

ــ لن أجيب أبدا . دعيني .

نهضت مدام لوند وأتت حتى القرب منها قائلة :

ــ لن تجيبي أبدا . وانا ، ماذا لو عيل صبري منك ، قولي ؟ ماذا لو طردتك من بيتي ؟ فيوم جاؤوا بك من هناك ، لم تكوني بهذا الزهــو .

وارتفعت حدة صوتها فجأة فطفقت تصرخ وهي مائلة فوق الفتاة التي كان يظهر شكلها الابيض في وسط السرير .

ــ سينتهي الامر بالشقي الى التوقيف ، أتسمعين ؟ وانت ، أنت سوف تنالين حسابك . انت متواطئة معه . لقد اخذت مالا من أجل أن تسكتي . كلهم يقولون ذلك والامر مؤكد .

اجابت انجيل وهي تضطرب :

ــ ذلك غير صحيح . ولكني أقول لك ان ذلك غير صحيح . كنت فيما مضى تصدقينني .

كان صوتها يشبه صوت امرىء يوشك أن يختنق :

ـ ولكن ألم تريني لتحسبي أني لو كنت أعرف اسم ذلك الرجل لما انتقمت ؟ انني أكرهه اكثر من كرهك له بكثير . واني لاتمنى أن تكون المقصلة من نصيبه .

وزفرت قليلا ثم ارتمت مجهدا فوق وسادتها . وانتصبت مدام لوند وهي تلوذ بالصمت . كانت تقف بطولها في الظل وقد بداعليهـا التفكير .

ابتعدت بعد لحظة عن السرير ومضت لاخذ السراج من علىالطاولة وبدا وجهها مضاء بشدة كأن نور مسرح قد سلط عليها . بدتالتجاعيد العميقة وقد انحفرت أخاديد في الخدين ، وبدت العينان الجامدتان بنظرتهما المتوترة ، لتثبت أن الشيخوخة انتصرت في النهاية . فأنفها الطويل الثقيل وحاجباها السميكان يظهرانها بمظهر رجل ، أما تطرية الوجه التي وضعتها يد مرتعشة ، فتجهد دون طائل لتعيد شيئا من النداوة الى بشرة تبدو الحياة قد خلفتها وولت . تأملت السرير مليا رغم أنها تراه بلا وضوح ، ثم تنهدت . شعرت بعبء في صدرهـا . اما وهي تفتح الباب فقد هزت كتفيها ، وربما بدافع من الغم أكثر من عدم الاكتراث .

قالت كما على مضض :

ـ على كل حال ، طابت ليلتك .

وخرجت من غير أن تنتظر الجواب .

* * *

- ٢ -

يصعب على المرء الا يستمتع بجو القاعة الصغيرة التي أقامتها مدام غروجورج في الطابق الثاني من دارة « خلوتي » ، رغم قبح الاثاث والطنافس . ومرد ذلك الانطباع ، من غير شك ، نار الحطب التي تملأ جوّها بدفء عذب في عصر ذلك اليوم المزمهرّ . فستائر القطيفة الحمراء والسجادة الرمّانيّة المزدانة بتشجيرات غامقة ، وقطع الأثاث نفسها من كنبات وأرائك بطابعها التركي ، تتشرب كلها تلك الحرارة المستساغة وتنم على متطلبات من تعودوا الرفاهية . لكن ذا الخبرة سيقول ان ذلك المكان بمجاله المحدود يضيق بمحتوياته ، كما سيمج التجمع المقيت للألوان ، والعدد الزائد من اللوحات التي تغطي الجدران . أما القادم لتوه من الخارج وقد ضرست جسده هبات كانون الاول العاصفة ، فهيهات أن تعدل بهجة جلوسه في تلك القاعة بهجة اخرى .

إلا ان مدام غرو جورج التي دخلت لتوها لم تبد من تأثر بدفء الجو . فألقت بكُمَيْمتها(١) فوق منضدة وجلست قرب النار ، من غير أن تخلع المعطف الطويل من فراء القضاعة ، والذي يلف جسمها كله . ثم نهضت من فورها تقريبا لتمشي داخل القاعة . لقد جعل البرد دموعها تسيل على خديها . فنزعت قفازيها ومسحت اجفانها بظاهر يديها المتصلبتين .

ظلت بضع دقائق نهبا لاضطراب جعلها تقطع القاعة بخطى كبيرة جيئة وذهابا . اخيراً ، وبينما كانت تمر أمام مرآة ملعقة على الجدار ،

(١) كميمة : فروة اليدين (غطاء اسطواني طويل يكسوه الفراء لتدفئة اليدين) .

شاهدت نفسها على حين غرة . وباغتت في عينيها نظرة بدت لها غريبة دون شك ، لأنها توقفت ثم مضت لتجلس فوق الكنبة .

نزعت الآن طاقية الفرو عن رأسها ومسدت بأصابعها الطويلة النحيلة شعرها الأسود الذي بدأ يخالطه شيء من الشيب حول جبينها وخلف أذنيها . من يرها يقل إنها خجلى من الحركة التي بدرت عنها قبل قليل وإنها تجهد الآن لاستعادة هدوئها بحركات متزنة . نهضت ومضت فرنت الجرس وخلعت عنها معطفها .

قالت للوصيفة وهي تدخل :

ـ هل جاء أحد أثناء غيابي ؟

ـ لا أحد ، ياسيدتي .

ـ طيب . خذي معطفي وقبعتي . إن جاء أحد يسأل عني فلا تقولي إنني موجودة قبل أن تحيطيني علما . هل خرج سيدك ؟

ـ من بعد سيدتي مباشرة . خرج بالعربة .

ـ لا بأس . هذا كل شيء .

حين أمست وحيدة ،تمتمت قائلة : « ما العمل ؟ » فكرت لحظة وتوجهت الى النافذة . كانت الريح تهز أعالي الأشجار ، وتثير على الطريق الذي يشاهد فيما وراء الباب الشبكي ، غباراً أبيض يواصل الدوران على ارتفاع بضعة أمتار عن الأرض ولا يبدو سيستقر أبداً . مامن نبتة صمدت في وجه ذلك البرد . فحوضا الأزهار المتقابلان عند طرفي سهلة المرج الكبيرة ، لم يعودا أكثر من كومتين كئيبتين من التراب الأسود . ولم يعد ما يُدخل شيئاً من التلوين على ذلك المشهد المملق ، سوى مساكب المرج ، والسياج الذي تتوالى فيه شجيرات الغار والمضاض .

عادت فأسدلت ستارة التول ومضت فجلست قرب النار .

في بعض الأحيان تبدو لها حياتها ، لا كتوال من السنين ، بل مثل كائن حي ، مثل بديل تكاد تمنحه وجهاً وحركات وصوتاً ، وهذا الكائن الخفي يبرز لها في ساعات العزلة القصوى أو على أثر انفعال شديد ، شبيه بما عرفته في ذلك النهار . كانت تشعر به الى جانبها يتكلم بصوت يهيمن عليه الصمت . كان انطباعها حينئذ انها في حضرة مسافرة عائدة من بلاد بعيدة ، تقص عليها مشاهداتها . ولزمها بذل جهد للخروج من ذلك الخدر الذي انزلقت بها اليه احلام يقظتها الغريبة .

لم تكن يوما سعيدة باستثناء مرحلة طفولتها . فالمال لم يعوزها ولا الصحة ، وبدت الطبيعة سخية حيالها ، لكن قد يكون إغداق الهبات التي انهالت عليها ، قد تسبب هو نفسه بالحزن الذي يشاهد في أعماق عيني تلك المرآة . أيكون الحزن على عدم تمكنها من تمني أي شيء ؟ لقد حصل انفصام عرى تدريجي بينها وبين الاشياء ، حتى إنها قبلت بالرجل الأناني والهزأة الذي تعيش معه ، زوجاً لها ، ولم تظهر عليها اية حساسية تجاه دمامة الأشياء ، التي تحيط بها والتي يقع نظرها عليها طوال ساعات النهار . لكن قد يحصل احيانا في داخلها انفعال غامض يتعذر تحديده ، بل ضرب من ضروب التوقف في مجرى الزمن ، كأنها فرصة تعطى لها كي تستدرك ذاتها ، وأن ترى نفسها على نحو ما كانت . بل أن ترى حياتها .

كان يجري فيعروقها شيء من دم أجنبي ، اذ لابد لخلق امرأة باطنية مثلها وعنيفة مثلها ، طبائع مغايرة للطبائع الفرنسية من خلو البال والتعقل والرزانة . واذا كانت تظهر أمام أعين الناس، غير الفَطِنَة، في لبوس من البرودة والاتزان الشديدين ، فهي في الباطن قلق واضطراب نفسي ، وتُموّه قلبا عاصيا تحت ظواهر حياة مستقيمة جدا . كانت تكره ، من غير أن تقيم الاشياء من وزن ، كل ما كان يعيق حياتها عن أن تكون أكثر غنى وأكثر جمالاً ، وتحقد على كل ما يذكّرها ان :

« الأوان قد فات . بوسعك منذ الآن التكهن بما ستكون عليه سنونك الاخيرة ، فما من شيء سيتغير أبدا بعد » . الا أن ذلك الحقد غامض ، وليس موجها نحو كائن بعينه أو شيء محدد . وتعتبر شبابها ، مع كل الاحداث التي تركت فيها آثارها ، بمثابة جولات خسرتها من غير أن تلحظ ذلك . ولم يتخلف لديها الآن سوى المرارة التي يعاني منها المقامر وهو يسعى ليعرف نوع الخداع الماهر الذي لجأ اليه خصم غشاش فسلبه ماله .

وانها لتشعر ، وهي في الخامسة والاربعين ، بأنها اكبر سنا من امرأة اخرى في الستين ، لانها انساقت للوقوع في شراك العادات التافهة لحياة ضحلة . وأن كل ما تبقى لديها من طاقة ، بدا مسلوبا منها على نحو غير محسوس . واذا ما برز أحيانا جموح هوى مفاجىء ليثير اضطرابها ، فان عقلها لا يتوانى عن الايحاء اليها بأنها غدت أكبر سنا من أن تفكر الان في التحرر من القيود . فعلى أي شيء سترسي سعادتها؟ فجمالها قد زال منذ زمن طويل وثروتها ايست بين يديها . ناهيك بأن العزيمة تنقصها . فقبل عشر سنين كان بوسعها أن تهرب . لكن هل كانت تخمن قبل عشر سنين أنها ستغرق في مثل هذا السأم ، وفي النفور من كل شيء ومن ذاتها ، هذا النفور الذي غدا ينفث سمه في كل ساعة من ساعات نهارها ؟ وكم باتت تتساءل : « كيف يعيش الاخرون ؟ كيف يفعلون للانتقال من اسبوع الى اسبوع وحتى اخر السنة ؟ »

كانت تهتاج لذلك الضرب من ضروب الترحال عبر الزمن ،والذي تجد نفسها مرغمة على القيام به ، فالى أين يمضي بها ؟ ونحو اية مسرة ؟ وأي تعويض(١) سيجعلها تنسى عناءها ؟ لم يكن الايمان يوما ذا تأثير يذكر على تلك المرأة ، فكل المذاهب بدت خاطئة ، وما من واحد

---

(١) تعويض : عملية نفسية يخفي فيها المرء شعوريا بالنقص أو عجزا معينا ، بالتفوق في حقل معين .

استطاع أن يفسر لها سبب مجيئها الى الحياة ، ولا السبب الذي من أجله سيأتي يوم تحرم فيه من هذه الحياة التي وهبتها . كانت فكرة الموت تثير في نفسها ذلك الاضطراب الذي هو من علائم فتوة القلب . وليس حب الحياة هو الذي يعوزها ، انما موهبة القبول من غير تذمر بحياة تغاير كل الحيوات الانسانية ، الا وهي حياتها الخاصة بها .

وهي تدرك بالتأكيد أنه لم يعد هناك ما يقبل التعديل . وكل شيء بات يحملها على الاعتقاد بأنها ستنهي حياتها في هذه المدينة . فأصغر جولة من جولاتها كانت محسوبة سلفا . وكان شيء يشبه القدر يتحكم بكل حركاتها ، وبكل أفكارها تقريبا . حتى لتغوص في لحدها وهي تنبض بالحياة . وفي واحدة من حجرات هذا المنزل سوف يأتي الموت ليلقاها ، سيأتي الموت الذي ليس لها فيه من رغبة لينتزعها من قلب حياة لم تطلبها البتة .

أما الاحساس بأنها فريسة لقوة متقلبة الاطوار فلم يفارقها قط : انها ألعوبة بيد المشيئة التي تسود العالم . أما حريتها فليست سوى أضحوكة . فما نفع التحسر في الخفاء على سماجة الحياة ورتابتها ؟ يلزمها روح أقوى من روحها لتفلت من سجنها . ومهما بدت مسيطرة ومهما أفزعت زوجها بقسوتها ، تظل ضعيفة ، بل أكثر ضعفا من أولئك الذين توهمهم بقوتها .

السأم والقنوط جعلاها حادة الطبع . أما تعودها على تحطيم اندفاعات طبيعتها ، فقد جعلها تحتبس على نحو أفضل ذلك السم الذي كان يفعل فعله فيها منذ أعوام . والعنف الذي تسيطر عليه بشكل دائم ، أدى الى زيادة القوة تدريجياً في قلبها حتى أمستلاتبالي بعذاب الآخرين . واذا كانت لم ترتكب البتة أية خطيئة خطيرة ، فقد يكون ضميرها مثقلاً اكثر من ضمير أشد المجرمات همجية . كانتوهي تضرب ابنها تنتشي بالدموع التي تراها تتراقص في عينيه وتتمنى لو تأتي سهوة جديدة فتسوغ لها تكرار العقوبة . كانت تزدري ذلك

الولد الذي يذكرها بزوجها . فهو يجسد الرمز الحي لعبوديتها ، لأنها تحس بعجزها عن تركه ، بل عن الهروب منه ، ولأنه يشكل جزءاً من نظام الأشياء ذاك ، والذي فُرض عليها من دون أن ترضى به . وكلما مرض الولد تولت رعايته بعناية ، لكن فرحاً طاغيا كان يستولي عليها ، حتى لاتكاد تعرف ماتتمناه .

ستنقضي قريبا خمس عشرة سنة على إقامتها في الدارة التي سُميت « خلوتي » من قبل مالك بليد ، ذلك أن ماهو مدعاة للسخرية كان إحدى السمات البارزة في حياة هذه المرأة . فكنية زوجها نفسها تثير الاستهزاء(١) . وعاداته تبعث على الضحك . وقطع الأثاث التي ملأ بها بيته تنم بوضوح وجلاء على ضحالة تفكيره . ولم تكن من جانبها لتجاهد ضد ذلك كله . لأن استبدال أريكة بأخرى ليس من شأنه أن يجعلها سعيدة . فالقدر اختار إذلالها ، فاستسلمت لكافة أشكال ظلمه استسلام ضحية ساخطة لكن راضخة . ويظل مالديها من زهو كافيا للابقاء على رأسها مرفوعا .

يقال إن الثلج يتراكم على سفوح جبال الألب . وتتكدس كتلة متماسكة بتوازن عجيب حتى يمكن لرعشة هواء أن تخلخله . ويكفي حينئذ أن يتجاوب في المنطقة صوت إنساني واحد ليتهاوى ذلك الجدار . فيولد بسقوطه انهياراً ثلجياً يزيل قرية بكاملها من الوجود . ومنتهى أمانيها أن تطلق تلك الصرخة ، أن تهتف بذلك النداء الذي يحطم انتظام الثلوج الجامدة .

يوم رأت معلم ابنها لأول مرة شعرت بذلك الانطباع المدهش الذي كان يتجدد كلما استحضرت في ذهنها ذكرى ذلك اللقاء . لم تكن تهوى ذلك الرجل . فتصرفاته الوجلة وتزلفه الأخرق ، أثارت نفورها . إلا أنها استطاعت ، رغم قدرتها المحدودة على الحدس ، أن تتبين منذ

---

(١) غروجورج تعني جورج السمين ، بل جورج المنفوخ . م .

الوهلة الأولى انها تتقاسم وإياه الكثير من الضغائن والأوهام . لا جرم أن السن وشيئاً حاداً في طبعها ، سارا بها أبعد منه بكثير على طريق وقائع الحرمان القسرية ، لكن كان يكفيها أن تدقق النظـر في سحنة غيريه القلقة ، وأن تعاين تصرفاته الخرقاء ، وتلك النظرة الانفعالية المهمومة ، لتدرك على نحو ثابت ، أنه يتخبط في متاعب مماثلة للتيعانت منها فيما مضى . فهو أيضاً لم يكن يعرف كيف يتحكم بزمام حياته ، لكنه كان ينم على ذلك ، بينما توفر لديها من الغرور والشجاعة مايكفي لاخفاء قصورها . وترتب عليه ، مثل ماترتب عليها سابقا ، أن لايلحظ هفواته إلا من بعد ارتكابها وأن لايستخلص منها أية عبرة نافعة .

إن موهبة الاستفادة من الفرص والمناسبات قد بُتَّ فيها بالنسبة للآخرين . أي لنفوس أكثر طواعية . فكثير من الناس يتعلمون السعادة، مثلما يتعلم المرء حرفة من الحرف . ويستسلمون فرحـين للقبـول بالضحل تفادياً للأسوأ . وما الزيجات الخصبة وآخر أيام العمر الهنية، وحفلات العشاء التي تجمع ثلاثة أجيال يعمها الرضى ، إلا حصيلة لمثل تلك الحكمة . لكنها كانت حيال رجل ما بَسَّت له تلك الغبطة قط ولا ابتسمت . فهو قد لايعرف الراحة أبداً . وقد ينزل به القدر ضربته من غير أن يعلمه شيئاً ؛ حتى رباطة الجأش ، وحتى تقليد وجه رجل واثق مما يفعله . ويطال جهله المهنة التي اختارها نفسها : كان بوسعه مثلما أصبح معلما أن يصير موظفاً في مصرف أو ساعياً أو بستانيا : فليس له من موقع أو مكان .

كانت ترى ذلك بكل وضوح . فينتابها الألم حيال نفسها لا حياله هو ، لأنه يمثل في نظرها المشهد الخاص بشقائها . كانت من غير أن تزدريه ــ أنى لها أن تزدري امرءاً يماثلها من نواح عديدة ؟ ــ تحقد عليه بسبب قدومه إليها ، لكنها تجنبت إيقاف زياراته . كان يشق عليها أن تراه ، ويشق عليها أكثر من ذلك بكثير الاستغناء عن حضوره . كانـت تتحرق شوقاً لأن تسأله يوماً عن أحواله وأن تعرف كيف يتدبر الأمر من جهته لكي يفسد مستقبله .

لا جرم انه كان ضعيفاً وهي ما كانت تحب إلا القوة . إلا أنها تحتسب له قصب السبق في واحدة : كان أقل منها صبراً . لذا سيعمد ذات يوم ، بدافع نزق في سورة غضب ، بوسعها أن تكبحها لو كانت مكانه ، الى ارتكاب حماقة أكبر من كل ما عداها ، فيفسد نظام الأشياء . بل سيتوصل الى القيام بما لم تجرؤ قط على القيام به ، لأن الحظ أحيانا قد يسعف الأغبياء .

لذلك حين علمت بوقوع جريمتين في لورج في ذات الأمسية وفي مكان واحد تقريبا ، لم تكن بحاجة لأن يقول لها زوجها حول من تحوم الشبهات . وعاشت ساعات عديدة بحالة من الرضى التام ، حتى اضطرت للانسحاب الى غرفتها كي لا ينكشف أمر المشاعر التي غمرتها . لكن شيئا ما في داخلها كان يشجب غبطتها ، وهو نسيج من ذكرى تربية متزمتة كان للمؤلفات الصالحة وقراءة الكتب الدينية دور هام فيها . وفكرت داخل نفسها تقول وقد علت ثغرها ابتسامة لا إرادية : « ألا كم انا شريرة ! » لكن تلك المعرفة التي تمتلكها عن ذاتها ما كانت لتخفف شيئا من حماستها في قراءة القصة المفصلة للاكتشاف الفظيع واستعادت قراءتها في الجريدة مراراً وتكراراً . وكانت تتجاوز بعينيها النهمتين كلمات وسطورا . ورغم استعانتها بنظارة ذات مقبض ، فإنها لم تفهم إلا بشق النفس ما تقع عليه عيناها ، لشدة ما سببه لها الانفعال من اضطراب في النظر . لقد تراءى لها أن لها حصة في ذلك الجرم المزدوج . استبعدت في بادىء الأمر تلك الفكرة الحمقاء . فهل همست على الأقل في أذن غيريه بكلمة واحدة من شأنها أن توحي إليه بارتكاب مثل تلك الجريمة ؟ لذا كانت تحرص ، وهي تقرأ الجريدة على أن تدحض داخليا كل الأفكار التي تولدها في نفسها تلك القراءة . لكنها كانت تفتقر الى الصلابة اللازمة من أجل أن تحلل بكل هدوء ما يعتمل داخل دماغها . فتبدأ يدها ترتعش . وترى على نحو يزداد وضوحاً ، ورغم إرادتها ، علاقة غامضة تنشأ ما بينها وبين جريمة ارتكبها شخص آخر .

وفجأة تنهض وهي تهتف : « آه ، كلا ، ما أعجب هذا ! » وترمي بالجريدة أرضاً . إنهم يضعونها أمام الأمر الواقع بكل قسوته . فيثور كل ما بداخلها ، من استقامة وتمسك بالأعراف ، ضد فكرة تواطؤ ممكن مع القاتل . وتتلبس لبضع دقائق لبوس ملهاة الفضيلة . ويالسعادتها وهي تشعر بالبراءة من جريمة على مثل تلك الفظاعة ! ومن ثم تطمئن نفسها . لكن معرفتها بذاتها تعود الى عدد كبير من السنين مما يحول دون استمتاعها طويلا بتلك البهجة الزائفة . لم تكن تلك الجريمة لترعبها، بل تثير دهشتها وتستأثر باهتمامها . وهي لا تبالي في نهاية الأمر بأن تصيب المجتمع جائحة عنف من هذا الطراز. بل لا ينتابها تجاه ذلك المجتمع المرتعد ذعراً إلا شعور بالازدراء والحقد . من بعد جاء رجل شعر بمزيد من الحقد وواتته جراة أكبر . فبأي حق تلومه ؟ إن ذلك الشكل من الرياء لا يتلاءم مع سنها . وخير لها أن تنظر الى نفسها دون مواربة . وتنتهي دوما الى ذلك الاستنتاج الذي يكتسب في فكرها قيمة مبدأ ، فيخفف من تحسرها لأنها ليست فاضلة .

ليس في نهاية الأمر ما يضير اذا ما احست بروحها آثمة بعض الشيء ، حين اختار القدر لها أن تقترن حياتها بحياة رجل مثل المسيو غرو جورج ، الذي يتألق فيه الاحتشام البورجوازي الزائف بكل مظاهره . وكانت في أحاديثها الثنائية مع زوجها تسلم دون مواربة بعدم نقاء قلبها . حسبها أن ترى على أي نحو من السخط ، كان ذلك العجوز الفاسق المموه ، يعلق على مصرع السيد سرسينا ، رغم أنه هو نفسه يمكن أن يتركه يموت جوعا . وعلى اغتصاب امرأة أرغمها هو نفسه فرضخت لمآربه مرات ومرات ووافقت بتعس فقبضت الثمن دريهمات معدودات . تلك إذن هي الحقيقة : جهل المرء لذاته يؤدي به الى موقف هزلي يقوم أثناءه باستعراض محترميته .

كانت وهي جالسة قبالة المسيو غروجورج تصغي إليه من غير أن تقاطع حديثه المحتد . وتتحرك في نفسه نوازع الشفقة على غريه فلا يطالب بتعليقه بحبل المشنقة ، بل يهبه الحياة ، لكن بشرط أن يمضيها

تحت سماء جزيرة غويانا(١) التي لا ترحم . فلكل امرىء حقه في الحياة .
وكان يتقدم بتلك البديهية كثمرة تأمل عميق . فتبدو له كأنها نهاية
التنازلات القصوى . ثم يعود ليستدرك تساهله بشأن شدة العقوبة التي
سيطالب بها لو كان مكان النائب العام وفيما لو ألقي القبض على الجاني .
أما الأسباب التي توغر صدره على ذلك الرجل فعديدة وان كان يتحفظ
كثيراً دون البوح بها . أولا هو خائف . لقد هزه نبأ الجريمة التي ارتكبها
معلم ابنه هزة رهيبة ، وكأن الموت قد مسّه على حين غرة . فأمضى
يومين في حالة من الفزع يرثى لها ، من غير أن يجرؤ على مغادرة بيته ،
متفحصاً بعناية مجموعة مسدساته ليتأكد من صلاحيتها . كان يرى من
جهة ثانية ان غيريه قد أساء استخدام الثقة التي منحه أياها يوم ادخله
الى بيته . وقد يكون ذلك مأخذه الأكبر عليه . على أي حال ، لم تكن
الأفكار التي تعتمل داخل ذلك الرأس العتيق المهووس بقراءة الجرائد ،
واضحة كل الوضوح . فالمجرم يتمثل له كمريض مصاب بداء معد .
وعليه أن يمتنع عن التجوال ونقل العدوى الى بيوت الناس . واذا كانت
نفسه تحدثه بارتكاب جريمة ، فعليه أن يلبث في بيته ، لا أن يمضي
ليدير نظراته الزائغة في صالات علية القوم . ذلك أن السيد غروجورج
يتذكر جيداً كيف بدا غيريه بعيون زائغة صباح آخر يوم رآه فيه .
وسوف يذكر ذلك حين يذهب للادلاء بشهادته . ويبقى شيء آخر وإن
كان لا يقل مشقة في نظره عن باقي الأسباب : ما هو رأي غيريه فيه ؟
فالحديث الأخير الذي دار بينهما تناول فن الرسم والحب . لا بد أن
ذلك البائس قد سخر في نفسه منه ومن إيضاحاته . ومن يدري إن كان
يضحك الآن من اللوحات التي تلطف السيد غروجورج فأراه إياها ؟
إن هذه الفكرة لأقسى من أن تحتمل . ولو انه عرف ، أولو ان الشك
خامره لحظة واحدة في أنه يستقبل تحت سقفه وغداً على تلك الشاكلة،
لأبهجه أن يطرده من بيته شر طردة . أما الآن فبالمشقة الاحساس بأن

(١) مقاطعة فرنسية صغيرة في أميركا الجنوبية قرب البرازيل . ظلت قرونا منفى المحكومين بالاشغال الشاقة المؤبدة . م.

تكون موضع احتقار مخلوق كان بوسعك أن تصفعه ، وأن يكون قابعاً في مخبأ ما يزدريك بكل خساسة ! تلك هي الجريمة الحقيقية في نظر السيد غروجورج . وما اغتصاب أنجيل وقتل ذلك العجوز بأكثر من مادة تجسد سخطه ، بسبب ما لحق بغروره من امتهان خطير .

مع توالي الأيام تناقص تدريجيا حديث الصحف على موضوع الجريمة . كما أنّ الجاني لم يلق القبض عليه . وجرى توقيف عدد من الاشخاص فاستجوبوا ثم اطلق سراحهم . وبدا أن التحقيق الذي جرى بحماسة في البداية قد توقف دون إعطاء نتيجة . إلا أنّ الهلع كان أقوى بكثير من أن يجعل الطمأنينة تعود سريعا الى اورج . فالأبواب تغلق بالرتاجات في ساعة مبكرة . واذا كانت مدام لوند تنظر متوجسة تحت السرير فليست متفردة بهذا السلوك . لقد انتشرت اشاعات رهيبة . حتى إن النساء لم يعدن يغامرن بالسير على الدرب الموازي للسوميانت . وما إن يهبط الظلام حتى تتخذ المنطقة المجاورة لمركم الفحم بكاملها ، شكل منطقة مسكونة بالاشباح . وكأن القاتل قد عاد اليها ليرتكب جرائم جديدة . بل إن بعض الزوايا في الشوارع كانت تُهجر نهائيا بعد غروب الشمس . ولم يعد من يجد الجرأة على الخروج ليلا إلا مدام غروجورج .

كانت تعلم حق العلم أن ليس هناك من تخشاه . كما أنها لم تصدّق الشوائع التي راجت بأن جريمتي غيريه هما من فعل عصابة من الجناة . ومنذ بعض الوقت أضحى المكوث في البيت أمرا شاقا جدا عليها . فغالبا ما تأمر باسراج العربة لتركبها وتجوب بها المناطق الريفية المجاورة كيفما اتفق . بل تمضي أكثر في جولات على الأقدام فتجوب ضواحي لورج ، والطقس بارد وجاف ، فتمشي مشية سريعة ثم تقفل عائدة الى الدارة ، وقد هدّها تعب عذب فتهدأ منه أعصابها وتنعم بنوم عميق . وتسلك مرار خط سير لا تعقيد فيه ، فتسير بمحاذاة السوميانت حتى تبلغ أولى بيوت المدينة المجاورة ، واذا لم يكن الجو جو صر ، كانت تجلس على الحافة تأخذ قسطا من الراحة وهي تتأمل جريان النهر .

لقد خلّف في نفسها الحادث الضخم الذي وقع فجأة فزعزع الحياة في لورج ، ذكرى كان يروق لها أن تنعم باسترجاعها . فتتذكر اهتياجها في الدقائق الأولى ، وتتذكر وجه زوجها وصوته وهو يخبرها باكتشاف الجريمتين ، ثم البهجة التي اضطرت أن تخفيها . وما أعقبها من إحساس قصير بالخجل . والنتائج التي خرجت بها من المشاعر المتنوعة جدا ، والشديدة العنف ، التي تنازعتها طوال أيام عدة . فأخذت تستطيب استرجاع الدراما الصغيرة الداخلية بكافة مراحلها ، فتعيشها مجددا في ذاتها ، لكنها كانت بحاجة للعزلة من أجل ذلك التمرين الفكري . فكانت تختار الابتعاد عن البيت والذهاب بعيدا في الريف حتى لا يدخل احد يعكّر عليها صفو تأملاتها .

من المرجح أيضا انجذابها لبعض المشاهد من غير أن تخمّن مدى تاثيرها عليها . فهل كانت تتوجه عن عمد لتجلس على حافة النهر قريبا من الأشجار التي عثروا على انجيل تحتها ؟ أم أن ّ المصادفة وحدها كانت تقودها الى هناك ؟ فاي فضول كان يدفعها واي أمل كان يداعب احلامها؟ لكن عالمها عالم خفي جدا . فالتربية المتزمتة التي نشأت عليها أقامت حواجز عديدة ما بينها وبين قلبها ، فلم تعد بقادرة على النطق بحكم دقيق على اعمالها . فالاندفاعات الهوجاء التي لا تقاوم هي التي تملي عليها سلوكها . ولا تساورها في ذات الوقت من رغبة لاستجلاء النتائج التي يمكن أن تترتب على ما ستقوم به . جل ما يعنيها يتمثل في ما تشعر به من رضى ، وهي تعثر في هذا المكان أو ذاك ، على ما كانت تبحث عنه من ذكريات وانفعالات . فيحلو لها على سبيل المثال أن تتجول في ذلك الجزء من المدينة حيث عثروا على جثة السيد سرسينا . إلا أنها كانت تعرف سلفا ذلك الفتور الذي ستخلّفه ، بدءا من الغد ، تلك الجولات الافرادية ، بعد أن تردّها ساعات النوم الطويلة الى حياتها المبتذلة ، البادئة منذ الصباح . وبعد أن يكون توقد الأمس العذب قد خبا فهوى الى الحضيض .

أما رغبتها في الحركة فما كانت تستبد بها إلا في الآصال . وينتابها الميل لأن تشعر بحجارة الشارع تحت قدميها وتحس بصلابة أرض الطريق . وتتوالى تلك الاثارة توقداً في نفسها ، من غير أن يظهر ما ينم عليها في محياها ، حتى يأتي المساء . فكانت تندفع بخطى رشيقة حتى لا يكاد وقعها يسمع . ولا تستسلم إلا حين يهدها التعب في نهاية النهار، فترتمي أحيانا بكامل ملابسها متهالكة فوق السرير مثل تلك الطيور التي تشاهد وهي تحوم في السماء بلا هدف محدد ، فتأتي طلقة مباغتة قاتلة لتضع حدا لطيرانها المضطرب .

عادت في أصيل أحد الأيام . كانت قد مرت شهور وبقيت ثلاثة أسابيع حتى عيد الميلاد . كانت عودتها في ساعة مبكرة أكثر مما هو مألوف . كان قلبها يوالي الخفقان . اقد ركضت ، لا لأنها في عجلة من أمرها كي تلج الصالة الصغيرة التي تعتكف فيها عادة ، بل لأنها بدت عاجزة عن السيطرة على ذاتها . ونال جسدها نصيبه من الاضطراب الرهيب الذي اجتاح نفسها . فقبل قليل ، وبينما كانت تمشي بمحاذاة الخط الحديدي متوجهة نحو جادة السوميانت ، شاهدت غيريه . كان يمشي بسرعة متوجها نحو لورج . كان ينوي من دون شك أن يجتاز العبّارة . توقفت مدام غروجورج . هو ذا الرجل الذي تبحث عنه على نحو غامض في كافة جولاتها . إنه على بضعة أمتار منها . سوف يراها بعد لحظة حين يصير فوق العبّارة ، لأنها الآن تقف متخلفة عنه قليلا والى الجانب الثاني من الخط الحديدي . عبرت ذهنها أفكارة عديدة حتى إنها لم تأت بحركة . وبقيت ساكنة . هل تختبىء ؟ ولم ؟ كانت على العكس من ذلك ترغب في التحدث إليه . هل تناديه ؟ سيخاف ويولّي هاربا . قد لا يكون هو . لكن بلى . فالثياب البائسة التي يرتديها لم تغيّره البتة . لكن حتى وهو في كامل هندامه ، يبقى في سحنته شيء يوحي بالتشرد ، وما الحركة التي كانت تراه يقوم بها ليرفع ياقة سترته سوى دليل يشي بحقيقته لديها . وحالت المفاجئة ونوع من الغبطة المشوّشة دون قيام تلك المرأة بأية حركة . وبغتة استدار .

ربما شعر بنظرة تلاحقه . أول حركة بدرت عنه ، قيامه بسحب يديه من جيبيه . ثم توقف . وأدركت أنه عرفها وأنه يسعى ليتبيّن نيّاتها . فوضعت إصبعها على شفتيها لتبث الطمأنينة في نفسه ثم رفعت يدها فأومأت إليه بأن يأتي نحوها ، لكنه ظل يحدّق فيها وبعد ثوان من التردد ، حوّل وجهه ونكص على عقبيه .

حين مر من أمامها وقد طفق يجري صاحت به بصوت مخنوق :

ـ توقف ! أنا لا أريد بك سوءاً .

لم يصغ إليها . بعد دقيقة سيبتعد كثيرا . إلا أنها ظلت حاضرة البديهة . وبدا الطلب اليه بالعودة ثانية بلا طائل البتة . فجرت لبضع خطى في ذات الاتجاه وصاحت به فجأة من فوق الخط الحديدي :

ـ سأكون هنا غدا مساء في الساعة السابعة ! لا تخش شيئا !

ذلك المشهد على قصره يكتسي في فكرها ، وهي تجلس الآن أمام نار الحطب المتوقدة ، مظهراً متفرّداً . فقبل عشر دقائق كانت تجري على الطريق وتصيح برجل هارب منها وغير راغب في الاصغاء لما تقوله. هل ذلك ممكن ؟ وتراودها نفسها أن تجيب بالنفي . فالساعة لما تبلغ الثالثة والنصف . قد تكون أغفت وسط حرارة تلك الحجرة الصغيرة فحلمت بكل ذلك . لكن ها هي آثار التراب على جزمتها الصغيرة وأطراف ثوبها . كما أن ساقيها ما زالتا ترتعشان بسبب الحركة المفاجئة التي قامت بها . ذلك انها جرت بكل قوتها . وتذكرت صوت وقع أقدامها على الأرض ولهاثها وصيحتها وحركتها . واستعادت منظر ذلك الرجل بملابسه القذرة . والوجه القلق والمتوحش الذي أداره إليها على حين غرة . لقد انتابته لحظة من التردد قبل أن يولّي الادبار ، ذلك انه فكر : « ماذا تريد ؟ هل ستغدر بي ؟ هل عرفتني ؟ » ثم قفل راجعا وهو يجري ، ويجري مسرعاأكثر فأكثر . أيكون قد سمع ما صاحت

به وهو يمر من امامها ؟ ماذا كان يعمل في لوردج في وضح النهار ؟ هل سيعود غدا مساء ؟

تلك الأسئلة التي طرحتها على نفسها بشكل متوال جعلتها في حالة تلهّف جنوني . كان عليها أن تصيح به قائلة : اليوم مساء ، وليس : غدا مساء . فهي لن تقوى على الانتظار حتى مساء الغد أبدا . وجهدت عبثاً لتسيطر على نفسها فتلبث قاعدة ، لكن تلك السكينة كانت عذابا ليس في مقدورها تحمّله . وأين تعثر على الطمأنينة اللازمة من أجل أن تجتاز انتظارا يطول أكثر من يوم ؟ ذلك أنها لم تخلق للانتظار . بطء الوقت كفيل بالقضاء عليها . ولن يغمض لها جفن هذه الليلة بكل تأكيد. فالساعات التي لا تنتهي توشك أن تبدأ وعليها أن تتحمل عبئها . هناك أولا فترة الأصيل ، يليها العشاء مع زوجها — لن تتعشى — ثم عتمة الليل ، والصمت السائد في غرفتها والمصباح الذي ستضيئه ربع ساعة بعد ربع ساعة ، وساعة الحائط التي ستصغي الى دقاتها حتى مطلع الفجر . وبدت لها الفكرة تفوق كل احتمال . فنهضت وضمت يديها على صدرها كأنها تريد أن تمنع قلبها من الانفجار .

وكررت بصوت خافت : « لا أستطيع ، لا أستطيع . »

وبعد أن فكّرت بضع ثوان ، توجهت بغتة نحو الباب وخرجت .

* * *

- ٣ -

في ذات النهار ونفس الساعة تقريبا ، دقت فرناند على باب الغرفة الواقعة فوق مطعم لوند . فردت أنجيل وقد عرفت الفتاة من وقـــع خطاها : هذه أنت ، يا فرناند ؟ بوسعك أن تدخلي .

ــ طاب يومك . ألا تشعرين بالبرد هنا ؟ كان عليك أن تأتي لتتدفئي عند المدفأة في القاعة الكبرى . ليس هناك من أحد . لقد خرجت مدام لوند لتتسوق .

ــ أنا هنا على خير ما يرام ، فلا تقلقي يا فرناند .

كانت جالسة في ركن الحجرة قرب النافذة وقد اسندت الكرسي الى الجدار . وما إن دخلت فرناند حتى وضعت فوق منضدة صغيرة ثوبا كانت تخيطه وأسدلت على وجهها ذيل خمار رمادي يلف رأسها . واضافت وهي تلمس الجدار بظاهر يدها :

ــ هاك مدفأتك . ما حاجتي لأن انزل إليها اذا كانت تمر من هنا .

كان خط المدخنة يمر في الواقع من قلب الجدار ، فيشيع شيئا من الدفء حتى إنه أدى الى تشقق في الملاط يشاهد على شكل شرخ طويل في ورق الجدار .

قالت فرناند وهي تجلس على حافة السرير وعلى بضع خطى من انجيـــل :

ـ لا بأس . لكن الجو هناك أفضل ومدام لوند قد خرجت .

ـ يمكنها أن تعود بين لحظة وأخرى . لست راغبة في رؤيتها .

ـ سوف تظلان هكذا لا تتبادلان الكلام أبدا ؟

ـ نتبادل الكلام في حده الأدنى ، يا حبيبتي فرناند . لم تطرحين علي هذه الأسئلة كلها ؟

ـ وما أدراك ؟ أتحسبين انني غير مطلعة على شيء لأني ما أزال في الثالثة عشرة والنصف ؟ إنك على خطأ . فكثير من الفتيات يكبرنني سنا لكنهن لا يعرفن مثل الذي أعرف .

قالت تلك الكلمات بنوع من الزهو وهي تحدق بأنجيل . فأشاحت هذه بوجهها وقد تملكها الضيق ، من تلك العينين السوداوين اللتين كأنما تسعيان بحثاً عن قسماتها تحت تخاريم الخمار .

واستأنفت فرناند بعد ثوان من الصمت : « إن كنت لا تصدقين فما عليك إلا أن تسألي مدام لوند . » . ثم أضافت تقول بمكر : « لكنك لا تكلمينها . لقدنسيت . »

ـ انصحك بألا تأتي كثيراً لرؤية مدام لوند هذه . فأنت ، يا حبيبتي ، تلازمينها على الدوام . وسوف تأسفين ذات يوم لأنك أصغيت إليهـا .

ـ ولماذا ؟ انت لا تعرفين ما نتبادله من أحاديث . إنها لطيفة في معاملتي . وتدعني أفعل ما يروق لي . ليتك تعرفين مدى ثقتها بي ! فهي تقول لي على الدوام إنني صرت بالغة فلم أعد بحاجة لمراقبة . وإنني أضحيت المسؤولة الوحيدة عما أقوم به من أعمال . وانا أفضل ذلك .

ــ وأمك ؟

ــ أمي مسرورة جداً . فهي تأخذ نصف ما أكسبه في خدمة مدام لوند . وتودع الباقي في صندوق التوفير . وحصيلتي بلغت أكثر من خمسين فرنكا .

فقالت أنجيل وقد خفت حدة نبرتها بشكل مفاجىء :

ــ هذه من حسن طالعك . فأمامك للمستقبل عمل كثير .

ــ هذا عين الكلام الذي قالته لي أمي قبل أيام . ومدام لوند تعلمني فوق ذلك أن أخيط وأن أغسل الأواني . وهذا مفيد جداً كما تعلمين .

ــ جداً . وماذا تطلب إليك أيضاً مدام لوند ؟

ــ ايه ! أكنس غرفتها وأسوي سريرها . الا تعرفين ذلك ؟ إنما أتولى بنفسي ترتيب غرفتها صباحاً . ثم أحمل الفحم اليها . لا يملك أحد غيري الحق في لمس مدفأة الأقدام : فأنا أعدها لها على الدوام، صباحا ومساء .

ــ يا لك من فتاة بالغة ! وأراهن على أنها تكلفك بتنفيذ مهامها .

ــ بكل تأكيد . فساقاها تؤلمانها كثيراً ! هذا الطقس فقط يسمح لها بالخروج : إنها تحب الطقس البارد والجاف .

ــ الحمد لله . لا بد أن تكون اليوم مبتهجة . لكن أخبريني ، يا فرناند ، بأية مهام تكلفك ؟

ــ إسمعي . ترسلني أحيانا الى بائعة الخردوات وأحيانا الى دكان البقال . لكني لا أذهب الى محلات التموين الأخرى أبداً . فهي

تخشى من الباعة أن يغشوني. والآن... ايه ! ولكن هذا سر وقد وعدتها بأن لا أبوح به لأحد .

ـ بوسعك أن تخبريني بكل شيء ، يا حبيبتي . فأنت تعرفين أن من يأتمنني على شيء ، لا أفرط به على أية صورة .

ـ على كل حال سوف أخبرك بالأمر لأنني أعرفك حق المعرفة يا أنجيل . لكني على ثقة من أنها لو عرفت بأني أخبرتك ، فسوف تنتهي العلاقات ما بيننا .

ـ لا تخشي شيئاً .

ـ طيب . قبل أيام أرسلتني الى محل رجل .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أجل . ارسلتني لأوصل رسالة الى المسيو دومين . وهو صيدلاني في شانتيلتا . قالت لي : « هل أضحيت كبيرة لابعث بك الى احد الرجال ؟ » فقلت : « نعم » ، طبعا . عندئذ سلمتني رسالة فحملتها الى المسيو دومين .

ـ ثم ماذا ؟ هيا ، تكلمي .

ـ ولكن ما بك ؟ الست مسرورة ؟

ـ بلى ، يا حبيبتي فرناند . فقصتك تروق لي . وارغب في معرفة تتمتها . فماذا قال لك المسيو دومين ؟

ـ كان في غاية الكياسة . فأعطاني شيئا من العناب وكيسا صغيرا مليئا بكرات العلكة . ثم أدخلني الى القسم الخلفي من محله . وهناك شرع يكلمني ويكلمني ! سألني إن كنت أحس بالبرد في

ساقي . لانني أضع جوارب قصيرة فقط في هذا الشتاء . وأنت تعرفين أن مدام لوند لا ترضى بأن أضع جوارب نسائية طويلة . وتقول إن على المرء أن يخشوشن .

ـ أجل ، وبعدئذ ؟

ـ ثم سألني إن كنت ألبس كنزة ، كنزة جيدة ودافئة . فقلت له نعم ، لكنه لم يشأ أن يصدقني . وأراد أن يدس أصابعه تحت صداري بأي ثمن . هل تصدقين ؟ وأغرقت في الضحك لأنه كان يدغدغني . حتى اسقطت كيس كرات العلكة من يدي . وفي تلك اللحظة سمع أحدا داخلا الى محله . عندئذ أعطاني قطعة نقود من فئة الفرنكين وقال لي إن ذلك مقابل عنائي ، ولأنني عرضت ساقي للبرد . ثم لما رأى أنني عازمة على التقاط كرات العلكة ، قال لي بأن أدعها على الأرض وأعطاني كيساً آخر . وبعدئذ أخرجني ، لكن ليس من باب المحل وإنما من باب صغير ينفتح على دهليز . فتمضين الى نهايته لتجدي نفسك في الشارع .

ـ وهل قصصت كل ذلك على مدام لوند ؟

ـ آه ! لكني لم أقل لها بأنه قبلني ...

ـ لقد قبلك !

ـ أجل . ألم أخبرك بذلك ؟ أما الباقي فقصصته كله على مدام لوند . حتى أني أريتها قطعة النقود فقالت لي إن بوسعي الاحتفاظ بها . وإنه ليس ما يدعوني لاخبار امي . أما الرسالة فلو علمت ؟

ـ الرســالة ؟

ـ أجل ، الرسالة الموجهة للمسيو دومين ؟

ــ طيب . إنه لم يلق عليها أية نظرة . ولقد دسها هكذا في جيبه من غير أن يقرأها . لقد ذهب عناء كتابتها سدى !

تلا هذا الكلام فترة قصيرة من الصمت ، لبثت انجيل اثناءهـا ساكنة ، مطرقة الرأس ، مستغرقة على ما يبدو في تأمل عميق ، لم تقوَ على إخراجها منه أمارات القلق التي ظهرت على وجه فرناند . ثم قالت بلهجة بدا فيها تغير مفاجىء :

ــ سوف تقصين في نهاية الامر ، تلك القصة كلها على والدتك . أليس كذلك ؟

ــ لماذا ؟ فمدام لوند قالت أن لا داعي لأن تعلم أمي بالقصة .

ــوأنا أقول لك ، على عكس ذلك ، إن المسألة خطيرة جدا .

فقالت فرناند بحماسة :

ــ كنت على خطأ حين اخبرتك . لكنك لن تعرفي أبداً ما قالته مدام كوز عنك وعن عشيقك .

فهتفت أنجيل ، وهي تهب واقفة على حين غرة :

ــ ماذا ؟ مدام كوز قالت شيئا ...

ــ أجل . وأنا سمعتها . فقــد كنت في الغرفة المجاورة منشغلة بالخياطة ، وكانت تتحدث الى مدام لوند . لكنك لن تعرفي ماذا قالت .

ــ فرناند ، لا يحق لك أن تصمتي . أنت تعرفين أن في ذلك القضاء علي . ينبغي أن تقولي كل شيء ، أتوسل اليك . فرناند ، الا تسمعين ؟

ــ أقسمي لي بادىء ذي بدء ، انك لن تذكري قصة المسيــو دومين لاحــد .

ـ نعم ، نعم . أقسم لك .

وجلست الى جانب البنت الصغيرة على السرير وقبضت على كفها بيديها المرتعشتين .

قالت البنت التي بدت متلهفة للبوح بأسراها :

ـ كنت جالسة جانبا أخيط . فطلبت الي مدام لوند أن أخرج بسبب وجود مدام كوز ، ولانها لا تريدني أن أبقى بجوارها حين تستقبل أحدا من الناس .

ـ أجل ، أعرف ذلك .

ـ قالت مدام كوز بادىء الامر انه لم يعد أحد يراك ، وان زبائن المطعم يأسفون لغيابك دون ريب . عندئذ أجابتها مدام لوند قائلة : « تضيع واحدة فنعثر على عشر » . ولم يبد عليها الارتياح لأن مدام كوز انخرطت بالضحك ، ثم أضافت قائلة بعد أن رفعت صوتها : « على كل حال وضعت عيني على واحدة لتأخذ مكانها » .

ـ قالت ذلك ؟

ـ نعم . فضحكت مدام كوز مجددا وسألتها ان كنت البديلة . انا ! فكري كم كانت دهشتي . لكن مدام لوند اغتاظت منها على الفور وطلبت اليها أن تسكت . فسكتت مدام كوز فترة لا بأس بها ، ثم سألت مدام لوند ان كانت تعتقد ، أنه سيلقى القبض في نهاية الامر على الرجل الذي قتل السيد سرسينا ، والذي اعتدى عليك أنت أيضا.

ـ أجل ، وبعدئذ ؟

ـ لم يرق ذلك أيضا لمدام لوند . فقالت لمدام كوز انها ليست الا جبانة . وانها بلغطها وثرثرتها تسببت في الخوف الذي يعم جميع

الناس في لورج . عندئذ عارضتها مدام كوز قليلا وردت عليها بأنها ليست وحدها في المدينة تعتقد بأن القاتل هو ... خمني من ؟

ـ لا ادري . قولي بسرعة .

ـ المسيو غيريه ، الذي قدم الى هنا مرتين والذي توارى غداة الجريمة .

ـ يا الهي ، ما هذا الذي تقولينه يا فرناند ؟ وبماذا ردت مدام لوند ؟ أخبريني ، قولي !

ـ قالت ان ذلك غير صحيح . وان عصابة من الجناة قد فعلت ذلك . وردت مدام كوز بالنفي .

وبدأتا تتصايحان . فلم أكن بحاجة للالتصاق بالقفل كي أسمعهما

ـ وماذا كانتا تقولان ؟ هيا ، اسرعي .

ـ تمهلي . لا أستطيع الاستعجال اكثر . قالت مدام كوز ما يلي : « الكل يعلم ان الجاني هو عشيق أنجيل . لاسيما وأن الشرطة تبحث عنه بينما هو لا يجرؤ على الظهور . وما ان سمعت مدام لوند ذلك حتى صرخت بها قائلة : « اخرجي من هنا ! » قالت ذلك بصوت اخافني . لكن مدام كوز لم تتوقف ، مع أنها تبدو في العادة وجلة جدا ، فظلت تغمغم . وظلت مدام لوند تصرخ بصوت أشد وأقوى ، حتى تعذر عليّ أن أفهم ماذا تتبادلان من أقوال . من ثم ، شرعت مدام كوز تصيح بصوت أقوى من صوت مدام لوند فقالت : « من الجلي والواضح أنك منحازة الى جانبه . » وقالت شيئا آخر أيضا ، شيئا سبب رعدة في أوصالي .

ـ طيب . هيا . قولي بسرعة .

ـ قالت لها : « ما من سبيل الى الخطأ . فهو مختبىء هنا ! »

ارخت أنجيل يد الفتاة الصغيرة وتنحّت قليلا من غير أن تنطق بكلمة . لكنها كانت ترتعد بعنف جعل البنت تنفعل .

ـ ولكن مابك يا أنجيل ؟ هيا ، فذلك غير صحيح .

ورغبت في أن تحيط بذراعيها الفتاة ، التي بادرت الى اسدال الخمار على وجهها بحركة غريزية . مضت بضع ثوان دون أن تقوى أنجيل على التفوه بكلمة . ثم تحررت بتمهل من ضمة فرناند لتقول أخيراً:

ـ وهل قالت شيئا آخر ؟

ـ كلا ، بل انصرفت من ساعتها . ألست على مايرام ؟ اتودين أن تتمددي ؟

فأجابت أنجيل بصوت خافت :

ـ أودّ لو تتركيني ، يا فرناند .

ـ لو كنت أدري لما رويت لك كل ذلك . الا أنني ترددت . فقد خامرني الشك في أن ذلك سيسيء اليك .

ـ ليست الغلطة غلطتك ، يا صغيرتي . لكن لا تكرري أمام احد كل ما رويته لي .

ـ كلا ، بكل تأكيد .

بعد صمت قصير قالت الفتاة بصوت أكثر حدة :

ـ يا فرناند ، انني شقية ، شقية جدا . فهل تساعدينني اذا ما احتجت لمعونتك يوما ؟

ـ ولكنك تعلمين حق العلم أن ذلك مؤكد .

ـ مضت ثلاثة شهور وأنا أعيش حياة شاقة ، يا فرناند . لم أعد أقابل أحدا . لقد اعتقدوا بادىء الامر أن جراحي ستشفى خلال خمسة عشر يوما . لقد اندملت تماما . لكن سيتخلف عنها شيء بشكل دائم . وأنا لا أجرؤ على الظهور في هذه الحال ، لكن علي أن استأنف عملي . الا كم كنت سعيدة وأنا أعمل في المصبغة من غير أن أدرك ذلك ! هل تذكرين كم كنت جميلة ؟

ـ ماذا تقولين ؟ لكنك مازلت جميلة .

وهزت أنجيلر أسها .

ـ انت لم تريني منذ ...

وكفت عن الكلام وبدت متفكرة . ثم قالت بعد لحظة :

ـ أخبريني ، يا حبيبتي فرناند ، هل تحبينني ؟ ألا اسبب لك شيئا من الخوف ؟

ـ الخوف ، يا أنجيل ؟

ـ اجل . فأنت لا ترينني أبداً إلا وهذا الخمار يلف رأسي . وهذا وضع محزن جدا . ويتراءى لي أحيانا وأنت تحدقين بي انك تأملين رؤية وجهي من خلال التخاريم .

فردت فرناند وقد بوغتت :

ـ ولكن لا .

فواصلت الفتاة قائلة بصوت عذب :

ـ بلى ، بلى . أنت تعرفين أني لا أحدثك على هذا الأمر أبداً . وكم يحز في نفسي التفكير بأنني قد صرت بشعة . مع اطلالة كل صباح أنظر الى وجهي في المرآة ، واقول لنفسي أحيانا إن الحال أصبحت أفضل . وتأتي من ثم أيام يكون انطباعي فيها بأن الحال أسوأ . ولكثرة ما رأيت نفسي على ذلك النحو ، ولشدة تفكيري بالأمر طوال النهار ، آل بي المطاف الى نوع من الجهل الكلي بحالي .

فقالت فرناند وقد أقلقتها لهجة تلك الكلمات :

ـ لا ينبغي أن تطيلي التفكير في ذلك .

ـ يسهل مثل هذا القول . لكن يلزمني على وجه الدقة ، أن يقول لي شخص ما الحقيقة ، وأن لا يكون قد رأى وجهي منذ ثلاثة أشهر ، كي اظهر أمامه .

ـ مدام لوند ستقول لك ذلك على الفور .

فقالت انجيل بنبرة سخط :

ـ مدام لوند . سوف يسعدها كثيرا أن ترى ما ألحقته بي من أذى .
وامتقع لون البنت فقالت :

ـ بل على العكس . فقد قالت لي إنها تأمل أن تراك وقد شفيت قريبا كي تعودي لاستئناف عملك :

ـ لكنها هي العلة في كل شيء ، يا فرناند . ولولا أنني أعرف تلك المرأة ، لكنت الآن جميلة كما في الماضي .

ثم أمسكت بالبنت من يدها ونهضت فجأة لتأتي وتجلس قبالتها . وقالت بعزيمة :

ـ لدي طلب أتوجه به إليك . ولن ترفضي على ما أعتقد ؟ قلت إنك تحبينني كثيرا . أصغي الي . سوف أرفع خماري . وتأتين أنت الى جانب النافذة وتنظرين إلي . أترضين بذلك ؟ هل ترفضين ؟ وأجهشت فرناند بالبكاء .

قالت انجيل وهي ترتمي على ركبتيها أمامها :

ـ ماذا دهاك ؟ أنت خائفة ؟ انت خائفة مني ؟ كنت تعانقينني بقوة فيما مضى ، اما عدت تذكرين ؟ كنت تطوقين عنقي بذراعيك وتقولين إنك لن تدعيني انصرف . اما الآن وقد امسيت وحيدة ، والناس كلهم يزدرونني ، فانك تقفين ضدي ، انت أيضا ؟ اتوسل إليك ، يا حبيبتي فرناند ، كوني طيبة معي . اؤكد لك أن ليس في الأمر ما يفزع . اتحسبين أنني كنت نظرت في وجهي كل صباح ، لو كان ذلك يخيفني ؟ هناك ندبة ، هذا كل ما في الامر . إلا أنني اشعر بالخجل وانا اتذكر انني ، لثلاثة اشهر خلت ، كنت افضل من اليوم .

ـ متى ستخرجين الى الشارع ؟

ـ متى ؟ سأخرج غدا إن قلت لي إنني لم اتغير كثيرا . أترين ما يمكن أن تقدميه لي من عون ؟ لقد سلمتك نفسي . ذلك أنك أصبحت فتاة بالغة . أتلاحظين ؟ هيا .

ثم نهضت وجذبت البنت بهدوء صوب النافذة . وتراجعت لتقف عند الركن على نحو يدع بضع خطى بينها وبين فرناند :

ـ انتبهي . إن الانطباع الأول هو الأكثر اهمية . حاولي أن تنسي كيف كان وجهي فيما مضى وقولي لي بكل صراحة إن كنت أستطيع الخروج غدا . لكن لا تتخذي هذه الهيئة يا حبيبتي . كأنك تتوقعين

رؤية عفريت ! هيا ، لا اريد أن تكوني كئيبة على هذا النحو . هاك ، تخيلي انك في المسرح .

وسكتت هنيهة ثم قالت بلهجة خطابية كمدير مسرح يعلن عن بداية العرض :

ـ العرض سوف يبدأ . سيداتي ، سادتي ، الستارة سوف ترفع . انتبهوا !

تلك الكلمات التي نطقت بصوت مخنوق تلاها صمت ثقيل . ثم ندت عن البنت صرخة ، كأن شيئا ما قطع عليها انفاسها بغتة . ذلك أنها كانت تتوقع ان ترى جروحا منفرة تعلو وجها مألوفاً لديها رغم كل شيء ، لكنها رأت امامها امرأة لا تعرفها البتة ، لها عينان زادهما القلق اتساعا ، واحتفظتا وحدهما بشيء من حسن ولى الى الأبد ، مفارقا وجها جرى التنكيل به تنكيلا بشعا . إلا أن تناسب القسمات لم يتبدل قط ، فالشكل المدهش الجبين والمحجرين والأنف هو على حاله ، لكن شرخين عميقين ، بل ثلمين عريضين ، بحواشي بيضاء ، يشطبان ذلك المحيا الداعي للرثاء أبدا . الأول يبدأ من الصدغ الأيمن فيحتفر الخد ويقطع الشفتين كأنه يفرض الصمت عليهما . ويفتك الثاني بجانب من الفك والذقن ويتوارى تحت الأذن . فكأن يداً لا تعرف الرحمة نقمت على الصورة التي صنعتها ، فأرادت محوها ، فخلفت بشطبات من قطعة طبشور ، تلك الشروخ المهتاجة التي حملت قرار إدانتها .

اخيراً قالت أنجيل بتنهيدة متوجعة :

ـ طيب ، لا ينبغي أن تبقي هكذا ، يا فرناند ، دون أن تقولي شيئاً .

فهمست البنت من غير أن تتحرك : « أجل » . فواصلت الفتاة كلامها قائلة :

ـ لقد تعوّدت ، كما تلاحظين ، على فكرة أنني لن أعود أبداً كمثل ما كنت سابقا ، لكنني اعتقد أنّ الوضع سيتحسّن ذات يوم ، رغم كل شيء .

وبعد توقّف قصير سألتها : « ألا تعتقدين ذلك ؟ »

ـ بكل تأكيد ، يا أنجيل .

حين خاضت الفتاة بغرورها ذلك الاختبار ، خفّ شيء من العبء الذي رزح تحته قلبها ، وبدلاً من أن تدرك البطلان المأساوي لأفكارها ، استأنفت الكلام وكأنّها حريصة على عدم سماع ما كانت البنت الصغيرة ستقوله لها :

ـ حين شاهدت نفسي على هذا النحو اعتقدت باديء الأمر أنّني سأقضي خجلاً . لكنّ المسألة مسألة تعوّد . لقد احتفظت بعينيّ سليمتين ، وهذا شيء أساسي . أوّاه لو تمكنُ إزالة تلك العلامات البيضاء ! يتراءى لي أنّ تورّد الجلد تقدّم بعض الشيء من حولها . لاحظت أنّها تشاهد في النهار على نحو أضعف وقت سطوع الشمس . ولا تبدو دميمة جداً إلاّ حين أولي ظهري للنافذة . لكن ما عليّ عندئذ إلا أن أطرق رأسي ، هل تفهمين ؟

وأطرقت على نحو ظهرت معه قمة رأسها ومفرق شعرها الأسود الكثيف . أمّا البنت فالتزمت جانب الصمت . كانت شاحبة اللون . وبدت وهي تضع يديها وراء ظهرها أنّها تخشى القيام بأيّة حركة .

قالت انجيل :

ـ هيا اعترفي بأنّ الوضع ليس رهيباً بقدر ما كنت تظنين . فالمرعب هو منظر الدم ، أليس كذلك ؟ أما الندبة . . . على كل حال ، هبي انك صادفتني في الشارع ، فهل سيتولاّك الخوف ؟ هيّا ؟

ـ كـلا .

ـ هذا من حسن الطالع ! بوسعي إذن أن أخرج ؟ لو تعرفين مدى ما غمرني من غبطة وأنا أجد نفسي على هذا النحو حيالك من غير حاجة لأن أحجب وجهي بخمار ! ذلك أنني صرت في النهاية أخيف نفسي بنفسي. وتبين أني كنت بحاجة الكشف عن رأسي لأمسي مسرورة تغمرني البجهة ! مضى زمن طويل من غير أن يغمرني مثل هذا الشعور . إعلمي أن ما قلته لي قد عاد علي بهذه السعادة .

كل ذلك الكلام تفوهت به بلسان ذرب ثم انفجرت بالضحك على نحو مفاجىء . فقد اضاءت بهجة مباغتة نظرها وتدفق الدم الى وجهها ، مما زاد من حدة البياض في ندباتها . فأية آمال تلك التي داعبت أحلامها حتى نسيت هكذا على حين غرة أياما عديدة من العذاب ؟ ثم امسكت بالبنت الصغيرة من يدهـا ومضت لتجلس وإياهـا على السرير قائلة باتزان اكبر :

ـ وعدتني أن تكلميني بصراحة ، يا فرناند . أصغي لما سأقوله لك . في ذهني للمستقبل مشاريع عدة . وليس في نيتي كما تعلمين أن أستمر على هذا النحو في عيشـة أشبه ما تكون بعيشة السجون . ولم أعد أطيق الاستمرار في غسل ثياب مدام لوند وترقيع بياضاتها سدى . غداً سوف أخرج . هذا قرار قد اتخذته . لكن يبقى لدي الآن سؤال أطرحه عليك وهو سؤال جاد . فكري جيدا قبـل أن تجيبي .

ـ نعم .

ـ أنت ما زلت فتية . لكنك قلت لي إنك تدركين الأمور مثل فتـاة بالغة ، أليس كذلك ؟ طيب انظري إلي جيدا . لو أن رجلا رآني على ما أنا الآن عليه ، فهل تحسبين انه سيجدني دميمة ؟

ـ دميمة ؟ كلا ثم كلا .

ـ هل أنت متأكدة من أنك لا تقولين ذلك لارضائي ؟ وهل تعتقدين أن ذلك الرجل نفسه يمكن أن يقع في حبي ؟

ـ اجل ، يا أنجيل .

ـ في هذه الحال ، سوف يقترب مني ويقول لي : « يا آنسة ، أنا أحبك ! » وبعدئذ ؟

ـ بعدئذ ؟

ـ اجل ، ماذا سيفعل من بعد ؟ سوف يمسك بيدي ويعانقني .

أليس كذلك ؟ أليس هذا ما تريدين أن تقوليه ؟

ـ بلى ؟

واغرقت الفتاة في الضحك . ثم أضافت :

ـ هل تظنين أن المسيو دومين كان سيعانقني لو كنت مكانك في ذلك النهار ؟

فأحنت البنت رأسها .

فهبت انجيل واقفة أمامها على نحو مباغت قائلة :

ـ عانقيني ، أنت .

كانت تقف منتصبة ما بين النافذة وفرناند ، مترصدة الوجه الصغير الذي امتقع لونه لتقرأ فيه تعبيراً يطمئنها كل الطمأنينة . لكن نظرها لم يقع الا على فم متشنج وعينين تفيضان بالدموع . لقد احكم

مشهد ذلك الهلع عليها الخناق . لا يسع اية مرآة ، مهما يكن وضوحها أو شراستها ، أن تريها بشاعة مصيرها بوضوح أكبر مما رأته في نظرة الذعر التي تبدت في عيني فرناند . وشعرت أن قواها تخونها وأن ركبتيها ستنثنيان . ذلك أنها تأرجحت طوال شهور بين الأمــل واليأس ، ثم وجدت نفسها فجأة أمام حقيقة فظيعة . ان منظرها يثير الرعب . وهذه البنت ترفض أن تعانقها . فأدارت لها ظهرها على نحو مفاجيء ومشت الى النافذة من غــير أن تنطق بكلمة . كان الناس يقطعــون الساحة الصغيرة ، فيهم امرأة عجوز غضنت السنون فقط محياها ، وصبي صغير ذو بشرة ندية . أكانوا يخمنون أنها واقفة هناك وأن قلبها يتفطر حــزناً ؟

ثم تفكرت قائلة في نفسها :

ــ ربما لم تفهم . سوف أسألها من جديد .

ورجعت ناحية البنت التي ظلت تلتزم الصمت ولا تجرؤ على الاتيان بحركة . فتحت أنجيل فاها لتتكلم لكن الاسى أخرسها . وبدت منذهلة هي نفسها من عجزها عن النطق بما ترغب في أن تقوله من كلام . يا للمسكينة المروعة التي كانت تخيم على الغرفة ! كان بودها أن تصرخ ، وأن تجأر بالصراخ حتى تنقطع أنفاسها ، وحتى تفارقها آخر نسمة من الحياة ، لا سيما وأن الموت هــو الوسيلة التي ما من سبيل سواهــا للافلات من هذا الجحيم ؟ وبغتة خانتها ساقاها فهوت على ركبتيها ، واحاطت بذراعيها ذلك الجسد الذي يهم بالنهوض ، مرتعداً تقززاً من ملامستها ، فوضعت راسها في حضن البنت الصغيرة وتبعثر شعرها فوق مريلتها وأجهشت بالبكاء كالمجنونة ، مطلقة عويلا متفجراً كتفجر مظاهر بهجة فظيعة .

* * *

- ٤ -

جلست مدام اوند تنتظر زبائنها في القاعة الطويلة الكئيبة وقد تشابكت أصابعها فوق مكتبها ، واستندت قدماها الى المدفأة . لم تكن تأتي بحركة . كانت تلف كتفيها العريضين ، اللذين ازدادت استداراتهما منذ فترة قصيرة بوشاح صوفي محاك باليد . أما عيناها الساكنتان واللتان بدت نظرتهما كأنها متوجهة داخليا ، فقد بدتا مستقرتين على رؤية باطنية ينعكس أساها في قسماتها . كان الاناء الصغير امامها فارغا . الا انها أبقت عليه بفعل خوف وتطير من أن ينعكس على مصيرها تأثير أصغر تعديل على عاداتها اليومية . واذا كان الفصل قد حرمها من الازهار نهل في ذلك ما يضيرها ؟ ان لديها على كل حال هموما اخرى كثيرة . فالشيء الذي يجري خطير جداً ، بل على درجة من الخطورة جعلت مدام اوند ، وقد وجدت نفسها أمام موقف لم يسبق مثيل ، تفقد كل جرأة لديها فلا تفكر حتى بالتحرك قيد أنملة او مناداة النادل . فأين هي من الزمن الذي كانت فيه تأمر باحضار الحساء لارغام اولئك الزبائن على الحضور ؟ أما الآن فلم تعد تجرؤ على ذلك . لقد فقدت كل ثقة بتلك الوسيلة التي كانت تستخدمها أيام عزها . ألم تشهد بأم عينيها قبل اسبوع مضى ، احد عشر طبقا يتصاعد منها بخار الحساء الساخن ، ثم تتبرد تدريجيا بانتظار وصول زبائن تأخروا في المجيء ؟

بلغت الساعة السابعة وخمسا وعشرين . وهي تعرف ذلك . فقد أحصت الدقائق ثانية فثانية وهي تصغي لتكات رقاص الساعة الجدارية السوداء . وزاد القلق والغضب من امتزاج الصفراء في دمها فامتقع لونها من تحت طبقة المسحوق المتورّد الذي طلت به خديها .

فليس في قاعة الطعام من احد سواها . لكنها فكرت في انها ستلبث جالسة ، تنتظر أن ترى الباب يفتح واحدهم يدخل ، حتى لو دفعت حياتها فوق مكتبها ثمنا لذلك الانتظار .

لم تكن المدفأة تتوقد بعيداً عن المائدة الكبرى فتسمع تمتمتها التي كانت تجدها فيما سلف بهيجة ومريحة . هـذه الحرارة تتبدد الآن سدى وسط ذلك الجو الدافيء . وها قد داهمها توعك صحي فزاد في اضطراب فكرها ، ودفعها لان تتساءل بهلع عما ستفعله من اجل ان تبقى جالسة بلا حراك مدة ساعة ونصف وربما اكثر . فمن اين جاءها ذلك الاحساس بالغثيان الذي شرع يضايقها ؟ ذلك انها لم تأكل شيئاً في الساعة الرابعة لاحساسها بالتقزز . وها إنّ قلبهـا الشقي الذي فعل اليأس فيه فعله قد بدأ يترنح .

تساءلت في نفسها : « لمَ كل هذا العذاب ؟ » لقد عرفت ، طوال سنين بحالها ، طمأنينة حياة سهلة وعادية ، بدا كل ما فيها منتظما على نحو دائم ، من اليقظة الى النوم الى الوجبات ، بل حتى الأفراح والأتراح. وبغتة حصل خلل هائل . وبدت مرغمة على إعادة النظر في أقدم العادات، وشمل الانقلاب وجودها حتى غاص الى أعمق أغواره . فكل ساعة تحمل في طياتها انفعالا جديدا . وكل نهار يشرق منذراً بنكبة . لقد أقبل أحدهم حاملا معه المصيبة . ذلك هو غيريه . فمنذ أن تناول العشاء في المطعم وكل شيء يسير نحو الاسوأ . كان ينبغي أن يحدّثها قلبها بأنّ ذلك الوجه المغلق ، وذلك الصمت ، لا يبشران بأي خير . فها هي انجيل قد أضحت بسببه تحتجب عن الأنظار كمن به برص . وبسببه امست مدام لوند لا تدري بشيء مما يجري في لورج . وبدأ التأثير الذي اكتسبته على أولئك السادة يذوي شيئا فشيئا . اضطربت سكينة الأيام المنصرمة، ولم يعد الفضول الظامىء يطفأ له من غليل . تنامى احساسها بالمهانة وشعورها بالنقمة وهي ترى الى صرح حسبته صامدا يتهاوى . ورأت نفسها حيال تراكم من الآلام التي من شأن كل واحد منها أن يرهقها بمفرده ، فمن هو السبب في كل ذلك غير ذاك الوحش الذي حثّتـه

وشجعته على القدوم إليها ؟ ايه لو كان بوسعها أن تعرف ، أو لو ان السماء قد انذرتها رحمته بها ! بيد أنها لم تكن تؤمن بعون الدين في ساعات المشقة التي على شاكلة هذه . فهي لا تفكر في السماء إلا في ساعات مزاجها الرائق . ففيما مضى على سبيل المثال ، حين كانت انجيل تأتيها بشيء من المال ، مصحوبا بأقاصيص صغيرة حول هؤلاء وأولئك ، كانت مدام لوند تشعر بالحاجة لاضافة متعة أخرى على بهجة وضع خمسة فرنكات في حافظة نقودها ونشوة الاطلاع على أخبار جديدة ، ألا وهي متعة الشعور بأنها شريفة . أما الآن فتعتبر نفسها مخدوعة ، مخدوعة من قبل العالم ، ومن قبل ذلك الاله الذي يصفونه بالعدل والذي كان يتسلى بتعطيل آلة حياتها البورجوازية المنسّقة بكل براعة . وعليه فلن تعتمد على أحد من أجل قهر عذابها وتفادي الكوارث التي باتت قريبة ، بل ستكون وحيدة ، جالسة الى مكتبها مثل إلهة ضربتها الصاعقة فوق انقاض معبدها . بلغت الساعة السابعة والنصف . كان بودها لو تكون الثامنة او التاسعة كي تبلغ النكبة مداها الأقصى ، ويثبت جور العناية الألهية بالدليل القاطع مرة واحدة والى الابد .

ثم تحولت من تخوّف متطرف مما يخبئه الغد ، الى متعة تخيّل أسوأ ما يمكن أن يقع . فرأت نفسها وقد انفض جميع زبائنها من حولها فأفلست واضحت في حالة فقر مدقع ، ثم اصبحت تحت رحمة الذين كانوا يتهمونها بإيواء المجرم في منزلها . ذلك ان تلك التهمة الحمقاء التي ساهم الخوف في إشاعتها لقيت آذانا صاغية أكثر فأكثر . وبدات الاحقاد ومشاعر الحسد المتجمعة ضدها في الخفاء منذ زمن طويل جدا تنذر بالانفجار دفعة واحدة ، مثلما تنتشر جائحة الوباء بعد حضانة تدوم سنين عدة . فكم حاقت بها البغضاء بسبب المكانة التي احتلتها ، والمطعم الذي كان كل واحد يتمنى زواله ، والدراهم التي وضعتها جانبا تحسباً لأيام شيخوختها ! لكنها ظلت تؤمن بتماسك الأشياء وديمومتها وصدق الأيام وبقوتها الشخصية . فأي أمل تضعه في الحياة الآن ؟ كانت الساعة تشير الى الثامنة إلا خمس وعشرين .

أما الحد الذي بلغته فبدت لها الاشياء فيه متشابهة كلها من بعد . ولم يعد في نظرها من فارق بين أن يأتي احد أو لا . وبين أن يتناول الزبائن الحساء ساخنا أو أن يترك وشأنه حتى يبرد في آنيته . ذلك أنّ الضربات الناجمة عن الشدائد والمحن لا تعود تؤلم اذا ما تجاوزت الحد . هذا ما كانت تناقشه بينها وبين نفسها حين فتح الباب . وندّت عن يديها ، على الرغم منها ، حركة دهشة كبتتها لتوها . لقد دخل ثلاثة من الزبائن تلاهم واحد فثلاثة أيضا . قد يقول قائل إنهم كانوا خارجا ينتظرون عمدا ، وراء أشجار الساحة ، من أجل إثارة مخاوفها والثأر مما ألحقته بهم من اهانات . وشرع قلبها يخفق بشدة ، أما حين حيوها قبل أن يجلسوا فقد ردت عليهم التحية بكل مظاهر المهابة ، بل وبشيء من اللامبالاة التي تطلبت منها جهدا كبيرا .

لو انها رضخت فوضعت نظارتها لحظة من الزمن ، لشقيت بقراءة مظهر من الثقة على وجوه الزبائن لم تعرف البتة مثيلا له من قبل . كانوا يحدقون فيها دون أن يطرف لهم جفن . فهل السبب أنهم ما عادوا يخشونها أم انهم باتوا مدركين أن بصرها أمسى شحيحا . وأنها لن تلحظ على وجوههم سيماء الوقاحة ؟ بعد ذلك ببضع دقائق كانوا كلهم منهمكين بتناول الطعام . وشعرت في قرارة نفسها أنها تولد من جديد بفعل وجودهم فقط ورغم الامتهان الرهيب، الذي لحق بها لوصولهم متأخرين، فاضطرت لتقبله من غير أن تنطق بكلمة واحدة . صحيح أن عددهم ليس كاملا . حتى أن عيني مدام لوند وقعتا على الفراغ الكبير القائم في أعلى المائدة إلا أن الفرح عاد يداخلها بوجل . فما ضاع كل شيء . وامسى من العذب ، بعد الأهوال التي خاضتها ، أن ترى القاعة تستعيد مشهدها المألوف . فالنادلان يتحركان الآن حول المائدة فيرفعان اطباق الحساء بحركات مباغتة لا سبيل الى تقويمها ابدا . لكن مشكلة بدت مطروحة على بساط البحث . ولا بد من ايجاد حل فوري لها : هل تترك أطباق الغائبين في الأماكن المخصصة لهم أم ترفع وتعاد الى المطبخ؟ وأي الموقفين سوف تختار ؟ فالايعاز بترك الاطباق هو تصريح بأمل

سوف يبدو مضحكا اذا ما خاب . لكن ألن تكون الاشارة بردها الى المطبخ بمثابة اعتراف بالهزيمة ؟

احست بوجنتيها تتوقدان نارا حين خطرت على بالها فكرة الازدراء الذي ستثيره كلماتها . ذلك أنها شعرت بما ينبئها بسوء مزاج الطاعمين من غير أن تراهم بوضوح أو تدرك فحوى ما كانوا يتبادلونه من كلام . فمنذ أسابيع وهي لا تدري شيئا مما تمتلىء به حياتهم من هموم ومباهج . فهم يتوارون وسط الغموض كأنهم يغيّبون في ظلمة تزداد سماكة شيئا فشيئا ويعجز نظرها الشحيح عن النفوذ اليها . وكلما ابتعدوا عنها ليصبحوا مجهولين ، تلاشت سلطتها عليهم . فما هي حقيقة كيانها في واقع الامر ، من غير عيني أنجيل واذنيها ؟ وهل تفيدها قدرتها على الحدس الا في تعذيبها ؟ أليس استشمام وجود سر ، مع العجز عن اكتناه أدنى تفاصيله ، أشق على النفس من الجهل المطلق لدى امرىء لا يشك في شيء ابداً ؟ كانت من ناحيتها تشك في كل شيء ، لكن بحق السماء ، أليست الظلمة التامة بأفضل من هذا الخيط من نور ؟ كانت تعود بشريط مصائبها القهقرى ، تحت وطأة عادتها كعجوز تشوش دماغها بعامل السن وفعل الاشجان ، فتنسب أصغر الخيبات الى مصدر مشترك . واذا كان عليها أن تحسم المعضلة الصعبة المتعلقة بثلاثة أطباق صغيرة من الحساء ، فلأن زبائنها اتخذوا العادة السيئة في الوصول متأخرين . لماذا امسوا يصلون متأخرين ؟ لأنهم ما عادوا يحترمونها . وما هو السبب الكامن وراء قلة احترامهم هذه ؟ لأنهم اخذوا يشعرون أنهم أضحوا في مأمن من فضولها ، فطفقوا يستردون استقلالهم تدريجيا . أما أنجيل التي كانت تداهن أولئك الرجال لتنتزع منهم أسرارهم الصغيرة ، فلم يعد لها من وجود . فيا للمرارة التي تحس بها حين تنكر بأنها هي مدام لوند قد اوصلت الامور الى ما وصلت اليه بغلطتها الشخصية ! اجل ، انها تتحمل في نهاية الامر كل التبعات . لانها بالحاحها جعلت ذلك الشقي يعود الى عندها بينما كان عليها أن تركله وتطرده شر طردة . ربما فكر بجريمته وخطط لها وهو جالس هناك الى المائدة تحت قدميها ، بينما قامت

هي الحمقاء من غير أن تدري بتقديم المأكل اليه ! آه ، فلترفع اطباق الحساء هذه . ولان تسكب في قصعة الكلب أو تدلق على قارعة الطريق خير من ان تقدم لرجال !

كانت على وشك الايعاز برفع الاطباق الثلاثة اللاى حين فتح الباب ليدخل منه السيد غونسولان (غونسولان ! كان أول من يصل فيما مضى) والسيد باريزيه . دخلا بهيئة من الزهو ، وكل منهما يضع قبعته على رأسه . استولى على مدام لوند انفعال عنيف . لابد من حصول امر ما ، فهذان الرجلان لا يريدان بها خيرا . كانت واثقة من ذلك فوضعت يديها على قلبها ، كأنها تريد كبت ضرباته التي هزت صدرها . لكن لا . فقد استدارا شطرها وسلما عليها بوقار . ردت عليهما السلام آليا وقد تغضن وجهها بتأثير الخوف ، وتعرق كفاها داخل قفازيها الأسودين . هل يسخران منها ؟ علام يهزان راسيهما هكذا وهما ينظران الى الباب ؟ والاخرون ، مم يضحكون ؟ أصاخت السمع فلم تلتقط الا تمتمة تثير الغيظ . وبغتة نقزت ، فالسيد غونسولان الذي اختار مكانا له بين بلوندو وفيرديه لم يجلس بعد . السيد غونسولان ينظر ناحيتها ويتوجه اليها بالكلام .

ماذا يقول ؟ هذا الصوت الذي يتردد كأنه وسط الضباب ، ميزت فيه طابعه الخفيض بعض الشيء ، ولكنته الريفية ، دون أن يبلغها منه شيء محدد ، فلم تسمع اية كلمة واضحة . أيكون قد تعمد عدم النطق بشكل اوضح ؟ أحست بحبات العرق تتجمع حول جبينها وتسيل ببطء فوق بشرتها . فألصقت ظاهر يدها فوق حاجبيها سعيا لحماية المساحيق والحمرة التي طلت بها وجهها وخديها من المسيل الجاري الذي بات يتهددها . ثم سكت السيد غونسولان وأخذ الطاعمون ينظرون اليها منتظرين دون شك جوابا على السؤال الذي طرح عليها . تشوشت الرؤية أمام عينيها . وبدا لها على حين غرة أن القاعة غرقت في نور يفوق كل احتمال . باستثناء الثريا الغازية التي بدت وحدها سوداء . وبدأت ثيابها تلتصق بجسدها . وأوشكت أن ترد قائلة

« طيب » كيفما اتفق حين رات السيد غونسولان يحيط فمه بكفيه على شكل بوق ويصيح بها بصوت قوي ومتقطع :

ـ لا تنتظري المسيو ليون ، لانه لن يأتي !

فردت قائلة « طيّب » لانه لم يكن من كلمة سواها في ذهنها ، وقد افلتت منها مثل صرخة غم . وارغمها دوار موجع على أن تغض طرفها ، بعد أن لمحت السيد فونسولان يفرد فوطته ويجلس وسط ضحكات متعالية . لقد سقطت وانتهى أمرها ، أما ما عجز العرق عن فعله فقد تولت دموع اليأس الان انجازه ، فأخذت بكل أناة ، ترسم دربا لها داخل مساحيق التبرج وألوانه بدءا بمآقي العين وحتى زاوية الفم . وما عاد احد يلقي اليها بالا . فبات بوسعها الاستسلام للعذاب حتى تنتشي حزنا . ورأت بشكل مشوش عبر قطرات الدمع الكبرى التي كانت تتراقص على حوافي اجفانها ، اناء الازهار الصغير والدفتر الاسود ، اللذين يذكرانها بأشياء وأشياء . فأية فائدة ترتجى من الجري وراء الاوهام ؟ السيد ليون لن يأتي من بعد ؟ وسيجيء غدا دور واحد آخر . وبعد أسبوع سيتوجب اغلاق المطعم وركل القِدْر وربما الرحيل . فهي ترى بوضوح أنهم يكرهونها . وانهم سيحيلون حياتها الى جحيم . كان عليها أن تستشم المصيبة التي ستحل بها يوم سدد السيد ليون كل المال المترتب عليه . دفع لها قرابة أربعين فرنكا . قسما ، لقد استدان ذلك المبلغ من بعض الاصدقاء أو من رب العمل . وحسبت أنه مازال في قبضتها ! وها هي كقابض على الماء !

أما الآن وقد رضخت لمواجهة الحقيقة ، فقد ادركت ما يأخذه هؤلاء الناس عليها . إنهم حاقدون عليها لانها حرمتهم من انجيل . فقد ظلوا يسألونها طوال أسابيع : « كيف حال انجيل ؟ هل شفيت تماما ؟ » . وكان جوابها هو نفسه على الدوام : « لم تتحسن الى حد يسمح لها بالخروج . انتظروا . » وهل تخاطر باثارة نفورهم من انجيل باعادتها إليهم قبل الأوان ؟ صحيح أنها لم تقم بتفحص قسمات الشقية منذ وقت

طويل ، لأن الفتاة تتحجب منها مثلما تتحجب من سائر الناس ، لكنها تتذكر جيدا منظر وجهها المريع يوم حملوها الى المنزل . ولم تكن لتجرؤ من ناحية أخرى على أن توضح لزبائنها إن جمال أنجيل قد ناله التشويه . وإن نصيبها من الشفاء التام متروك للزمن . لذا كانت ترى وسيلة للتخلص ، في الحديث عن نوبة عصبية أعقبت الاعتداء . لكن ها هي النوبة العصبية قد طالت لتدوم ثلاثة شهور حتى لم يعد أحد منهم يعتقد بصحتها .

يبقى أيضا أن مدام لوند لم تكن الوحيدة التي شاهدت ابنة اختها في الحالة المحزنة التي تركها عليها الجاني . لقد كان هناك شهود . وكل من يتخيل أن ألسنتهم لن تدور بما وقعت عليه أعينهم ، إنما ينم على جهل بالطبيعة البشرية . كان يقال إذن ، وفي كل مكان ، إن انجيل اذا كانت محتجبة عن الظهور ، فلأن أخاديد جروحها باقية . وإنها أضحت دميمة الى حد يمكن أن يثير الخوف في قلوب المارة . وعبثا حاولت مدام لوند أن تقول العكس . اقد تمكنت في بادىء الأمر من إشاعة الحيرة في الراي العام . ذلك أنها كانت حتى فترة قصيرة ماضية ، ما تزال تتمتع بلسطة كبيرة . اما الآن فلم يعد يشق على المرء أن يكتشف أحابيل لعبتها . كانت العجوز التعيسة خائفة على مصير مطعمها . فطفقت تسرد ترهات آملة أن تتفادى المصيبة التي تتهدده . لكن الدليل بات قائما ، على أن ثروتها وصيتها ، وكل ما بدا واقعا في حوزتها على الأرض من موجود وراسخ ، إنما يستند على اكثر شيء في الدنيا تقلقلا وتبدلا : استلطاف عدد من الرجال لامراة . كان الجميع على علم بخفايا تلك القصة المشبوهة . وليس من يجهل ان مطعم لوند كان في حالة يرثى لها ، قبل أن تبدأ مدام لوند بتعهير انجيل . وما من شك في أن القوادة العجوز استطاعت بعدئذ أن توفر مبلغا طائلا . لكن يبدو أن العدالة الالهية لم ترضَ بتسنمها عرش وضع مزدهر ، إلا لتمدلها سقطة أكثر إيلاما وإذلالا .

كانت المرأة التعيسة تعرف أن الألسن تنوشها دون رحمة . لكنها لم تكن تخمن حدة الكلام وقسوته . ويقع في الخطأ كل من يحسب أنها جشعة . لأنها ، وبعد كل حساب ، خسرت مالا أكثر مما كسبت من نظام الطعام بالدين ، على النحو الذي اعتمدته . أما الطريقة الفوضوية التي كانت تمسك بها دفتر حساباتها ، فتنم على فكر يتغلب فيه الوهم والخيال على الحس بالوقائع . كانت تبدو دقيقة . لكن دقتها لا تتعدى تسجيل عدد الوجبات التي يدين لها بها كل واحد من زبائنها . وتحل نهاية الشهر لتسجل على الدوام عجزاً يتراوح بين عشر فرنكات وخمسة عشر فرنكا . فهل كانوا يسرقونها ؟ هل كانت تنسى أن تدون كافة نفقاتها ؟ إلا أنها لم تلق بالا لذلك التبذير الذي كان ينبغي أن يقلقها . فقد قالت في نفسها إن من يدير أول مطعم في المدينة ، لا بد أن يتدبر أمره في نهاية المطاف . ويضيف صوت قائلا في ذلك الجزء الغامض من ضميرها . حيث تختبىء أشياء كثيرة فلا تبوح بها : « لا سيما حين يكون لديه فتاة حسناء مثل أنجيل ، يضعها في متناول الزبائن . »

لكن هذا السند سلب منها على حين غرة . فالدار بدأت تنهار لأن رجلا معتوها ضرب أنجيل على وجهها . فيا الشراسة التي ابداها تجاهها القدر ، ويا للحقد على ما ينعم به البشر من طمأنينة ! يا ليتها كانت تستطيع تلاوة الصلوات على نحو ما تقوم به العجائز المتزمتات في كنيسة سان جود ، لطرقت بلغطها وتخريفها سمع الله الذي يسمح بكل تلك الأهوال ! ويقودها تفكيرها الى فتاة في مقتبل العمر قد جرى تشويهها ابدا . أما المرأة الصالحة التي آوتها في بيتها فترى نفسها مهددة بفقدان كل ما تملك ، وذلك دون شك جزاء ما قدمته رحمة وإحسانا . فهاكم ، هاكم ما يدعى بالعناية الالهية !

لا ريب في أن مدام لوند قد فكرت في كافة الوسائل الكفيلة بانقاذ وضعها المهدد . فما هو فحواها ؟ وسيلتها أن تجعل زبائنها يتجملون بالصبر الى أن تتحسن حال أنجيل تماما وتستعيد جمالها الضائع . اما وهم في حاجة لفتاة ، فهل من الصعوبة بمكان العثور على واحدة فتية

حسناء تقبل القيام بدور البديلة ؟ إنهم بأمس الحاجة للتنافس على نيل حظوة لدى صبية جميلة . لقد عودتهم انجيل على ذلك النوع من الخصومة الغرامية . ويبلغ غرورهم اقصى مداه في تلك الحرب الصغيرة الشرسة التي يخوضونها منذ زمن طويل . فهل يهوون وشايات بعضهم بالبعض الآخر ، ونصب المكائد وإثارة الغيرة . وهل للهوى في واقع الأمر من متعة تفوق في حدتها متعة الايقاع بالخصم ؟

واحدة فتية حسناء ... لقد امعنت مدام لوند بحثا ، وقامت بحملتها متخذة كل ما يلزم من حيطة ، لكن دونما كبير أمل : فالأقدار لا تسوق إليك بيتيمة فائقة الحسن والجمال مرة تلو مرة . وليس بوسع واحدة متهتكة من غانيات شانتيليا أن تحل محل انجيل . حددت مدام لوند اختيارها في نهاية المطاف . كان اختيارا غريبا وقد يكون مباغتا . وهي لم تنتبه إليه من فورها ، رغم أن فكرته كانت تراودها منذ وقت طويل .

كان عليها كمهمة أولى أن تختبر نوعية الطعم الذي نوت أن تقدمه لزبائنها . وفي سبيل هذه الغاية بعثت بفرناند الى الصيدلي في شانتيليا ، المسيو دومين . وقد أضحى معلوماً أن النتيجة جاءت على أحسن ما يرام ، وأن مدام لوند شعرت لدى نجاح تلك التجربة الأولية بأنها تعود للحياة من جديد . بيد أن فرحتها لم تطل : فالمسيو دومين ناهز الستين عاما ، ورغبات المرء في مثل تلك السن بسيطة جدا ، حتى ليصعب على امرأة عاقلة أن تخرج منها بنتيجة عامة . وأعادتها تلك الفكرة الى قلقها مجددا .

ترددت في أن تعرض فرناند على زبائنها . سوف تبدو مثار هزئهم وموضع شكوكهم لو جاءت تسألهم إن كانت لديهم من رغبة في بنت صغيرة ترافقهم في نزهاتهم . فالبعض منهم أضحى معبأ ضدها ، مثل المسيو غونسولان على سبيل المثال . وبوسع اثنين أو ثلاثة من الحاقدين على شاكلته أن يستغلوا الفرصة ليشيعوا عنها في المدينة تلفيقات مروعة حتى

ليمكنهم أن يشوا بها . ثم كيف لها ، من جهة أخرى ، أن تفوض أمرها الى فتاة رعناء مثل فرناند ؟ وهل تدرك هـذه على الأقل كنـه ما هو مطلوب منها ؟

بعثت المعلمة بالبنية الى عدد من زبائنها ، من بعد ارسالها الى المسيو دومين ، متعللة بذرائع واهية من شأنها أن تدلهم على القصد . لكنهم بدوا كأنهم لم يفهموا ، أو أنهم كانوا يخشون بدورهم أن يتورطوا في فضيحة مشينة . وسعت مدام لوند عبثا لأن تسبغ على الفتاة مظهرا لائقا جدا . كانت تتوالى بنفسها تمشيط شعرها ، وتدربها على التبسم برقة . كان هنـاك جانب من البراءة القصوى تحت مظاهر صارخـة ووقحة ، يقابله جانب آخر يتجلى فيه الجبن وعدم المبالاة .

رأت مدام لوند نفسها أمام مشروع خطر ، يحسن بها الا تصر على التمسك به . سوف تدع الأمور تأخذ مجراها بنفسها . وذات يوم ، قد تراود أحد أولئك السادة فكرة الاهتمام بفرناند على نحو تلقائي . ليس على مدام اوند حينذاك إلا أن تتصنع الغباء وتغمض عينيها ، على نحو ما فعلت يوم بدأ المسيو ليون يحوم حول أنجيل .

لكن الوقت أخذ يمر . وإذا كان ينبغي انتظار فرناند حتى تنضج ، وانتظار أنجيل حتى تستعيد جمال محياها القديم ، فان مطعم لونـد سيصاب بالافلاس ، ويجعل كل تعاون بين مدام لوند وهاتين الفتاتين دون جدوى . إيه ! الا ليتها كانت أصغر سنا من الآن بثلاثين عاما ، بل بخمسة عشر ! لو كانت أصغر بخمسة عشر عاما لتدبرت أمرها بكل يسر : اصغر بخمسة عشر عاما يعني ان تكون في الأربعين تماما . عندها كانت ستتصرف تلك القاصر فرناند دونما أسف ثم تلحق بها تلك الحمقاء انجيل التي تخاذلت فتعرضت للعنف والتشويه في وضح النهار . كانت ستتصدى بمفردها ، هي مدام لوند ، لادارة مطعمين، بل ثلاثة مطاعم مثل ذلك الذي يسبب لها الآن كل هذا العناء . وتذكرت سنين عديدة مضت ، كان الرجال فيها لا ينظرون اليها من غير أن يحبسوا تنهيدة في الصدور .

ذلك أن شعرها آنذاك كانت ضفائره الغزيرة السوداء تتزاحم فوق غرتها وصدغيها . كانت ما تزال ندية رائعة اللون ملساء العارضين . كان ذلك كله يبدو لها حديث العهد وجد قريب ، حتى أن تلاشي كل تلك الأشياء الرائعة يتراءى لها الآن مثل كابوس سوف ينتهي قريبا . لكن عقلها يتدخل دونماتأخير ليزيل ذلك الأمل الكاذب : ما الكابوس إلا حقيقة واقعة . لقد اضحت عجوزاً دميمة ومقعدة . فكل خطوة تخطوها تكلفها تأوهة وتغضنا في الوجه . أسنانها غدت متسوسة تنذر بضرورة اقتلاعها . صوتها أضحى متهدجا وشعرها يتساقط خصلا خصلا . البصر غشي منها وسمعها بات ثقيلاً ولم تعد الحياة راغبة فيها .

اخرجتها من أفكارها تلك قرقعة قوية للكراسي المزاحة فنفزت . انتهى الطاعمون من تناول عشائهم . قد تكون هذه آخر وجبة لهم هنا. لقد لبثت على مدى نصف ساعة جالسة أمامهم ، تحدق في تلك المجموعة من الرجال فتلمحهم كأنهم وسط الضباب ، فهي لم تنتبه مرة واحدة الى ما كانوا يفعلونه أو الى أين انتهوا في طعامهم . وها هم يهبّون بغتة واقفين ليسددوا ما عليهم وينصرفوا . وراودتها الرغبة في أن تنهض هي أيضاً لتلوّح بيديها على نحو ما يفعله ممثل على خشبة المسرح يؤدي دوراً تراجيديا ، وأن تطلق صرخة كخاتمة لمشهد درامي، حتى لا تحتبس لفترة أطول حزنا لايزال يعتمل في قلبها منذ أسابيع . إنها تود أن تعيش وأن تكون سعيدة . فما الذي يدفع بالناس لازدرائها لاسيما وأن ضميرها لا يثقلُ عليها بشيء ؟ لم لا تكون شيخوختها محترمة كشيخوخة الآخرين ؟ إنه الظلم بعينه . أما الشتائم الصغيرة التي لحقت بها والمهانات التي تعرضت لها بصمت ، والضغائن التي جابهتها على هذا النحو أو ذاك ، فيبدو أنها قد تكدست وتخمرت حقداً . ثم اختارت هذه اللحظة كي تنتش وتبدأ بالنمو . أخذ الزبائن يمرون من أمامها الآن ، واحداً في إثر واحد ، ليسددوا قيمة الوجبة ومقدارها فرنكان ونصف . فكلهم في هذا المساء يدفعون . وليس هناك من حسابات للتدقيق أو كلمات يجري تبادلها . كل ما عليها أن تبقى

ساكنة تصغي لوقع القطع النقدية على رخام المكتب وهي تتكدس بين وعاء الأزهار الفارغ والدفتر المغلق .

اندفع الدم الى وجهها مثل موجة من الغضب ، وأحست به وهو يخفق تحت بشرتها ، في عنقها وحول أذنيها ، كأنما لحثها على الدخول في معركة والدفاع عن نفسها . ومع ذلك فقد ظلت صامتة ساكنة . كانت ترى الى القطع النقدية وهي تتدحرج فوق المكتب ، من غير أن تقوى يدها على التحرك ، أو يقدر فمها أن ينفتح . أما تلك الوجوه الماكرة أو الساخرة التي تمر من أمامها ، فهي لم تكن لتراها . فاختلط كل ما هو واقع تحت ناظريها وغرق وسط ظلمة متعاظمة تتراقص فيها الثريا . وشعرت أن كل واحد من أولئك الرجال يلبث أمامها ساعة يزدريها .

وبدؤوا ينصرفون . سمعتهم يتمنون لها ليلة سعيدة من غير أن ترد عليهم .

أما وقد دقت ساعة الحائط فوق رأسها معلنة التاسعة فقدامسكت بدفترها بحركة آلية ووضعته داخل احد الدروج . كان النادل يطفىء الأنوار . فنهضت وغادرت القاعة بالمشية المتزنة التي علمتها إياها الشيخوخة . أما حين بلغت أول الدرج فقد وضعت نظارتها ، وشرعت ترتقي الدرجات ، وكل واحدة تئن من وطء حذائها الواسع . كان مصباح غازي مضاء في الطابق الأخير ، ينشر شيئاً من الضياء فوق رأسها وكتفيها ، ليعكس على الجدار ظلاً هائلاً وباهتاً فيبدو كأنه يمازحها مزاحاً مشؤوما .

كانت تصعد دونما استعجال فتلهث قليلاً ، وهي حريصة على التثبت من وضع قدمها فوق الدرجة التالية . وحين بلغت الطابق الأول وصارت أمام باب انجيل ، توقفت كأن إلهاماً مباغتاً قد جاءها ، ودقت الباب بقبضتها دقة قوية . ولم يأتها الجواب بسرعة على نحو

ما كانت تريد . قد تكون أنجيل نائمـة . فدقت من جديد . فجاءها صـوت :

ـ ما هذا ؟

فقالت مدام لوند وهي تفتح الباب :

ـ انجيل ، أنت هنا ؟

ـ بلى . ـ فقالت المعلمة بجذل كاذب :

ـ لقد سوّيت الأمور يا بنيتي ، وقرر هؤلاء السادة أن يقبلوا بك على ما أنت عليه .

بوسعك غداً أن تخرجي . هل تسمعينني ؟

ـ أجل يا خالتي .

ـ هيا إذن . طابت ليلتك . نوماً هنيئاً ، يا صغيرتي .

* * *

- ٥ -

انقضت قرابة ساعة ومدام غروجورج واقفة على الطريق تفكر في الانصراف من غير أن تتوصل الى اتخاذ قرارها رغم أنها فقدت كل أمل تقريبا . كانت ترتجف بشدة وهي ترتدي معطفاً من فرو القضاعة أما يداها فمتجمدتان داخل كميهما . فالثلج قد تساقط طوال النهار وبدا الطريق الأبيض وهو يضفي شيئاً من البهاء على ظلمة الليل .

لم يأت من أحد . ولم يكن ذلك مفاجأة لها . فمنذ ساعات النهار الأولى وهي تقول في نفسها إن من العبث لها أن تقف على قارعة الطريق، تنتظر قدوم رجل تلاحقه الشرطة ، وقد جاء مخاطراً بحريته وربما بحياته ، تلبية لرغبة امرأة لا يحبها . إذ لم تكن تساورها من أوهام حول ما في نفس غيريه من مشاعر نحوها . وهي تتذكر بكل وضوح نظرات السخط التي لمحتها في عينيه مرات عديدة . وتعلم حق العلم أنها في نظر تلك النفس المستعبدة تمثل الغنى وكل ما يصحبه من أوزار . إلا أنها ستمضي رغم ذلك لتقف في المكان الذي حددته . وعبثا يقول لها عقلها إنها ستضيع وقتها سدى . لكن متى كان العقل سيد الموقف في ساعات الحياة الحاسمة ؟

هذا ، وكل ساعة اضافية تمضيها داخل البيت ، تعني مزيداً من الغم ونفاد الصبر والاشمئزاز ، حتى لتوشك أن تفقد صوابها . فكلما تفكرت في نظام الأشياء الذي لم تقبل به ، وكيف حدد لها مكانا خاصاً بين تلك الجدران وقطع الأثاث والتحف ، استبدت بها سورة من الغضب ، تزداد عنفاً مع معرفتها الأكيدة ، أن كل تمرد ليس وراءه

من طائل . ولم يكن التعود مجديا . فهو لم يروضها . ولاتزال بعد سنين عديدة من الزواج ، أشبه ما تكون بوحش لم يستطع الإذعان لوقوعه في الفخ . وظل يدفع براسه المذعور قضبان القفص ، كأن عليها أن تنفرج ذات يوم بمعجزة .

كانت قد خرجت في اليوم السابق دون أن تدري أين وجهتها فضربت في البرية وهامت لتبلغ أحياناً حد البكاء إعياء، ولتحملها أحيانا أخرى فكرة سعادة محتملة ، قد يخبئها لها الغد كإحدى العجائب . فتودع ثقتها كلها ، بسذاجة طفلة ، في مستقبل فوري ، رغم أن هذا المستقبل يكذب يومياً وعود الأمس . فتغفر كل شيء للقدر المسؤول عن ماض بلا بهجة ، وحاضر كله تعاسة ، على أن يدع لها ذلك الإيمان المحموم الذي يعمل على تناقل الأيام فيسلم الأحد للاثنين ، والاثنين للثلاثاء ، وهكذا دواليك الى أن يأتي يوم يضعونها فيه داخل تابوت أسود . ويحكمون الإغلاق عليها ، وعلى الأطوار الشاذة لقلبها التعيس.

رجعت منهكة من تعب رمى بها فوق سريرها من غير أن يمنحها النوم . فأعصابها المتوترة تأبى الاسترخاء . وصمت الليل ملىءبأشكال الحفيف . والظلمة الحالكة تخترقها بقع كبيرة تشع ضياء فتعجز اجفانها المغلقة عن حمايتها منها . قامت أخيراً فأضاءت المصباح وجلست قرب النافذة ، على أمل أن ترى السماء من دقيقة لأخرى ، وقد بدأت تنجلي من وراء أشجار الحديقة . ودخلت في صراع مع نفسها فصارت تؤخر لحظة النظر الى ساعتها . وتمني النفس بوقت يتقدم ساعة عما كانت تخمنه فتسعدها المفاجأة . ثم أبعدها الإحساس بالبرد عن موقعها ، فعادت الى دفء السرير ، واطفأت المصباح . واخذت تعد حتى مئتين . ثم أشعلت عود ثقاب لتجد ، وهي تتنهد خائبة ، أنها قد اخطأت بساعة كاملة ، وأن وقت العناء مازال أمامها طويلاً لا ينتهي .

باغتها الفجر وهي بكامل ملابسها ، واقفة عند النافذة ، شاحبة الوجه ، غائرة العينين . فمثل تلك الليالي تقودها نحو الشيخوخة

بأسرع مما يفعله الإعلان عن مصيبة كبرى . أما الآن وهي ترى النجوم قد بدأت بالأفول في أعماق السماء ، وترى الدرب وهو يتراءى من وسط الظلمة ، فقد اخذت تسترد شجاعتها شيئاً فشيئا ، كأن داخل ذاتها يطلع النهار. رأت نفسها كأنها قطعت فراسخ عديدة وانها أضحت عند نهاية مرحلة شاقة.بقي امامها عبور فترة صباحية وفترة مسائية. لكن الدرب غدا اقل وعورة . وهناك ألف تسلية تقلل من طوله . بيد أن اياماً من مثل ذلك اليوم كانت تجعلها تشعر بفراغ وجودها . فمن بعد أن تصدر الأوامر المعهودة للخدم ، وتفتح كتاباً ثم تغلقه ، وتحلل بتراخ رموز صفحة من الموسيقى ، تكون قد استنفدت كل ما في جعبتها ، لتغوص من بعد في لجة ذلك السأم الرهيب الذي يعتبر لعنة الأغنياء. لقد تلاشى أول امل للصباح : فبعد أن تمنت بزوغ ذلك البهاء الذي تعاظم تدريجياً من فوق رؤوس اشجار الزيزفون ، أضحت الآن لا تني تتلهف على قدوم الليل ، ليلفها بوشاحه من جديد . ويا لعذابها وهي تجد نفسها مرغمة على متابعة الساعات في رحيلها الذي لا ينتهي ، بينما كل ما فيها يثب ويود الانطلاق .

انقضت فترة الضحى بطيئة ثقيلة الحركة . وراودت ايفا غروجورج نفسها مرات عديدة بأن تخرج للتجول ، لكنها كانت تعرف كيف ستكون في حالة مهلهلة حين تعود ، إذا ما خطت خطوة خارج الدار . فهي سوف تمضي بعيدا ، وتستنفد كل القوى التي ستكون في امس الحاجة اليها بعد الظهيرة ، حين يتوجب عليها أن تكبح جماح نفسها ، وتسير على الطريق بتمهل في الاتجاه الاول ، ثم في الاتجاه الاخر ، وهي تنتظر رجلا لن يأتي . لانها كانت على يقين من انه لن يأتي . لكنها ظلت راغبة في أن تثبت لها الوقائع أنها على حق ، حين لا تعلق على الاشياء أي أمل . وقد تجد من بعد شيئا من الراحة ، حتى وهي تفكر بأن الحدث الذي تمنته بكل شغف لن يقع . ومن شأن ذلك أن يضع حدا للاضطراب الذي استولى عليها منذ أن رأت غيريه . وسوف تستأنف حياتها ، التي تشتتت لحظة ، وتحولت لحظة عن خط سيرها الاعتيادي ، نفس

المجرى الذي تسلكه منذ عشرين عاما . وقد يكون ذلك افضل ، بل اي شيء افضل من ذلك الغم وذلك الخفقان في القلب وذلك التناوب ما بين الفرح والقلق .

كم يشق عليها ان تقول ما الذي تأمله من حديث يدور بينها وبين غيرابه . وكانت تحترز من التفكير في ذلك الامر طويلا ، بدافع من خوف متطير من أن يؤدي توقعها المسبق الى منع الاشياء من أن تحصل . وكم لاحظت من مرة أن المستقبل يتغير مظهره دوما حين يتحول الى حاضر ، اما بعطاء يقصر دون ما كان يؤمل منه ، واما بالوقوع في خطأ حول نوعية السعادة المرجوة . وتكون الحصيلة كومة من الاشياء البائسة بدلا لما قام الخيال بنسجه . أليس من الحكمة اذن الالتزام الكلي بالصمت ، وقبول ما تحمله الساعات في طياتها من سأم أو متعة بكل طاعة ، دون التصرف مطلقا بسأم الغد ومتعته ؟

بيد أن القبول متعذر عليها . فالقبول يعني الموت . فكان يستحيل عليها مثلا أن ترضخ للمحنة اليومية المتمثلة في تناول وجبات الطعام مع زوجها . فهذا الزوج هو الاصل في كل ما تحمله للكائنات من ازدراء وهي تبغضه بغضا مهر قلبها وهيمن على حواسها . فالاضطرام قائم في رأسها حصرا . حتى انها لم تستوعب تلك الاغراءات التي لم يخضع لها جسدها . وكان أن أعطتها العفة ثمارها وهي في الخامسة والاربعين من العمر ، فحملت اليها هديتها المفزعة المتمثلة في عشق متأخر لا طائل وراءه . واضحى الفكر لدى هذه المرأة التي اساء قدرها معاملتها ، يثار من كل ماعداه .

كان المسيو غروجورج يمثل في نظرها صورة الشراهة البشرية في أحط شكل لها . فكل حركة من حركاته ، وكل نأمة تصدر عنه ، تثير وتغذي في نفسها مقتا متزايدا ابدا . فذلك الوجه الممتلىء الذي يضج سعادة ، وذلك الجسد السمين الذي لم يعبأ بالمرض قط ، والذي اترعته الحياة بملذاتها ، لا يستخدمهما القدر حسبما يتراءى لها الا

للاستهزاء بها وبعذابها ، بها وبالجوع المتصاعد الى رأسها ليسبب لها الـدوار .

كلما تفكرت فيما كان مهيأ لحياتها أن تكونه ، وهي تتذكر كيف جاءها شاب وسيم ذات يوم ، من بعد زواجها بوقت قصير ، فارتمى مولّها عند قدميها . وكيف صدته بدافع هو مزيج من الفزع والنزاهة في آن معاً ، وهي تغرق في الضحك ، أحست أن لديها القدرة على قتل ذلك الهرم الذي اغتصب منها شبابها وقضى الى الابد على مذاق النشوة الوحيد . وبينما كانت ذاكرتها تستعيد بدقة تفاصيل مشهد لن تنساه أبدا ، كانت تتساءل بمرارة ، وهي على بعد عشرين عاما ، من كـان اكثر مدعاة للضحك : شاب راكع أمامها ، أم هي التي صدت الهوى وقامت الان تناديه وقد أمست على أعتاب الشيخوخة ؟

لِمَ حاق بها ذلـك الظلم كله ؟ وهـل تعاني النساء الاخريات ويشقين مثلها ؟ وما فائدة الثروة والجمال ان كانت ستبقى محرومـة من السعادة ؟ لقد اكتشفت أخيرا أن الذي مقتته وازدرته ، أن الحب اياه قد اشتهته طوال حياتها . لو انها عرفت ، لو أن احدا قال لهـا ، لو أن احدا قام بأصغر عمل بر واحسان نحو مصيرها ، لكان بوسعها أن تتذوق السعادة ، ولكانت في وضع أفضل على كل حال . امـا عن قسوة قلبها فهي تعرف الحركة بل النظرة التي تسببت في ذلـك . وتعرف أن هذه الكلمة فعلت في نفسها ما لا يفعله العنف الذي تشعر نحوه بالهول . لقد كرهت الطفل ، كثمرة لحالات القهر التي تعرضت لها ، منذ اللحظة التي أحست به يتحرك داخل احشائها ، ورافق حقدها عليه سني طفولته الاولى ، فكانت تمتلىء نفسها وهي تعاقبه بلـذة الثأر الآلام التي أصابتها من ولادته ، وأدامت تعنيفه حتى جعلت منه عبدا صغـيرا ينوء تحت نير الخوف ، وقلبـه ممتلىء ضغينة . كانت متحجرة العاطفة وما كانت لتجهل ذلك ، الا انها لم تكن قادرة علـى الاحساس بما يمكن لمثل هذه المعرفـة بالذات أن تسببه مـن تأنيب

الضمير لدى امرأة اخرى . ولديها على كل حال من الاعذار ما يكفي لتبرير موقفها ، في نظرها هي على الاقل . انها بطبيعتها أشبه ما تكون بأرض قاحلة وعصية ، لم تهبها السماء نعمة الغيث ، فلا تخرج من نبات الا ومعه عشب سام يمتزج به على نحو ما . فالمشاعر الاكثر بساطة تنحرف عن مسارها ، وكل بهجة تمسي مشبوهة ، وكل حنان يتسرب اليه الفساد من منبعه . كانت في انفصامها عن كل نعميات العالم لا بدافع من فضيلة ، بل لان تعاستها تحول دون تمتعها بها ــ رغم استهجانها لفكرة سعادة لا يكون للحواس فيها من نصيب ــ تستهلك قوتها وحياتها وسط الضحالة ، وتسعى ، وهي تأكل بعضها وراء سكينة تأبى أن تفيئها **بظلها** .

يسبغ لمس اعماق اليأس على النفس ارتياحا غريبا ، ويمنح الشقاء الاقصى نوعا من الطمأنينة . فيغدو ميناء نعمى للروح الغريقة التي لم تعد تجرؤ على الايمان . ومثل هذه الاستغاثة الاخلاقية هي الملاذ الاكثر أمنا ، ومثل ذلك الاستسلام هو الراحة . أليست من أجل هذا تتجول على الطريق وقد تجمدت أطرافها على الرغم مما يغطي جسدها من فراء ، وهي في لهفة لبلوغ الساعة التي ستنقذها من اضطرابها وتعيدها الى يقين مصيرها ؟

اما الآن وقد حل الليل ودنت اللحظة الموعودة ، فما نفع هذه الدموع التي تسيل على خديها ، وتلك التنهيدة الخفيفة الموجعة التي حرصت على خنقها داخل كميمها ؟ كانت أنانية وقاسية لكنها جريئة على الاقل . وقد تستسلم لما تخلّفه تلك الانفعالات من تعب . سوف تعود بعد هنيهة الى بيتها وتصعد الى الصالة . فتخلع معطفها بحركة هادئة ، وتزيد النار وقودا . ثم تجلس فتقرأ أو تعزف على البيانو الى أن يأتي من يقول لها ان العشاء جاهز .

نظرت الى ساعتها . انها السابعة وعشر دقائق ، بل السابعة والربع تقريبا . المسألة واضحة . لن يأتي . لقد ساوره الخوف وهذا أمر طبيعي وانتظرت ايضا دقيقتين أو ثلاث ، كنوع من تبرئة الذمة ، ثم توجهت نحو الدارة .

سمعت على الفور تقريباً قرع الجرس الذي يعلن عن الزيارات : كان احدهم عند الباب الحديدي المشبك ، وقد قرع الجرس لتوه .



- ٦ -

ـ هذه انتِ ! ماذا تفعلين هنا يا انجيل ؟

ـ يا ألهي ، اقد أخافتني سيدتي !

ـ من الذي تودين رؤيته ؟

ـ جئت أطلب عملاً من سيدتي .

ـ يا لهذا النبأ ، اقد قررنا(١) أخيراً أن نعود الى العمل ! لكن لا تختبئي على هذا النحو يا ابنتي . يبدو لي انك كنت أكثر وقاحة فيما مضى ، أليس كذلك ؟

ـ كلا ، يا سيدتي .

ـ بلى ، يا سيدتي . اي نوع من الاعمال تطلبين ؟

ـ اي نوع كان ، يا سيدتي ، شيئاً من الخياطة .

ـ الا تريدين إذن أن تعودي الى المصبغة ؟ صحيح اننا(١) رأينا اسمنا مطبوعاً في الصحف ، فلا يسعنا أن نتواضع من بعد الى مستوى إيصال الغسيل الى الزبائن في المدينة ، أليس كذلك ؟

ـ لعلّ سيدتي تتحلّى بالشفقة .

---

١ ـ هذه الصيغة في الكلام تعني الاستهزاء والازدراء . (م)

ـ الشفقة ! لا ينقصني إلا أن تعطيني درساً في الأخلاق ! بل قد تحسبين انتني لم أكن مطلعة على ما كان يجري هنا في بيتي .

ثم سمعت وقع خطى خادم جـاء ليرد على قرع الجرس ويفتح الباب فصاحت به بلهجة جافة :

ـ لا داعي لأن تفتح ، يا جان . قل لسيدك إنني سأتخلف بضع دقائق عن موعد العشاء .

توقفت الخطى وعادت أدراجها . فاستدارت هي نحو انجيل بنوع من النهم الذي يظهر على وحش أمامه فريسة . وتحركت في داخلها على نحو مباغت ، طاقة جديدة لرؤية الفتاة التي أحبها غيره ، فلاحقها وضربها . ويا لتشفيها ، وهي تصب بدورها كل حقدها ، على رأس تلك المرأة المهانة ، وتثأر من كل ذلك الحب الذي كان موجهاً إليها !

ـ لم أعد أسمح بدخول أي امرىء كان الى بيتي ، كما ترين . لقـد تغاضيت أكثر مما ينبغي عن السفاهات التي كانت ترتكب تحت سقفي . لكن تفضلي الآن وارفعي هذا الخمار الذي يغطي وجهك ، ثم انظري إلي نظرة مباشرة .

ـ لا أستطيع ، يا سيدتي .

ـ لا تستطيعين التحديق في وجهي ؟ لا أستغرب ذلك . سـوف تقومين ، على كل حال ، بالكشف عن وجهك . وإلا فسوف أدخـل وأحظر عليك دخول بيتي من بعد .

ـ ليت سيدتي تصغي إلي لحظة . فقد جئت لأتحدث إليها في ذلك الشأن بالضبط . وسوف تدرك سيدتي وهي تراني أنني لم أعـد بقادرة على الظهور علناً . لذا كنت راغبة في أن أطلب من سيدتي ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ هيا ، قولي . ما حقيقة الأمر ؟

ـ لم أعد أستطيع العيش هنا . يجب أن أرتحل عن لورج . سأذهب الى أي مكان ، حتى الى باريس . انني شقيّة الى أبعد حدود الشقاء .

ـ يا لها من فكرة . لكن الناس كلّهم تعساء . ولو كان على المرء أن يرتحل كلّما وجد نفسه تعيساً ، لحققت شركات السكك الحديدية ثروات طائلة . أنت ما زلت طفلة . هيّا انزعي هذا الخمار ، وتعوّدي منذ الآن على الظهور في الشارع . سوف تنسين كلّ هذا في غضون أسبوع .

ـ ذلك أن لديّ حاجة يستحيل أن اطلبها من سيدتي .

ـ لا بأس . هيّا ، قولي بسرعة .

ـ لو تكرّمت سيدتي واقرضتني شيئاً من المال .

ـ شيئاً من المال ؟ وما حاجتك به ؟

ـ من أجل أن أرتحل .

ـ لقد تلبّستك الفكره . قلت لي قبل قليل إنك جئت تطلبين عملاً . كنت إذن تكذبين ؟ من هو الذي جئتِ ترينه هنا ؟ أنا أم المسيو غروجورج ؟ إنّني انذرك بأن تقولي الحقيقة من أجل مصلحتك .

ـ لكن سيدتي لن تصفح عني .

ـ إنّما جئت إذن ارؤية المسيو غروجورج ، من أجل أن تبتزّي منه شيئاً من المال ... انا واثقة من ذلك . وكنت تنوين أن تتغنّجي أمامه ، مثلما كنت تفعلين من قبل ، اليس كذلك ؟

ـ إنني أقسم لسيدتي ...

ـ أستنتج إذن انه ما يزال لديك شيء من الحسن الذي كنت تتباهين به كثيراً . هيا نرَ ذلك .

ـ هل يسمحني على الأقل أن أعقد الأمل على أن سيدتي سوف تتكرم وتساعدني ؟

ـ إنها مساومة ؟ هذا مستحيل ! فإما أن تطيعيني وترفعي هذا الخمار على الفور ، أو نفترق منذ اللحظة . وأحظر عليك في هذه الحال أن تقرعي على هذا الباب من بعد . أما عن المعونة التي تطلبينها فسوف نرى . فأنا لا أعدك بشيء .

ـ إنني مستعدة لأن أطيع سيدتي .

ـ لا بأس . هيا ، حلي عقدة هذا الخمار .

ـ هذا ما أفعله . هاك .

ـ لكنني لا ارى شيئاً . لا شيء ابداً . هلمي نحو ذلك المصباح .

ـ لو تجرات قليلاً لطرحت سؤالاً على سيدتي ... لِمَ هي راغبة في رؤيتي ؟

ـ لم اعتد على أن يستجوبني أحد ، يا ابنتي .

ـ ذلك انني اتساءل ما إذا كانت سيدتي ستصاب ... بالفزع .

ـ انت تحسبينني امرأة هشة . لو كانت حدود مصائبي تتوقف عند الأثر الذي تخلفه ضربة عصا على الوجه ، لكنت راضية عن الحياة على نحو مغاير .

ـ قد تتذكّر سيدتي أنّ لون بشرتي كان متورّداً دوماً ، لذا فإنّ الندوب تظهر بشكل واضح في مثل هذه الساعة من المساء . فالضربات انتزعت حاجباً بكامله .

ـ لا تطيلي الحديث وارفعي رأسك . هل نويت أن تطيعيني أم لا ؟ احذّرك من انتني أزدري الدموع . هيّا ، ارفعي رأسك وانظري الى المصباح . طيّب ... لقد رأيت . إنّ الوضع أقلّ بشاعة مما كنت احسب . فالناس يغالون كثيراً ! ما من شكّ في أن التأديب قد نفّذته يد حازمة . فبعد عدة سنوات من حياة الفجور ترتّبت عليك ديون ، وكان لا بدّ من تسديدها ، يا ابنتي .

ـ هل تعتقد سيدتي أن هذه الندوب سوف تنتهي بالزوال ؟

ـ كلا .

ـ كلا !

ـ ما بك ؟ يبدو أنني ارميك بطلقة الرحمة . كنت تمنّين النفس بزوال كل ذلك ؟ دعيني أوجّه إليك نصيحة مفيدة : لا تاملي شيئاً ، لا تأملي أبداً . كنت مثلك ساذجة ، قبل وقت قصير . أمّا الآن فقد شفيت .

ـ لكنّ سيّدتي تدرك انه لم يعد يسعني الظهور في لورج وانا في هذا الحال .

ـ ولم ذلك ؟ غطّي رأسك إن كنت لا تريدين أن تصابي بالبرد . ينبغي الا نبقى هنا . وعليّ أن ادخل الى البيت .

ـ لم يكن في حسباني أن أقترض مبلغاً كبيراً من سيدتي . مئة فرنك على أبعد تقدير .

ـ لا ينبغي أن نعود الى هـذا الموضوع . هل لديك شيء آخـر تطلبينه منّي ؟

ـ سوف أكون شديدة الامتنان لسيّدتي .

ـ لست بحاجة لامتنانك .

ـ ليت سيدتي تسمح لي على الأقل بأن أطلب من سيّدي .

ـ من سيدك ! لقد طفح الكيل ! لا بد أن تكوني قد فقدت صوابك . فالسيد أولاً لن يرضى بأن ينظر إليك ، ووجهك على ما هـو عليه . فالسيّد لا يعرف الشفقة .

ـ سيّدي طيّب جداً .

ـ يا غبيّة ! هل تحسـبين أنك تبهجينني بقولك ذلك ؟ ليس في قلب السيد من المروءة أكثر مما في قلب هذا الباب . وأنت التي جعلته هذه الحال ، أنت وأمثالك . آه ! لا أقصد أنك أنت التي تسببت في كل ذلك ، فقد بدأ في الواقع من قبـل أن تولدي . على كل حـال . طاب مساؤك .

ـ يا سيدتي !

ـ لا تلمسيني ، أرجوك .

ـ أتوسّل الى سيدتي أن تصفح عنّي . لقد أسأت الى سيدتي فيما مضى ، وأنا أعرف ذلك ، لكن إذا لم توافق سيدتي على معونتي فسوف أقتل نفسي .

ـ طيب ، هيّا ، إنّها الأغنية الأبديّة التي يكررها ذوو النفوس الضعيفة . أنت إذن تعيسة الى هذه الدرجة ؟

ـ ليس لدى سيدتي ايّة فكرة عن ذلك . فمنذ شهور وانا أشعر انّني سأفقد صوابي .

ـ إنّني اتساءل حول حقك في كسب عطفي . لكنّي أوافق على أن افكر في وضعك ، لأبرهن الك على انّني أقل قسوة مما يحسب بعضهم . سوف أرى . غداً سيأتون لأخذ غسيلنا . وسوف أبلغك شيئاً بواسطة الصغيرة فرناند .

ـ آه ، يا سيدتي !

ـ كلا ، دعي يدي . قلت لك إنّني لا أريد أن تلمسيني . لكن لا تعلّقي على الأمر آمالاً عريضة جداً . وتذكري نصيحتي .

ـ أجل ، يا سيدتي .

مرّت لحظة من الصمت ، بدت مدام غروجورج متردّدة أثناءها ، فقد وضعت يدها على قبضة الباب ، لكنّها سألت على نحو مباغت :

ـ لكن ، قولي ، لِمَ لَمْ تساعدي الشرطة في تحرّياتها ؟ فأنت مصرّة على القول إنّ الذي اعتدى عليك ليس غيريه ، في حين أنّ عدّة أشخاص قد رأوكما معاً على الطريق . أجيبي . وإذا كنت راغبة في أن أهتمّ بوضعك فينبغي أن تخبريني بالحقيقة .

ـ ليس غيريه .

ـ من هو إذن ؟

ـ لا ادري ، ولم اره . فقد ضربني من خلفي فغبت عن الوعي .

ـ وأولئك الشهود ؟

ـ الشهود يكذبون .

ــ لكن هيا ! فكري ، يا ابنتي . هناك مكافأة بانتظارك ، إن قلت لي الحقيقة . وإلاّ فسوف نفترق على الفور ، وعليك بعدئذ أن تفقدي كل امل في استدرار عطفي أو حتى في دخول بيتي . لماذا لم ترغبي في الابلاغ عن الذي اعتدى عليك ؟

ــ هل يسعني أن أتأكد من أنّ سيدتي لن تقول ذلك لأحد ؟

ــ ومن تحسبينني ؟ وهل ترينني أشبه من يشي بسرّ ؟

ــ طيّب ، لم ابلّغ عنه لأنّني كنت خائفة من انتقامه . وحتى لو القوا القبض عليه فإنّ بعض السجناء يهربون . فهل من يضمن لي عدم عودته الى هنا لكي يقتلني ؟

ــ آه ، آه ، آه !

ــ يا إلهي ، هل تجد سيدتي الأمر مضحكاً جداً ؟

ــ اجل ، فخوفك هو الذي يضحكني . وليس من شأنه أن يرفع من قيمتك في نظري . لكنك لست مختلفة عن الأخريات . وعلى هذا الأساس ، فإنّه غيريه إذن ؟

ــ أتوسّل الى سيدتي ألاّ تكرّر ذلك .

ــ لا تخشي شيئاً .

ــ هل يسعني أن آمل بأنّ سيدتي ستتذكّرني ، وأن فرناند سوف تحمل إليّ جواباً حسناً ؟

ــ سوف أفي بوعدي .

ــ سيدتي طيّبة جداً .

ــ سيدتك مستقيمة ، لا أكثر ولا أقل . اما الآن ، فطاب مساؤك .

ــ طاب مساؤك ، يا سيدتي .

- ٧ -

أصغت لوقع خطى مدام غروجورج وهي تسلك ممشى الحديقة الرئيس ، ثم انتظرت هنيهة أمام الشبك الحديدي وكأنها تعتقد أن تلك المرأة القاسية الصلفة سوف تطل بعد ثوان معدودات ويداها ملأيان بالأوراق النقدية . وهبت ريح صرصر فعقدت أطراف الوشاح الأسود الذي يلف رأسها تحت ذقنها واستأنفت سيرها نحو المدينة .

قالت في نفسها : « لم أش به . الكل يخمن أنه هو الذي هاجمني ، لكنها وعدتني بألا تقول لأحد . »

ومهما تكن درجة ما تكنه من حقد على مدام غروجورج في واقع الأمر ، فانها تتبين في طبيعتها الباردة والعنيفة ، نفورا من الغدر يبعث الطمأنينة في نفسها . لكنها شعرت بالغبطة من ناحية أخرى لأنها لم تقل لها الحقيقة بكافة جوانبها ، ولأنها سكتت عن الأسباب التي منعتها من الابلاغ عن المعتدي . وهل في العالم روح واحدة قادرة على أن تفهمها ؟ وما همها إن اعتبرتها مدام غروجورج خوافة ؟ بوسع تلك المرأة الغنية الوقحة أن ترغمها على الاجابة عن طريق التهديد بحرمانها من المساعدة ، لكنها غير قادرة مع كل ما تملكه من ذهب على أن تنتزع منها السر الذي تخبئه في صدرها . فانتابها ، رغم اليأس ، شعور بأنها خيبت أمل عدوتها ، فخفق قلبها طربا .

لا ريب في انها قصدت لأن تقابل المسيو غروجورج . كان في نيتها ان ترتمي على قدميه وأن تقبل يده الكريهة . لم يبد لها أي هوان صعبا جدا أمام ضرورة حصولها على المال من أجل أن تهرب فصبرها قد نفد في

ذلك المساء . لقد عاشت كل حياتها في لورج . أما الآن فلم تعد تجد في نفسها القدرة على العيش فيها يوما واحدا . وبدأت تعد الساعات على نحو ما يفعل المرء قبيل سفره وتنزعج من بطء الوقت . من غير المجدي أن تتفكر في مشاريع المستقبل ، فهمها الأساسي ينحصر في مغادرة هذا المكان . لأن كل حجر فيه وكل وجه ، يذكرها بمصيبتها . كان بمقدورها أن تفعل أي شيء من اجل أن ترتحل . لقد وعدت مدام لوند بأنها ستستأنف حياتها السابقة . وكانت على استعداد لأن تعفر جبينها أمامها لو كان ذلك قمين بأن يؤمن لها المبلغ اللازم . فكل ما فعلته الشهور الثلاثة التي امضتها منحبسة في غرفتها ، أنها هدهدت مخاوفها . لقد بقي لديها شيء من الأمل ، طوال بقائها معتكفة بين سريرها ونافذتها ، واذا لم يكن أملا في شفاء تام ، ورؤية وجهها يستعيد حسنه الأولي ، فقد كان على الأقل أملا في أن تكون مبالغة في خوفها من دمامتها ، وأن تظل تروق لأعين الناظرين . لذا لجأت رغم ما تحمله الأيام الفارغة من سأم ، الى تأجيل لحظة خروجها حتى الحد النهائي . فتلك هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على وهم هي بحاجة اليه من اجل ان تعيش . وما كانت لتقرر أن تضعه قيد التجربة عن طريق جولة في وضح النهار . لأن مرآتها ما كانت لتطمئنها . فاللحم المدمى انفلق من غير أن ترضى الندوب البيضاء بالتلاشي . ورغم أن القسمات لم تتغير فان الحسن قد هجرها . وما الجمال إلا آية يمكن لأي شيء أن يبددها ، ولا ينبغي للمرء أن يتأمله إلا عن بعد . إنه يزول على نحو يصعب تفسيره ، على نحو ما يصعب تفسير وجوده نفسه . ولا يمسه الانسان الا بيد تدنسه . ولقد هرب من وجه انجيل على نحو ما يهرب من مكان رجس .

تبينت الفتاة الحقيقة . فعبثا منت نفسها بأن أنفها وفمها على حالهما ، وأن الندوب لم تكن عميقة ، لأنها لم تعد تتعرف على حالها . فالوجه الجديد كان يبث في نفسها الفزع كلما رأت في المرآة نظرته القلقة الهرمة . فهل كانت تفزع الآخرين أيضا ؟ لقد اعتقدت ذلك بادىء الأمر .

ثم ما لبثت أن تمثلت ، تحت تأثير ما أصابها من وهن ، فكرة غريبة تقول إنها قد أخطأت التقدير وإن عزلتها جعلتها ترى الأشياء على نحو مغلوط . وقالت في نفسها إن المرء اذا أطال النظر الى نفسه في المرآة لا يعود يدري ما حقيقة شكله . كان بوسع مدام اوند أن تخبرها بحقيقة الأمر دون مواربة ، لكن من أين لها القوة لتتوجه الى عدوتها بالسؤال ، لتؤكد لها دمار حسنها ؟ ناهيك بأن مدام اونــد ما كانت تشعر بأية رغبــة في المساس بالخمار الرهيب الأسود الذي يحجب عنها وجه انجيل ، مثلما يحجب وجه مصيرها . فيالمصيبتها إذا كان الضرر غير قابل للاصلاح ! لقد فضلت المعلمة مجانبة عدم اليقين وقتا طويلا . لذا ترتب عليها أن تستنفد كل مصادر الأمل ، حتى تعلن للفتاة ان أولئك السادة قد قبلوا بأخذها مع ما هي عليه .

لم يخلف ذلك النبأ في نفس انجيل إلا اثرا ضئيلا . فقد اكتشفت منذ البداية ان المسألة كذبة ، كما أن موقف فرناند الصغيرة ، حين كشفت لها عن وجهها ، وفزعها وصمتها ودموعها ، قد انتزع منها كل شجاعة . لقد قرأت في عيني الطفلة ، ما باتت مرآتها عاجزة عن أن تقوله لها : إن شكلها لمثير عجب . لقد طلبت الى بنت صغيرة أن تعانقها . فامتقع لون تلك البنت الصغيرة ، وتراجعت من أمامها . بات عليها منذ الآن أن تتعود على أنها قد فقدت كل شيء . وبدأت حياة جديدة بالنسبة لها ، وهي حياة فتاة دميمة ؛ لكنها دميمة على نحو ينفر الحب . فهي لا تعتقد انها وقد أفزعت طفلة ، يمكن ان تستهوي رجلا . وأدركت في واقــع الأمر ، رغم قلة ذكائها ، أن الرغبة تخضع لقوانين عامة تقريبا ، وأن فسادا في الحواس فقط يمكن ان يتيح لامرىء ، أن يهوى وجها خلف عليه أحد القتلة اثارا ظاهرة بمثل تلك الوحشية .

استعادت رباطة جاشها على أثر أزمة الياس الأولى . فالشهور التي أمضتها في كفاح مع نفسها ثبتت من عزيمتها . وأفسحت لامبالاتهــا وفتوتها المجال ، أمام قناعة ملأى بمرارة ، تساعدها على تحمل عبء

الايام . وغدت الآن تعرف نفسها على نحو افضل . فكل ما كانت تطلبه من عزلتها ، هو أن تكون في معزل عن الحقيقة . أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا . لقد كشفت عن وجهها أمام فرناند ، من أجل أن تعرف الأسوأ ؛ وتطرد من قلبها آخر الأوهام التي كانت متشبثة بها . وكان ذلك شكلا من أشكال التحرر . فما من شيء يعذب المرء ويستعبده ، مثل الأمل في سعادة ارضية . تبين لها ذلك بعد أسابيع طويلة فارغة ، يأتيها فيها كل نهار بالأحزان نفسها . تعلمت وهي قرب نافذة غرفتها العالية ، ورأسها ملفع بخمار ما عاد يفارقها ، كيف تطأطىء كبرياءها ، وتخمد لهفة انتظارها . اما الساحة الصغيرة التي كانت تراقبها فيما مضى بعيون نهمة ، فلم تعد تثير فيها اي دافع فضولي ، ولم تعد تلقي نظرة عليها إلا فيما ندر . فهي تعرف أشجارها المغروسة على شكل مثلث حق المعرفة . وتعرف الحجارة غير المتساوية والمقاعد الخشبية النخرة . وتوحي لها تلك المساحة المحدودة بخشبة مسرح ، لا يقدم عليها من عرض ابدا .

كانت وهي منهمكة بترقيع الملابس التي تكلفها بها مدام لوند ، ترخي العنان لفكرها ليسلك مساره الطبيعي . فتلك الروح التي اجتاحتها الحسرة على ما فقدت ، ظلت تعرف بهجة بعينها . وهي بجهة غريبة تعتادها احيانا فتجعلها ترتعد هلعا . إنها البهجة في ان ترى أي درك من العمق بلغ بها الانحطاط . هناك شيء كان يتشبث بها ، بل ويروق لها احيانا ، وسط نزوة القدر المرعبة حيالها ، وفي مصيبتها المباغتة . وكانت تتوقف طويلا حيال فكرة التغيير الذي شهدته يطرأ على حياتها . فتقارن أسى حرمان الحاضر بأحلام الماضي الشهوانية . وتثوب من ثم الى رشدها على حين غرة ، فيجتاحها الالم اجتياح موجة عارمة . فأين هي ؟ وبم تفكر ؟ وماذا دهاها لتستلطف الشناعة ؟ حينئذ تتراءى لها برودة الموت وقد هبطت على كتفيها ثم أحتوتها من كل جانب .

كما تعتادها احيانا أخرى أفكار مغايرة تماما ، تأتيها متدفقة مثلما تملأ الريح منزلا مفتوح النوافذ . فتنسى بغتة ، بفعل ثغرة في ذاكرتها

المرهقة من استعادة الأشياء ذاتها على الدوام ، انها اضحت مشوهة ويدوم ذلك عدة ثوان . فتجتاحها الرغبة في الحب مجددا ، ويتألق في عينيها غرورها الذي امتهن طويلا . ويمنحها التوهم بحسنها شعورا بالغنى والسمو يختطفها من دنياها فتقع الحاجة التي تعمل بها من بين يديها . وترى نفسها ، وسط هذا النوع من الدوار ، معبودة ، ورجلا جاثيا أمامها .

ذلك الرجل هو غيريه . ويتراءى لها على نحو ما شاهدته لأول مرة ، رجلا خجولا ، وذا صوت يسعى جاهدا لتلطيفه . وكلما نظرت اليه غض طرفه . لكنها تباغته من وقت لآخر ، وتعبير وحشي يعلو قسماته حين يرفع جفنيه ، ليدهشها البريق الذي يشع في مقلتيه . ما كان بوسعها أن تقول ، إن كانت الغلبة للعذوبة أم الوحشية لدى ذلك الرجل لكنها كانت تعرف فقط أنها مسيطرة عليه ، وأنه يرتعد وهو أمامها .

وتاتي نهاية تلك الهلوسة على نحو مباغت . فتجد الفتاة التعبسة نفسها في غرفتها . وتتأمل ، والهلع يستولي عليها ، المنشفة التي كانت ترفوها ، وترى ذيل خمارها ، وكل مـا يشدها الى الوقت الراهن ، ويعيدها الى عذابها . فتجهد في احياء ذكرى ما فاض به قلبها من حقد ورعب ، وهي ترى ذراع غيريه ترتفع لتهوي على وجهها . لقد اصابها ما يشبه الاغماء حتى من قبل أن يضربها ، بل انها اعتقدت أن الصرخات الصادرة عن حلقها ، كانت صادرة عن فتاة أخرى ، عن امراة يفتاولنها بالقرب منها ، فكان من المستحيل عليها أن تتخيل أن حياتها معرضة للخطر . لم يكن الموت يتهددها هي ، بل كان يتهدد تلك المراة التي تصرخ ومع ذلك ، فياالهول ما انتابها وهي تشعر بقبضة ذلك الرجل تسمرها الى الأرض ! ويا للهلع الذي حملته معها تلك الصرخات المتواصلة الفزعة ! الهبت الضربة الاولى وجهها من عينها اليسرى حتى شفتها . ونزف الدم حتى حلقها . ثم غابت عن الوعي ، وحين استفاقت بعد قليل احست بطعم مالح يلسع لسانها ، لكن الما جسديا يفوق الاحتمال اعادها الى وعيها : كان ما يشبه النار يسيل فوق وجهها . ويقطر الدم من راسها

فيغطي ذراعيها وصدرها . لم يجرؤ واحد من كل المشاهدين ، الذين خفوا لدى سماعهم عويلها ، أن يمسها . واضطرت لأن تتوسل اليهم حتى يعيدوها الى بيتها .

كانت تلك الذكريات تعتصر قلبها فتضع قبضتيها على أذنيها وتغمض عينيها كأنها تريد أن تطرد من دماغها صورة العذاب الـذي تعرضت له ، لكن ذاكرتها المتصلبة ، ما كانت تتساهل معها في بعض اللحظات الا لتقسو عليها في لحظات أخرى . حتى أن الشقية لم تكن لتتوصل الى استبعاد تلك الرؤيا للدموع التي تذرفها وهي تستعيد ذلك الماضي !

تذكرت ليلة غريبة أمضتها في غمرة ابتهاج عميق . كان ذلك على اثر نزاعها مع مدام لوند . وقد قررت أن لا تعود الى غرفتها في ذلك المساء بل أن تتجه لتنام عند احدى صديقاتها في شانتيليا . وحرصت على عدم اعلام أحد بالامر ، حتى أنها قامت بهروب . انها تريد الهروب . تريد أن تهرب من مدام لوند والمطعم ، وائك الزبائن الذين يتنازعونها فيما بينهم . لم يكن في ذهنها آنذاك سوى هذه الفكرة . وتستعيد حالها وهي متكئة على نافذة تطل على جادة البريست . كانت الليلة معتمة هبت فيها الريح . وأخذت حبات المطر تتساقط من وقت لآخر فـوق شعرها وزنديها العاريين . امـا الحجرة التي اعطيت لها فكانت من ورائها تطفح بالنور . لم يكن السرير والمنضدة والكرسيان ملكا لهـا لتذكرها بشيء ما . اما في غرفتها فكل شيء يوحي بالقهر والسأم . أنها هنا حرة . والهواء الذي يداعب محياها ليس نفس الهواء الذي يحرك الاوراق الجافة فوق الساحة الصغيرة ، امام مطعم لوند . كانت سعيدة فهناك رجل مدله بحبها . وكانت على يقين ، من غير أن تعرف أين هو او ماذا يفعل ، من انه يفكر فيها وأنه يتألم بسببها . وكان ذلك يروق لهـا مثلما تروق الشمس للنبتة . صحيح انـه لم يكن يشبه المثـل الاعلى الذي نسجته احلامها ، في شيء ، الا انها كانت تجد من ناحية أخرى كل مشقة في صد متعة الشعور بأنها معشوقة ، فتتمنى لو يستمر

ذلك ، وتود ان لا يعرف ذلك الرجل شيئاً عن مغامراتها العديدة مع الآخرين أبداً . ولم يكن في نيتها أن تستسلم له يوماً ، لكنهـا بدأت تستعذب ذلك الحنان المباغت الذي تلمسته لديه . وتدرك جيدا أن تصرف غيره سيكون مختلفا جدا لو اكتشف ما كانت تحاول اخفاءه عنه . وغالباً ما تردّد صوتـه الاجش في ذاكرتهـا وسمعت كلماتـه الملأى بالضغط ، وكل ما كان واقعاً خارج نطاق جسده المخلع ووجه الخالي من اية ملاحة ويديه الثقيلتين . لم تكن تنظر اليه حين تلقاه . كانت فقط تصغي اليه وهو يتكلم ، وتنساق على غير دراية منها نحو ذكرى وجوه اخرى شاهدتها مصادفة وهي على الطريق . لكن ذلك الصوت ، وحرارة ذلك العشق المكبوت ، أسبغا عليها بهجة لم تشعر بمثلهـا قط . حتى بدأت تنشغف بها شيئاً فشيئاً . وفي الغـد نفسه رأت غيره في دربها وهي راجعة الى غرفتها . فجرها الى ما وراء الحرج الصغير ، حتى حافة النهر الذي كانت تسمع احيانا خرير مياهه في هدأة الليالي ، حين يكون نومها مضطربا . الا كَمْ كان الثمن الذي سددته مقابل السعادة القصيرة والضئيلة التي صورتها احلامها باهظا ! ليتها كانت تعرف فقط . لكن الغضب لا يلبث ان يتولاها على أثر هذه الفكـرة الاخيرة . فالمرء لا يعرف ابدا متى ستغدر به الحياة . والاعتماد على الغد ، بل حتى على الساعة التالية ، شيء غير مجد . وليس من شيء أكيد الا المـوت .

ذلك ما كان يجول في ذهنها حين تركتها فرناند وولت رافضة منح هذه الفتاة التعيسة قبلة تعيد الطمأنينة الى قلبها . وما نفع البكاء ؟ لن يعمل الا على تورم قسماتها فتصير اكثر قبحاً . ثم نظرت الى نفسها مطولا للمرة العشرين منذ الصباح ، وهزت رأسها . واستبد بها على نحو مباغت سخط على نفسها ، وعلى الله الذي يسمح بوقوع مثل تلك المظالم . فألقت بمرآتها على الارض فهشمتها وسحقتها بعقب حذائها .

وتساءلت : « ما العمل حين يكون المرء شقياً حتى هذه الدرجة ؟ »
أجالت نظرها في قطع الاثاث من حولها ، والجدران التي شهدت عذابها الطويل . ثم بدا لها أن عالم الخشب والحجارة ذاك ، قد دبت فيه الحياة فأخذ يتحدث اليها . لم لا تختار الرحيل ؟ لقد تمنت في مسار هذه الحياة أشياء كثيرة . ولم تتعلق بشيء معين . فليس هنا من فكرة أو ذكرى لتتعلق بها وتبقيها .

وعلى هذا فحين جاءت مدام لوند وفتحت الباب لتعلمها أن الزبائن يرغبون في رؤيتها غداً أجابت « أجل » ، حتى لا تثير جدلا عقيما لكن مخططها أصبح جاهزاً : ستتوجه الى المسيو غروجورج لتطلب منه مالا ثم تغادر المدينة في أسرع وقت ! لم يساورها الشك في امكان نجاح خطتها لحظة واحدة . فغباء الرجل العجوز وغروره كانا في واقع الأمر بلا حدود . وعلمتها تجربتها الفائدة التي يمكن أن تجنيها من ذلك . فهي سوف تتصرف على نحو يعتقد معه ذلك الرجل أنها ما تزال جميلة رغم خمارها . ولطالما انطلت عليه أكاذيب فيما مضى . فهو سيحمل رفضها في رفع الخمار ، والكشف عن وجهها ، على محمل من الغنج . لقد كان على كل حال في أمس الحاجة للاعتقاد بحسنها ، ليصير خداعه ميسوراً جداً . وهي تتذكر ما كان يوقظه حضورها فقط من رغبات لديه ، وما يصير اليه مقدار سخائه في تلك الساعة من التلهف . لقد سعى الى رؤيتها مرات عديدة من بعد وقوع مصيبتها . فكانت واثقة من السيطرة التي يمكن أن تمارسها على ذلك المخلوق التعيس العاطل والشهواني . أليس ذهابها لرؤيته بعد انقطاع ثلاثة شهور كفيلا وحده بملء نفسه غبطة ؟ سوف تعده بكل ما يريده على أن يعطيها فقط المال اللازم لهروبها . ولن تعوزها الاكاذيب في مثل تلك الحال . لقد كانت تكن له كل ازدراء . وتعتبره سافلا جدا ، حتى أن خداعه لن يسبب أي تأنيب ضمير . حتى كأن نذالة ذلك العجوز الشقي تعفيها من السلوك القويم .

وتأتي احدى نزوات القدر لتهدم ما بنته من مشاريع . فمـدام غروجورج ، تلك المراة الفظة الغامضة ، والتي لم يقع عليها نظرها غير مرة أو مرتين من قبل ، هي التي صادفتها على دربها ومنعتها من رؤية زوجها ولم يكن ذلك الامر ليدهش انجيل لانه يشبه مجرى حياتها . وليس في الامر من صدفة بل هناك شراسة قدرها ، وصروفه الغادرة المعدة سلفا وباتقان لكنها تتخذ لبوسـا عارضا لأن كنهها الباطني يتجاوز ادراكنـا .

* * *

- ٨ -

حملت مع كل ذلك وعداً من مدام غروجورج بأنها ستفكر في حالتها. الحصيلة هزيلة . فمشهد كميم الفرو الذي كانت تدفيء به تلك المرأة يديها بدا أكثر فتنة . لقد راودت أنجيل الرغبة ، أكثر من مرة أثناء الحديث على الطريق ، في اختطاف ذلك الفراء الثمين . الا يحتمل أن تكون محفظة ما مخبأة داخله ، وفي المحفظة . . . آه ! لِمَ ينبغي أن يكون قلب الغني على هذه الدرجة من القسوة ؟ وكم سيؤثر التخلي عن مئتي فرنك على سير الأمور في دارة « خلوتي » ؟ هل تتدنى من جراء ذلك نوعية الطعام ؟ هل سيكون الهواء داخل الحجرات التي تتأجج النيران في مواقدها من الصباح حتى المساء أقل دفءاً ؟ وكيف يقدر الغني أن ينام وقلبه طافح بذلك المقدار من الضغائن والأطماع ؟

شدت أطراف شالها فعقدتها تحت ذقنها بقوة وحثت الخطى . لم يعد أمامها إلا أن ترجع الى غرفتها وترقد في سريرها ليخف إحساسها بالبرد . فهذا النهار الذي أمضته خارجاً ، بعد أشهر من الاعتكاف ، جعل التعب يهدها هداً ، حتى لم تعد تجد في نفسها القدرة على التفكير فيما ستفعله غداً . بل فقدت الرغبة في الكفاح . وامتلأت نفسها بلامبالاة غمرتها شيئاً فشيئاً حيال السعادة والشقاء . شعرت بثقل في رأسها . لو كانت قرب نار لاغفت على الفور .

كانت تمشي على الطريق منذ بعض الوقت حين سمعت وقع ركض وراءها . فردت بحركة عفوية طرف خمارها على وجهها واستدارت فلم ترَ أحداً . كانت بعض المصابيح الغازية تنشر بعيداً شيئاً من ضوء

شاحب فوق الثلج من غير أن تبدد العتمة تماما . أصابها الخوف على حين غرة . فالوقع كان قريباً الى حد ينبغي معه أن ترى الشخص الذي كان يتبعها . كان الهرب أول ما تبادر الى ذهنها . إلا أن الصمت من حولها كان عميقاً جداً حتى أخذت تتساءل ما إذا كانت مخطئة . لم يكن هناك ما يدعو للخوف على كل حال . فالمسافة التي تفصل بينها وبين أول منازل المدينة لا تتجاوز المئة متر . لكنها تعرف أيضاً أن سكان لورج ما عادوا يغادرون منازلهم بعد غروب الشمس منذ أول الشتاء . فأية صرخات تلك التي ستجعل هؤلاء الجبناء يغامرون بالخروج لنجدتها ؟ وهكذا فإن مخاوفها لم تكد تهدأ إلا وعاودتها على نحو أشد.

في تلك اللحظة سمعت من يناديها . ولم يتح لها الوقت حتى ترد. لقد رأت على الفور رجلاً يقبل باتجاهها من عند حافة الطريق حيث كان مختبئا . عرفته من منكبيه وعرفته من مشيته : إنه غيربه وصرخت .

فصاح بها بصوت خفيض : « اصمتي . أقسم لك بأنه لا مدعاة لخوفك . »

كان قريبا جداً الى الفتاة حتى كان بوسعها أن تميز قسمات وجهه. لقد استولى عليها رعب منعها من أن تأتي بحركة . وتراءى لها أن الدم تدفق من كل أنحاء جسمها نحو قلبها .

واضاف :

ـ إني اخاطر بحياتي من أجل أن أراك . لو أوقفوني لكان مصيري السجن المؤبد وربما أسوأ . أمازلت خائفة مني ؟ أجيبي .

فهمست وهي تتراجع خطوة الى الوراء : كلا .

ـ سمعتُ شيئا مما كنت تقولينه لمدام غروجورج قبل قليل . كنت مختبئاً بالقرب من سور الدارة . قبل يومين رأيتها وأنا أطوف

في هذه النواحي ، فهربت لكنها صاحت بي أن أرجع في الغد عند الساعة السابعة . أي هذا المساء . فحضرت ثم داخلني الشك في اللحظة الأخيرة ، فاختبأت ساعة وصولها . هل صحيح إذن أنك لم تبلغي الشرطة عني ؟

ـ أجل .

ـ لكن لا ترتعشي . أقسم لك بأنني لن ألمسك لمساً ما لم تسمحي أنت بذلك . أنجيل ، أصغي إلي . أنت تزدرينني ، أليس كذلك ؟

لم تجرؤ على الإجابة خشية أن يكون قد قصد الايقاع بها . لكن كم أثار ذلك الصوت من كوامن الحقد داخلها ! لقد كان يكلمها على هذا النحو يوم اقتادها آخر مرة الى حافة النهر . فأي ضعف ذاك الذي أصابها فيما بعد حتى ضللت جهود الشرطة بإنكارها أنه هو الذي اعتدى عليها ؟

سألها : « هل ستصفحين عني في يوم من الأيام ؟ »

إنها لن تسامحه أبداً . أما العار الذي تشعر أنه لحق بها ، بسبب ما أحست به من ميل نحو رجل بلغ ذلك الدرك من التفاهة ، فكان يؤلمها أيضاً أكثر من فقدانها لجمالها . إن كلمات الحب الوحيدة التي قيلت لها في وقت ما ، نطق بها صوت بلا فتوة . وهي تحتقر ذلك الصوت .

أخيراً قالت : « دعني أنصرف . »

فاستأنف يقول : أما وأنت لم تبلغي عني ، فمعنى ذلك انك سامحتني . وما هذا بدافع الخوف ، أليس كذلك ؟

وترقب لحظة أن يسمع الجواب لكن بلا جدوى . ثم سأل على حين غرة :

ـ لم اقتادتك مدام غروجورج ناحية المصباح ؟ ما الذي دعاها لأن تنظر إليك ؟ أنجيل ، لا يمكن ان تكون الآثار ما زالت ظاهرة على وجهك . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

ترددت هنيهة ، لكن الغلبة كانت لغرورها على ضغينتها ، فقالت:

ـ كلا ، لا يوجد أي أثر .

واضافت على الفور وقد ثارت في داخلها قوة لا تقاوم :

ـ فتيات شانتيليا هن اللواتي روّجن تلك الأقاويل بدافع الغيرة.

فامسك بيدها كأنه يريد أن يشكرها .

ـ ماذا دهاني حتى فعلت ذلك ؟ لابد أنني قد أصبت بالجنون . حسبت طوال ثلاثة أيام أنك قد متّ . وحين قرأت الجريدة ، بدا لي أنني بدأت أحيا من جديد . لم أفعل إلا التفكير فيك . ولم يخطر مني على بال غير الرجوع الى هناك .

اما وقد ظلت ساكنة ، لا تسحب يدها ، فقد قال لها بغتة :

ـ إنني احبك ، هل تفهمين ؟ كان بوسعي أن أهرب الى الخارج، لكني فضلت الاختباء في باريس والمناطق المجاورة ، حتى لا أبتعد كثيراً عنك .

احست بلهاثه الحار يلفح وجنتها ، فتراجعت أيضاً تحت تأثير ما يسببه لها ذلك الرجل من تقزز . وخشيت أن تسحب يدها مخافة أن تثير غضب غيره . لكن كلمات الحب هذه ، أثرت فيها رغم كل شيء . وتابع يقول :

ـ بلغ بي الأمر حد عدم الاكتراث بحريتي . لابد أن تكون مدام غروجورج قد اشاعت في كل مكان أنها قد رأتني أمس . بل قد يكونون

الآن جادين في البحث عني . ومع ذلك فأنت ترين أني لا أخشى التجوال في المنطقة .

ـ عليك أن تهرب .

ـ تريدين التخلص مني . أنجيل ، ألديك مغامرات كثيرة ؟ هل حياتك على المنوال السابق ؟

أثارت هذه الأسئلة في نفسها من الاضطراب أكثر من كل ما قاله لها حتى الآن . كانت تعتمل في داخلها رغبة لم تسعَ الى توضيحها لنفسها : كانت تزدري ذلك الرجل . لكنها لا تقوى على مقاومة الرغبة في أن تروق له . قالت :

ـ كلا ، لقد انتهى كل ذلك .

أسفت على هذه الكلمات فور التلفظ بها . اذ بدا لها أن الرد بحد ذاته يجعلها ترتبط بمغامرة خطرة . فبدلاً من أن تهرب فوراً على نحو ما أوعزت به غريزتها ، لبثت واقفة على الطريق تتحدث مع ذلك الرجل . لقد وقعت في المصيدة . قالت بحدة :

ـ ولم تسألني عن ذلك ؟ اترك يدي ودعني أمضي في سبيلي .

قالت ذلك وهي على الطريق الرئيسة التي تحاذي السوميانت . أي تماما كأن المشهد إياه يوشك أن يتكرر . فخافت من تلك الكلمات التي نطقت بها شفتاها رغما عنها . بيد أنه كان ممسكا بها بشدة حتى انها لم تحاول التخلص .

وبغتة أضاف من غير أن يلقي بالاً الى ما كانت تقوله :

ـ وماذا لو وجدت المال ؟ هل توافقين على اللحاق بي ؟

وظلت ذاهلة . ها إن أحدهم يعرض عليها ما كانت تتوسل للحصول عليه قبل قليل : وسيلة الهرب . لكن القدر قام بتنسيق هذه الهبة على نحو يجعلها غير قادرة على القبول بها . أن تهرب من الرجل الذي تكنّ له أشد الكراهية ! ما عسى ذلك الرجل ان يفعل حين يراها في وضح النهار ؟ لكنها قررت أن لا تتخلى عن فرصة قد تكون ثمينة . فبوسعها أن تتفكر في الأمر ملياً وهي وحدها . ولما كان الكذب كامنا في أعماق طبيعتها ارتأت أن من الخير القبول بعرض غيريه ، إذا كانت ستنجح على ذلك النحو في إبعاده عنها . فسألته :

ـ كيف ستعثر على هذا المال ؟

ـ وما همك ؟ قلت لك إنه سيكون في حوزتي من الآن وحتى مساء الغد .

كانت أصابعه الدافئة تشد على معصمها داخل كم قميصها . وملأها ذلك الشد ، الصادر عن قاتل ، رعباً جعل أسنانها تصطك . وخشيت ان تتسرع بالقبول فتثير ظنون غيريه . فسألته :

ـ الى أين سنذهب ؟

ـ الى الخارج . لدي أصدقاء في بلجيكا . وبعد عدة شهور نرجع الى فرنسا .

واحاطها بذراعيه :

ـ هل تقبلين ؟

فتمتمت :

ـ اجل . بشرط ان تدعني امضي في سبيلي . اتركني .

فقال وقد جُنّ جنونه من الغبطة :

ـ اتقبلين ؟ اتقبلين أن تأتي ؟

ـ أجل ، دعني ، إني أقبل .

فأخذ يقبّل يديها . ثم أضاف :

ـ وعدتني مدام غروجورج بأن تساعدني . إنها غنية . سأقابلها . أتعرفين متى تخرج والى أين تذهب ؟

قالت في نفسها : « لو رآها لانتهى أمره . سوف تغدر به . » أجابت :

ـ بعد الظهر ، في حدود الساعة الثالثة عادة . صادفتها كثيرا ناحية شانتيليا ، وأنا ذاهبة احمل الغسيل . ثم أضافت كأنها تحدّث نفسها : لم تكن تحييني البتة .

ـ هل تخرج سيراً على الاقدام ؟

ـ أجل ، حين يكون الطقس صحواً ، وإلا فانها تأخذ المربة .

ـ وحدها ؟

ـ وحدها دائما .

ـ أضرب لك موعدا هنا غدا مساء بين المصباح الثالث والرابع بدءاً من المعبر . كم يمكن أن تكون الساعة ؟

ـ السابعة والنصف .

ـ إذن في السابعة والنصف . سنتوجه الى هيريكور سيرا على الأقدام ، فما من أحد يعرفنا فيها . ومن هناك نركب القطار .

ـ طيب .

ـ أقسمي لي إنك سوف تأتين .

ـ أجل ، أقسم لك على ذلك .

فقال بضحكة ملأى بالتهديد :

ـ سوف أعرف دوما أين أعثر عليك .

ـ سوف أحضر . دعني أنصرف .

ـ إنزعي هذا الخمار وعانقيني . هل تسمحين ؟

ـ كلا ، كلا . لكن احذر ، هناك شخص قادم .

فتركها على نحو مباغت وارتمى جانبا وهو ينظر فيما حوله . فهربت . وبعد ثوان معدودات كانت تمر راكضة أمام اول منازل لورج .

لقد اصغى لوقع خطاها تبتعد من غير ان يجرؤ على ملاحقتها : لم يكن من احد قادما على الطريق ، بل لجأت الى تلك الخدعة كي ترغمه على ترك ذراعها . إلا انه كان متيقناً من انها ستأتي على الموعد غدا . فالخوف سيأتي بها الى ذلك المكان، وإلا فهو الحب . وتردّد في الانصراف فمشى في اتجاه ثم في الاتجاه المعاكس وكأن جدرانا غير مرئية تحدد تجوله . كانت قوة خفية تقيّده الى تلك البقعة من الأرض التي سيقابلها فيها . سوف تطأ هذه الأرض على نحو ما يفعل هو الآن . ثم حرّك برأس قدمه موقع قدم أنجيل فوق الثلج والوحل . هنا ، في منتصف الطريق تقريبا . كانت قبل ثلاث دقائق واقفة أمامه . ولقد تركهاتمضي .

بعد بضع دقائق مضى هو بدوره . كان البرد يخترق المعطف الرقيق الذي يستر جسده وبحثت يداه بلا جدوى عن شيء من الدفء في أسفل

جيوبه . ونشأ لديه احساس بأنه عار وسط الشمول التي أخذت تهب فتجمد الدموع على خديه ، اما قلبه فكان يطفح بشرا .

لقد عاش طوال ثلاثة أشهر ونصف في عزلة تامة ، متخفياً في الأحراج الصغيرة المجاورة . يتناول طعامه في القرى حيث يعتقد انه في أمان . وما لبثت لحيته التي أطلقها أن غطت وجهه فجعلته غير معروف تقريباً . لم يبق ما يشي به إلاّ عينان في حركتهما الدائبة وكتفاه المحدّبتان ، هذا إن خطر ببال أحد أن يدقّق النظر فيه ، لكنّه ركن الى ما لدى الناس من ضعف ذاكرة . وخاطر بنفسه ذا مساء فوصل الى شوارع لورج . سلك أوّل شارع وهو واثق من أنّه لن يصادف أحداً ثم انتقل الى شارع آخر ليصل في نهاية المطاف الى الساحة الصغيرة أمام مطعم لوند . وتراءى له أنّ الزمن يعود مجراه ، وأنّ كلّ ما عاناه في الأشهر الأخيرة من غمّ ورعب قد زال دفعة واحدة . قد لا يكون وقع شيء مطلقاً ، ما دام واقفاً هنا بنفسه وما دام المنزل على حاله والحجارة ايضاً . هل كان يخاطر بنفسه ، لو انّه ارتكب جريمة حقّاً ، فيأتي الى مكان يمكن لكل من فيه أن يبلّغ عنه ؟ كان إهمال نفسه يطمئنه . أمّا استمرار عيشه مهدّداً بالخطر فجعله يألف ذلك . ناهيك بأنّ الصحف لم تعد تتحدّث عليه . وبعد أن خمد ما ثار من اضطراب في الأسابيع الأولى ، فقدت الشرطة كل امل في العثور عليه وبدأ النسيان يخيّم على جريمة أضحت الآن في حجم الحوادث اليومية . وكأنّ المجتمع قد منحه العفو .

أما لقاؤه مع مدام غروجورج فقد أعاد إليه الإحساس بالخطر . لقد عرفته تلك المرأة على الفور رغم لحيته ورغم ثيابه الرثّة . فهل ستشي به ؟ إنّه لسؤال اسيء طرحه ، بل ينبغي التساؤل : لِمَ لا تشي به ؟ ما من شكّ في انها قالت له إنّها تريد مساعدته ، فهل كلّمته على ذلك النحو المغاير حتى توقع به في المصيدة ؟ وما هي الدوافع لديها حتى تهبّ لمساعدته ؟ فذكرى نظرة الازدراء التي طالما قرأها في عينيها تثير في نفسه

أشدّ المخاوف . فأيّة نزوة تلك التي جعلت هذه المرأة المتعجرفة تصبح محسنة جداً من بعد أن بالغت في امتهانه ؟

لكن بات عليه أن يتصرّف بسرعة ، وان يقابل انجيل ، لا سيّما أنه جاء من أجل ذلك فقط ، قبل أن يدقّ ناقوس الخطر . لكن كيف السبيل الى رؤيتها وأين يراها ؟ لقد أطال الوقوف على الطريق التي كانت تسلكها فيما مضى وهي عائدة من شانتيليا في نهاية النهار ، لكن دون جدوى . كان يجهل في الواقع أنّها لم تعد تعمل . ثم توجّه بعد ان اعيته الحيلة الى المكان الذي حدّدته له مدام غروجورج ووقف ينتظر وقد تنازعه الخوف من الوقوع في شرك منصوب له ، والحرص على عدم تفويت فرصة ممكنة . وفي اللحظة التى اوشكت مدام غروجورج أن تظهر فيها ، استولى عليه خوف مباغت فاختبأ في العتمة قريباً من سور دارة « خلوتي » . وشاهد تلك المرأة التي رهب جانبها دوماً ، وهي في ذهاب وإياب على الطريق ، وقد ظهرت عليها دلائل صبر نافد . مرّت من امامه مرّات عديدة . ما هي الأفكار التي تعتمل في ذهنها ؟ إنّها براسها الشامخ ومشيتها السريعة وطريقتها في التوقف الفاجىء لتدقّ الأرض بقدمها وهي تنظر يمنة ويسرة ، قد جدّدت لديه كلّ الانطباعات التي ولّدتها في نفسه ، حين كان يأتي لإعطاء دروس للصغير أندريه . يا له من تناغم مدهش بين الرّوح والحركات ، حتى إنّ أحد مظاهر الجسم ، كطريقة الاستدارة أو رفع الكتفين ، يمكن أن يكشف عن كلّ ما في القلب من غلظة وقسوة ! لقد أحسّ بأنّه يسمع صوتها المقتضب يوجّه إليه أشدّ العبارات وقاحة . وكأنّ في صوتها ، حتى وهي تصيح به : « لا اريد بك سوءاً ، لا تخشَ شيئاً ! » نبرة سيّدة نبيلة تقرّع احد الخدم . وها هو قد جاء ينتظر منها إحساناً ! لِمَ لا يتوجّه الى البلديّة طالباً منها العون ؟

ملأه وصول انجيل غبطة لم يقوَ على احتوائها إلا بدافع الحذر . لم يكن على مقربة كافية من المرائين ليسمع حديثهما أمام الشبكة الحديدية، إلاّ إذا رفعتا صوتيهما ، وهذا ما حصل حين أمرت مدام غروجورج

انجيل بأن تريها وجهها . ورغم انّ غيرته تأجّجت لذكرى الرسالة التي قرأها المسيو غروجورج عليه ذات يوم ، فقد شكر الظروف التي ساقت انجيل لأن ترى العجوز من جديد .

في الوقت الراهن اضحت امرأتان تعرفان انّه موجود في لورج . واحدة منهما تزدريه ، والاخرى لديها الاسباب الكافية لأن ترهبه وتكرهه ، وعليه أن يكون مخبولاً إذا ما اعتقد بأنّهما ستكتمان سرّه . كما بات في يد انجيل ان تثأر منه بكل يسر : حسبها أن تبلّغ الشرطة عن مكان الموعد ليقع في الفخ الذي يكون قد أعدّه بيده الى حد ما . وقد يكون الإبلاغ حاصلاً فيما هو يفكر دون طائل في الاحسان الذي يمكن ان تجود به عدوّتان عليه .

إلاّ انه لم يكن يفكر في الهرب . فمسألة بقائه طليقاً ، أو تمضية ما تبقّى من حياته داخل أسوار المعتقل ، كانت مطروحة عليه في مظاهر مختلفة . فلو تفحّصها عن كثب ، لبدا من الحمق التردّد بين السجن والحريّة ولو ثانية واحدة . ولكي يتفادى إلقاء القبض عليه ، كان يمكث اياماً عديدة في قرية بعينها . هذه الطريق تبدو له آمنة أكثر من تلك ، وهذه الساعة أكثر ملاءمة من غيرها . لكنّه كان يرى في لحظات أخرى أنّ الأمور تسير بطريقة مغايرة ، وانّ مشاريعه لا تتوافق ومجرى الواقع . فالحساب الأهم هو حساب الزمن ، وليس الزمن أداة طيّعة في يد الناس . إنّ مصيره سوف يتقرّر بعد عدد معلوم من الأيّام او السنين . فقد جرى البتّ بقضيته وغدت نهايته معروفة . وهو أشبه ما يكون بطفل يلهو من غير أن يعرف انّ الوقت يمرّ بينما ترى امّه مسبقاً متى تحين لحظة حمله الى السرير ، وإطفاء النور من حوله ليخلد الى النوم .

تذكّر كيف سلك ، ذات مرة في باريس ، زقاقاً ضيّقاً كي يبتعد عن درب شرطي ، وكان الوقت مساء ، وقد خطرت بباله فكرة تسليم نفسه بنفسه . فالحرية ، مقابل الجوع والخوف والحزن ، يمكن أن

تكون اقرب من السجن . وقد يكون مكانه آنذاك هو الذي أوحى اليه
بتلك الفكرة . حصل ذلك في احد اماسي تشرين الثاني وقد أقبل الليل ،
لكن لم تكن المصابيح قد أضيئت بعد . فغاص في الجزء الأكثر ظلمة من
الزقاق ، وكان ما يشبه قبضة تنذره عبر كتل الابنية العالية والموحشة التي
تتلاصق جانبا من شوارع عمان الانذار . بدت امامه وسط الضباب المظلم ،
الخانق بين الجدران ، وجه بقعة شاحبة نجمت عن لهاثه . وما لبثت دقات
قلبه ان اهدأت شيئا فشيئا . انحنى يتلمس الحجارة بيده . وهبط من
بين السطوح يصيح ضباب من غير ان يصل الى عنده . فبدت خطاه
بفتور ولذة مثل الخطى الاولى وكانت ساقاه ترتجفان من أثر الجري . وظل
صخب المدينة يتعالى من حوله كصوت ضخم مليء بالوعيد ، فيرسم له
خياله صورة وحش هائل يلاحقه مفغرا فاه في العتمة وهو يزمجر .

[illegible]

كان شعوره ذاك ، بوجود صراع غير متكافيء بينه وبين قوة غامضة
وملتوية تهدد بخنقه في اي ساعة من نهاره ، كلما لاحظ في الشارع عينين
تحدقان في وجهه أو سمع وراءه وقع خطى أسرع من خطاه بقليل ... عندئذ
تجتاح جسده حرارة مباغتة وتلتصق قميصه بجبهته لما يتصبب عليها من
عرق . كان يمضي من شارع الى شارع يطارده رجال شرطة وهميون ،
فيلتجئ نحو الاجزاء المكتظة من المدينة او يجانب الساحات المقفرة والجادات
الطويلة الخالية . الا انه يختلط بالجمهور وقد استولى عليه هلع
لا يوصف ، فكثيرة هي الصحف التي نشرت أوصافه ، وتكفي نزوة من
نزوات الذاكرة لدى احد المستكتفين ، حتى يتذكر على حين غرة ، بعد
ان يراه ، الاوصاف التي قرأها قبل اسابيع ، قامة طويلة ، تحدب في
الظهر ... كان يحاول ان يمشي منتصبا باستقامة ، لكن دون جدوى ...
بنبرة باهتة ... لا ريب في ان ذلك غير محتمل ، لكن الحياة العادية
تقوم على اقل الاحداث غير محتملة ... ومحاولته الغبية في الاختباء وضغط الحشية
على التوجه مرارا صوب المحطات الكبرى ليجد نفسه في وسط جمهور
من المسافرين ... لا ينبغي ان يلتفت اليه الانظار بسبب ثيابه المتسخة
والقلق الفاضح على سحنته ... عندئذ يتخيل ان أمره اضحى مكشوفا

وأنّ أولئك الناس يحاصرونه على هذا النحو عمداً لمنعه من الهرب . وإلا فلم ينظرون اليه بهذه الطريقة ؟ فهل عليه ان يشق طريقاً له في وسطهم أم ينتظر حدوث تحرّك يلقي به جانباً فيحرّره ؟ كان يبدو له أنّ أيّ سلوك يختاره يثير الشبهات . وأنّه ببقائه ساكناً أيضاً يلفت إليه الأنظار . وما يلبث أن يتبع ما ينتابه من ضيق ، فزعٌ يمسك بخناقه . من نافلة القول أن يقنع نفسه بأنّ هؤلاء الرجال والنساء لا يعرفونه وأنّهم لا يفكّرون حتى في النظر اليه . فالرعب من التوقيف يجتاحه اجتياح عاصفة هوجاء لا يمكن لشيء أن يخفّف من غلوائها . أمّا الأفكار التي تخطر بباله ، في تلك اللحظات من الذعر العقلي ، ففاية في الغرابة : أن ينهال ضرباً على المحيطين به ما استطاع من قوّة ثم يولي هارباً مثل قاتل يجدّون في طلبه ، أو ان ينخرط في الصراخ ويبلّغ عن نفسه بنفسه معجّلاً امر القبض عليه بعد أن اضحى في نظره مؤكداً .

لم يعد في وسعه أن يسلك شارعاً أو يدخل غرفة من غير أن يتوارد الى ذهنه نفس السؤال : « أيكون توقيفي في هذا المكان ؟ هل أنا اعيش الآن آخر دقيقة حرية من حياتي ؟ » وعلى هذا فما من فندق رآه يلج بابه ليلتين متتاليتين . فكان يمضي متنقّلاً من شارع الى شارع ، بدافع من غريزته التي تدفع به من هنا الى هناك فتجعل بعض الشوارع تجتذبه وأخرى تثير فزعه . ووقع ذات مرة فريسة وساوس جعلته يبتعد طوال أسابيع عن قسم كامل من المدينة ،من دون سبب واضح ، وأحياناً عن باريس كلها فيهرب الى الضواحي . ثم تليها مرحلة الطمأنينة أو عدم الاكتراث فيعود على أثرها الى العاصمة . امّا وقد أرهقه التخبّط ضد عدوّ يحسب انّه موجود في كل مكان ، فاتّخذ قراراً حاسماً بأن لا يهتمّ من بعد بالمخاطر الكبرى التي تتهدّد حياته وان يستمر في العيش مثل أي رجل آخر ، بل مثل هؤلاء الناس الذين يصادفهم في طريقه بالمئات . عندئذ كان يتدخّل عقله ليغدق عليه آيات التشجيع . وهو لم يكن في حقيقة الأمر مجرماً كبيراً . فاغتصاب فتاة وضرب رجل عجوز عند زاوية احد الشوارع لا يستدعيان أن تبقى الشرطة جادة في طلبك طوال شهور

وشهور . ولا مناص لها ، بعد عمليات البحث الأولى ، من أن تغضي الطرف عنك لتوجّه اهتمامها نحو الجناة الذين يستحقّون ذلك .

ثم يستبدّ به الرعب على نحو مباغت ، اثناء تناول وجبة طعام ، مثلما يصاب المرء بحمّى تفجؤه ، على اثر شيء فاقد الأهميّة ، كأن تنقلب المملحة من يده ، أو أن يرمقه نادل بنظرة . عندئذ يتوجّس من حدوث شيء . ويصبح المكان مصدر شؤم . لقد قام أحدهم بالصفير وهو يمرّ من امام المطعم . عليه أن ينهض فيدفع وينصرف . وأن يجري مسرعاً بكل ما اوتي من قوّة من غير أن يلتفت الى الخلف . لكنّ فكرة مألوفة تأتي لتطمئنه : « لن يلقى القبض عليّ في مكان أتوقّعه . » وبفعل واحد من تناقضات الدماغ البشري يعثر على الطمأنينة داخل قلقه ذاته.

بيد انّ ذكرى انجيل ما كانت لتفارقه ، فتجعل كل جهوده للبقاء طليقاً بل واكسب عيشه ايضاً ، تبدو في نظره باطلة وتافهة . لقد ادّت بشاعة الجريمة الى تشوّش تام للصور داخل ذهنه في بداية الأمر . فالتقزّز من الدم المراق ومن الصراخ ومن ذلك العراك الشنيع على ضفّة النهر ، ذلك الكابوس الذي كانت ذاكرته ترغمه على أن يتعرف فيه على نفسه ، قد شغله على نحو تام ، فكيف أمكن أن يفعل ذلك ، بل لماذا قام بذلك ؟ فكل الاسباب التي يسوقها ، من الشهوة الى الغضب فالخوف ، لاتفسر حصول ذلك التحول العميق جدا داخل ذاته ، والذي دام بضع ساعات ، صارت فيها يده أداة للقتل . بل إنه الآن ايضا ، وبعد أسابيع من التفكير ، لم يتوصل الى إقامة علاقة حقيقية داخل وعيه بين القاتل وبينه . فيتراءى له انه لو القي القبض عليه ، لكان ذلك تكفيراً عن جريمة شخص آخر . حتى كأنه ارتكب جناية وهو في نوبة سرنمة[1]

لم يكن يشعر على ذلك بأي تأنيب ضمير . فهذه الكلمة الطافحة بالمعنى للعديد من المذنبين ، لم تكن تتوافق والمشاعر العديدة التي تعتمل

---

(١) السير والتكلم اثناء النوم .

في قلبي . أتكون النفس مسؤولة على الدوام عما تفعله اليد وعما ينطق به الفم كالهم ؟ ألا تكون هناك أوقات يجري فيها انفصال تام بين أفعال الانسان وقصده ؟ أليس محتملاً أن نكون أحيانا أداة تستخدمها قوى نجهلها فتستغل حالة الفوضى والاضطراب التي نؤول إليها حين تصيبنا ثورة الغضب ، لتتلاعب وتوجه أفعالنا ؟ إن ما كان يذهله على كل حال ، أكثر من أي شيء آخر ، سنوات كلما تفكر في جريمته ، هو طابعها العبثي وعدم تبريرها . ولو أنه استطاع على الأقل ، وهو يغتصب تلك المرأة أن يروي ظمأ هوى جامح منه ، لأمكنه أن يدرك سبب بواعثه . في الواقع أن ذلك الرجل المنهك والمتقد لم يكن يبحث عن الحب كواحد يبحث عن سكينة الحواس ، بل كما لو من أجل أن يحتقر عبودية الشهوة مثل هذا المتهتك ، حتى إنه لم يشعر بالازدراء تجاه نفسه بسبب تلك الغبطة المذعورة التي غمرته بها جريمته . وما عتم أن وجد نفسه فيما بعد على النحو ما كان من قبل ، بل أكثر تلهفا دون شك ، بتلك المرأة التي أدماها ، خائفا كل الخوف من أن يكون فقدها الى الأبد .

[illegible] كأن تلك الفكرة المسيطرة على كل ما فيه وعلى الحرص على [illegible] في الحرية تبقى [illegible] إلا [illegible] مفتوحة [illegible] على الدوام [illegible] في كل [illegible] بطبيعة باللغة [illegible] على [illegible] ضخم وهو يرى نواقص [illegible] تلك المرحلة التي يشتهي فيها المرء [illegible] بسبب جماله [illegible] إلا نقطة الانطلاق [illegible] الآن الى تلك القاتلة أصبحت تختلط بالغريزة التي تدفع به للعيش . إنه يريدها حتى وهي دمية أو ميتة [illegible]

رجع الى لورج وهو على تلك الحالة النفسية ، كما استفاد من النسيان الذي أثارته جريمته قليلا قليلا . فحياته في باريس أصبحت مستحيلة ، ناهيك بأن العودة إلى نفس البلد الذي وقعت فيه الواقعة هي نوع من التحدي للقدر . مثلما تؤدي عودة ظهور ممثل على خشبة المسرح الى اختتام المسرحية . فأوان الخاتمة قد آن [illegible]

اليقين على اية صورة كان بأفضل من حالات التوجس التي تعمل فيه تعذيبا ؟ لو عرف أن انجيل قد ارتحلت ، أو أنها لم تعد على قيد الحياة ؛ لكان عناؤه على طول المدى دون الخشية الدائمة منها . حتى كان يتراءى له في بعض الأيام أن خلاصه النهائي سيكون في القاء القبض عليه وزجه في السجن . فكثيرا ما تمر بالمرء لحظات لا يود فيها إلا أن يكون محروما من حريته .

اما الآن وهو واقف على الطريق ، إثر حديثه مع انجيل ، فهو يحس أن الخاتمة باتت قريبة . ولم يعد لديه وقت يضيعه . فقدره أن يتحمل ما تعرض له من عنف، أما المشاهد اللاحقة فقد جرت لأنه أراد لها ذلك . ولا يسعه أن يرتحل من غير أن يرى انجيل . سوف يأتي الى ذلك الموعد الذي ضربه حتى لو كانت حياته هي الثمن . إلا أنه لو سلم بعزمها على اللحاق به ، فلا يسعه أن يقترح عليها الرحيل معه دون مال . فلقاؤه بها قبل قليل تجاوز كل آماله . لقد أظهر شريكه في اللعب كل سخاء تجاهه . لم يبق أمامه إلا أن يخاطر بكل شيء ، اذا كان لا يريد أن يخسر كل ما في حوزته .

وتوقف . لقد قادته افكاره الى ما وراء آخر دارات اورج . فالى اين ينوي أن يذهب هذه الليلة ؟ رفع رأسه ، ونظر فيما حوله ، مثل من ينتظر أن تحمل اليه الريح ، وهي تصفر في اذنيه ، إجابة على تساؤله . شد قبضتيه في اعماق جيوبه ولبث ساكنا بضع ثوان . ثم عاد أدراجه على حين غرة .

* * *

- ٩ -

مرّ اكثر من ربع ساعة على قيام السيد والسيدة غروجورج عن المائدة ، ليواصلا امسيتهما كالمعتاد في قاعة الطابق الأرضي الصغيرة . وهي حجرة محصنة تحصينا مدهشا ضد تقلبات الطقس في هذا الفصل. إلا أن الثروة جادت عليها بألوان بذخ مزرية ، على نحو ما فعلته في كافة أرجاء دارة « خلوتي » . كان طراز لويس السادس عشر هو المتبع . كل شيء يوحي بمعروضات المخازن الكبرى ، بدءا من السجادة البرتقالية حتى الطنافس بلونها الأزرق الطاووسي ، تزينها أشكال زنابق بيضاء ، وقد تولى تنسيقها وتوزيعها رجل متخصص ، لكنه في عجلة من أمره . فالمناضد المزخرفة ذات المضلعات ، والاسكملات الصغيرة التي لا طائل وراءها ، تتنازع مجالا محدودا مع كراس ذات أرجل ضئيلة ومظهر هش، حتى ليتهيب المرء من الجلوس عليها . لكن كنبتين عميقتين ومريحيتين تحتلان جانبي الموقد ، حيث تلتهب خمس أو ست قطع ضخمة من الحطب . جلست في الأولى مدام غروجورج تقرأ جريدة وعلى الثانية جلس زوجها وسدر في أحلامه .

كان ينقل نظرة ناعمة بين اللوحات الفنية التي تزين جدرانه . فهذه لوحة للفنان فراغونار تتلوها واحدة بريشة بوشيه . أما النور القاسي والكئيب المنهمر من الثريا فيضيء بلا رحمة وجهه العجوز ، الممتلىء حتى التهدل ، والذي لم تكيفه أية آثار : لا حزنا ولا فرحا . من الواضح أن عينيه البليدتين وجبهته الفارغة، لم تعرف من توقد شع يوماً فيها. حتى ان الانفعالات الدنيئة نفسها ، والتي تنجم عن متعة يشتريها بماله ، كانت لا تثير اكتراثه على قدر ما هي ضرورية له . قد لا يكون اشتهى شيئا

ما بعنف ولو مرة واحدة . وقد لا تكون الحياة جعلته يشعر مرة بالحرمان. وعلى هذا فان التجاعيد التي تحيط بما تهدل من خديه ، وكل الاثلام المحتفرة في ذلك القناع اللحمي ، ليست من فعل الهموم أو العناء بل هي من فعل النهم والتقدم في السن . كان دفء الغرفة يسري فيه فيبث في أوصاله نوعاً من الخدر فتتراخى أجفانه الثقيلة وتتهدل شفته المكتنزة فيغرق في إغفاءة قصيرة بين وقت وآخر ، مثل من يخلد للراحة بعد نهار من العمل الطويل .

طوت مدام غروجورج جريدتها بعد فترة طويلة ثم اخذت تراقب قطع الحطب المتوقدة وهي تتآكل شيئاً فشيئاً . فبعد أن تحترق آخر واحدة وتتفتت جمراً ، تغادر الصالة هي وزوجها ليتوجه كل منهما الى غرفته . تلك هي الاشارة التي ينتظرانها كلاهما . وعلى ذلك النحو تختتم سهراتهما الشتوية . كانت وهي تتأمل السنة اللهب تسرح بأفكارها بعيداً جداً . واما النار المتأججة في ذلك الوسط الداخلي ، المثير للسخرية والمشؤوم ، والذي يوحي كل ما فيه بضحالة الحياة البورجوازية ؛ فكانت تبدو كائناً نقياً وقوياً يتعاملون معه باحترام ، مثل وحش مفترس احكم حوله الطوق داخل عرينه . ويستعينون عليها بأدوات مضحكة من أثاف وملاقط ومساعر . فهي مستعدة على الدوام لأن تثب خارج حبسها فتلتهم السجاد والأثاث والدار المقيتة . فينبغي مراقبتها باستمرار وعدم تركها وحدها في القاعة ، ورد القطع الملتهبة التي تتناثر منها احيانا فوق الرخام ، ووضع الحواجز في وجه شرارها القاتل . كانت مدام غروجورج مثل تلك النار ، الثائرة والعاجزة في قلب الموقد ؛ تلفظ انفاسها في مواجهة أشياء خالية من البهاء واشخاص جبناء ساهرين لا تقدر ان تطالهم أبداً .

خرج المسيو غروجورج من شبه اغفاءته بشكل مباغت وقال :

ـ هيه ؟ ماذا ؟ هل قلت شيئاً ؟

فقالت بصوت جـاف ينطق بازدراء : « لا ، بل كنت تحلـم » ثم اضـافت :

ــ سوف أصعد بعد هنيهة .

آه ؟ وأنا أيضا . لقد بدأت اغفو . اعطني المجرف كي أغطي الجمر .

اخذ المجرف النحاسي ، الذي ناولته زوجته إياه بصمت ، واخـذ يفترف به الرماد ويفرغـه بنفس السويـة فوق الجمر المتأجج فبدأت السنته تخبو .

ــ والآن حاجز النـار .

وضع اللوح المعدني امام الموقد بنفس العناية ثم تمطى وقال وهو يدس يده في احدى الجيوب الداخليه من سترته :

ــ تذكرت ، لقد تلقيت من وقت قريب شيئا قد يثير اهتمامك .

ــ وما هو ؟

ــ إنه يتعلق بابنك . لقد نال ابنك علامات متدنية جدا في مدرسته .

اسمعي جيدا .

ركز نظارته فوق انفه وبسط ورقة وأخذ يقرؤها بصوت عال :

ــ مدرسة تيير . النشرة الفصلية . التلميذ أندريه غروجورج .

لم تستطع مدام غروجورج أن تكبت حركة تنم على نفاد صبر وهي تسمع هذا الاسم فقالت :

ــ اخبرني بالأسوأ . هل هو مفصول ؟

ـ مفصول ، كلا ، لكن يا لهامن درجات ! إنها لفاجعة .
اندريه غروجورج ... السلوك : ستة من عشرة . تقديره وسط
في السلوك . التطبيقات : صفر . أتسمعين ؟

ـ بلى ، اسمع .

ـ اللغة الفرنسية : واحد ، التاريخ : اثنان ، الجغرافيا : اثنان ،
الرياضيات .. أحرى بنا هو تقديره في الرياضيات ؟

ـ وكيف لي أن أحزر ؟ صفراً بكل تأكيد .

ـ كلا .. بل أسوأ من ذلك . ليس هناك من تقدير على الاطلاق .
ما دامت لا توجد علامة ادنى من الصفر فانهم لم يعرفوا كيف
يقدرون عدم كفاءة ابنك المرعبة فتركوا الحقل فارغاً . يا لهيئة ؟
ما رأيك بهذا ؟

ـ ـ ارى أنك كنت ذا رأي مدهش يوم وضعته بين أيدي
أولئك الحمقى .

ـ كنت تريدين أن أدعه هنا ، عاطلاً عن كل شيء ؟

ـ كان ينبغي العثور على معلم من اجله وعدم إرساله الى باريس .

ـ معلم ! بعد المنغصات التي اصابتنا مع ذاك !

ـ ليس المعلمون كلهم على شاكلة ذاك . لقد أخطأنا الاختيار . هذا
كل ما في الأمر . لا أريد على اي حال أن أعاود مناقشة هذه
المسألة . اهذا كل ما لديك لتقوله لي ؟

ـ هناك ايضا ملاحظات المدير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ إنني اهزأ بملاحظات المدير .

فقال المسيو غروجورج وهو يطوي الورقة ويعيدها الى محفظته :

ـ يا لك من أم ! من يسمعك يحسب حقا أن هذا الولد ليس لك .

فقالت بضحكة قصيرة :

ـ يا له من صغير مسكين ! أما الآن ، فأنا صاعدة . طابت ليلتك .

فقال وهو ينهض بدوره : طابت ليلتك .

مشت بضع خطى نحو الباب ثم توقفت على حين غرة وقالت :

ـ هل سمعت ؟

ـ سمعت ماذا ؟

ـ جرس الباب المشبك . هل انت أصم ؟ هناك واحد عند الباب المشبك .

ـ واحد عند الباب المشبك ؟ في مثل هذه الساعة ؟

عبرت الحجرة بخطوة سريعة وتوجهت الى النافذة فأزاحت الستارة ثم بدلت رأيها فعادت الى منتصف الحجرة . وقالت بصبر نافد :

ـ لماذا لم تذهب ماريا لترى من الطارق ؟ لقد سمعت بالتأكيد . اراهن على أن تلك الحمقاء خائفة .

فقال زوجها :

ـ وما بك لتضطربي ؟ قلت لك لم يقرع من أحد .

لم تلق مدام غروجورج لكلامه من بال فمضت وفتحت باب القاعة وصاحت في البهو :

ــ ماريا . احدهم على الباب . هيا بسرعة .

ثم اغلقت الباب بعنف ورمقت زوجها بنظرة سخط . فقال :

ــ ماذا ؟

ــ ماذا ، يا صاحبي ، ألديك ما تقوله لي ؟

ــ لا شيء ابدا . لكنك تنظرين الي . قالت :

ــ أتحسب انني افكر بك ؟ بل انتظر من يفتح الباب .

سمعا وقع خطى على ممشى الحصباء فعلما ان ماريا قد استجابت اخيراً لنداء سيدتها .

وفي اللحظة ذاتها تقريبا رن الجرس مجددا . فهبت مدام غروجورج واقفة وهرعت نحو الباب . فقال المسيو غروجورج :

ــ هذه المرة سمعت . لكن كم أنت عصبية !

ــ هيا انظر ما الأمر ــ ثم أضافت على الفور وقد تبدلت نبرة صوتها :

كلا ، لا تذهب . لا داعي لذلك .

ــ انت خائفة !

ــ خائفة ؟ هل جننت !

فقال وقد داهمه قلق مباغت :

ـ قد تتخيلين أنه أحد الجناة ؟

ـ هل يقوم الجناة عادة بقرع أبواب الدارات ؟

وسادت فترة صمت . ثم فتحت الوصيفة باب القاعة وقالت :

ـ سيدتي ، انه رجل يرغب في التحدث الى سيدتي .

فسألها المسيو غروجورج :

ـ رجل ؟ من هو ؟

ـ لا ادري يا سيدي لم أتمكن من رؤيته .

فقالت مدام غروجورج وهي تأخذ المفتاح من يد الوصيفة :

ـ طيب ، أنا ذاهبة . اصعدي لتنامي ، يا ماريا .

فقال المسيو غروجورج :

ـ لن تذهبي الى هناك . أوعزي الى الرجل بأن يأتي الى هنا . لكن قبل كل شيء ، ماذا يريد ؟

فقالت ماريا :

ـ طلبت اليه أن يدخل ، لكنه أبى .

ومرت مدام غروجورج من بينهما وخرجت .

فصاح زوجها متظاهرا بأنه يهم باللحاق بها !

ـ انت متهورة !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكنها كانت قد بلغت الدرج الخارجي وتوجهت بسرعة نحو الباب المشبك فمنذ بضع دقائق وقلبها يخفق كفعله لدى الاعلان عن حادث خطير ، حتى أنها لم تشعر بالبرد الذي أحاط بها من كل جانب ونفذ من قماش صدارها الرقيق . كانت تعرف من هو الذي ينتظرها عند مدخل الحديقة . فهرعت نحوه تحدوها الرغبة في الوصول بسرعة ، ويخامرها في ذات الوقت خوف من أن تزول بسرعة عذوبة اللحظة التي تحياها . ما كان بمقدورها أن تمنع قلبها من أن يخفق . وما كان بمقدورها أيضاً أن تجعله لا يتعلل بالآمال . كانت تلك المرأة ، القاسية جداً على نفسها وعلى الآخرين، شديدة التعلق بالأباطيل حتى لتأول الرنين العادي لجرس نحاسي صغير على أنه نداء بصوت القدر . ولم تحترس ، على الرغم من تحاملها على الحياة ، من الاتكال على المفاجأة ، اذا كان ممكناً جمع تلك الصيغ المتناقضة . وعلى سخاء مفرط من جانب القدر الذي سيغدق عليها بغتة ما كانت تأنف من التوسل في طلبه .

تلك هي الآن تجري بجانب المشى الموحل مثلما يجري المرء الى موعد مضروب . كان الليل حالك الظلمة ، لكن مصابيح الطريق صنعت فوق الباب الشبكي شبه هالة ورأت خيال غيريه وراء القضبان بمنكبيه العريضين وراسه المطرق بعض الشيء . توقفت فقال :

ـ مدام غروجورج ؟

ـ أجل ـ قالت ذلك وسعت لان تتحدث بلهجة غير حادة فلم تنجح : فالاسم الذي ناداها به هذا الرجل أغاظها كثيراً ـ لماذا لم تأت مساء اليوم الى الموضع الذي حددته لك ؟

لم يجب ، مشت بضع خطى أخرى واقتربت من الباب فظهر لها وجه غيريه . فمضت تقول :

ـ انا سأقوله لك : كنت خائفاً .

ولم تقاوم دافعاً ، تساوت فيه الغبطة والغضب ، فمدت يدها على نحو مباغت عبر العوارض ووضعتها على كتفه . ثم سحبتها على الفور وقالت :

ـ سأفتح لك فتختبىء وراء هذا السياج لأعود وأصطحبك بعد ثلاثة أرباع الساعة ، هل تسمعني ؟ لا تخشَ شيئاً . أريد أن أساعدك ان كنت بحاجة للمال فسوف تلبّى .

دخل من الباب الذي فتحته دون أن ينبس بكلمة .
قالت : اختبيء بسرعة .

ثم أغلقت الباب ومالت صوب شجيرات المضاض التي توارى خلفها وقالت له بصوت هامس : بعد ثلاثة أرباع الساعة .

سألها المسيو غروجورج : من هذا ؟

فردّت بسرعة :

ـ رجل يطلب الاحسان .

ـ رجل يطلب الاحسان . في الساعة التاسعة . أرجو أن تكوني قد قلت له أن يمضي في سبيله .

ـ طبعاً .

ثم تبادلا التحية وصعدا الى غرفتيهما . وحين أمست مدام غروجورج وحدها جلست على سريرها وانتظرت . لم تعد تأتي بحركة . تنظر أمامها فلا ترى شيئاً ، فهي تائهة في تأمل عميق . وتراءى لها أن الأشياء التي تحيط بها أمست بمظهر آخر ، من غير أن تقدر أن تقول بماذا يختلف عن مظهرها السابق ، الذي عرفته حتى الآن . وكان شعورها قريباً لما يحس به المرء حين يعود الى

بيته بعد غياب طويل جداً . فتأخذ الاشياء التي يقع عليها نظره في الساعات الأولى ، طابعاً غامضاً ومألوفاً في آن معاً . ليست هذه أول مرة تشعر فيها أنها غريبة على العالم ، لكن انطباعها في هذا المساء كان على درجة من الشدة والوضوح حتى انتابها ما يشبه الفزع. وكأن قوة لا تقاوم عازمة على انتزاعها من الأرض ومن ذاتها .

قالت في نفسها : « ولكن ما بي ؟ أم هذه حال من يقبل على الموت؟»

اعلمها وقع الخطى وصفق الأبواب بتحركات زوجها والخدم . تلك الحياة التي تتحرك من حولها بكل وجوهها لا تشبه حياتها في شيء! الا كم من هوة بين نفس وأخرى !

لبثت ساكنة تنتظر أن تهدأ الدار تماما وتطفأ الأنوار . لكن نفسها لم تعرف الاضطراب لنفاد صبرها ، بل شعرت على خلاف ذلك بغبطة في إطالة تلك الساعة الغريبة التي كانت تحياها . وسرى في أوصالها نوع من الخدر . ولم تعد تبلغها أي نأمة . فلم لا تتحرك ؟

اخرجتها دقة ساعة تعلن انتصاف العاشرة من حلم تاهت في أرجائه . فتنهدت تنهيدة امرأة تستيقظ وقامت من غير استعجال . فتحت الباب بحركة هادئة ومطمئنة وأعادت إغلاقه ، وبدأت تهبط الدرج بحذر قطة وخفتها . ثم رفعت السلسلة وأدارت المفتاح في قفل باب الدخول .

ها هي في الخارج من جديد والريح تصفع وجهها . واختارت أن تمشي فوق المرج الذي يفصلها عن الباب الشبكي ، كي لا يسمعها احد ، ثم بلغت السياج الذي اختبأ غيريه خلفه . فقام لوصولها. قالت كأنها خمنت الظنون التي شغلت فكر ذلك الرجل :

ـ هل أنت واثق بي ؟

ــ لماذا تريدين أن تساعديني ؟

ــ هذا لا يهمك . هل نويت أن تتبعني ؟

ــ الى أين ستأخذينني ؟

ــ الى بيتي . فتمضي الليل فيه . سوف أعطيك ملابس ومالاً . وغداً ترحل في الثانية عشرة والنصف بينما يكون الجميع على الغداء. وما أعطيك إياه ، سيكون كافياً لتبلغ به الحدود . فكر في الأمر .

ــ وماذا لو غدرت بي ؟

فتوجهت الى الباب ووضعت المفتاح في القفل ففتحته ، ثم قالت لـه :

ــ هيا انصرف .

فلبث ساكناً ، صامتا ، واقفاً على خطى من مكان وقوفها . وبعد هنيهة قـال :

ــ سأبقى .

أغلقت الباب من غير أن ترد بكلمة . ومرت من أمامه دون انتتوقف فتبعهـا .

قالت له بصوت هامس وهما يقطعان المرج :

ــ تسند على الجدار وأنت تصعد الدرج حتى لا يسمع الدرجات صرير . سوف أقودك من يدك حين نبلغ الطابق الأول . فالمشى طويل جـداً .

ــ اذكر ذلك .

ــ هناك قطع أثاث يمكن أن ترتطم بها . وإذا ما حصل ذلك ، فإياك أن تتحرك .

بلغا الدرج الخارجي وصعدا الدرجات بصمت . وحين اصبحا على عتبة الباب همست قائلة :

ــ فكر ايضا . بوسعك أن تهرب فوراً إذا شئت .

كانا قريبين جدا احدهما من الآخر حتى تلامس ذراعاهما فتراجعت قليلا . وميزت رغم الظلمة حدود كتفيه اللذين كانا يتجاوزانها ، وشكل رأسه . وتبينت ان نظره متجه إليها وأنه يسعى بدوره لأن يرى قسمات وجهها . وهبت ريح جمودية من حولهما . قال :

ــ إنني اثق بك .

وصعدا . سمعت في هدأة الليل صوت انفاسه وصرير الدرجات الخشبية وهي تئن تحت ثقل ذلك الجسد الكبير . توقفت عدة مرات واضعة يدها الآمرة على كتف غريبه لتوعز إليه بالبقاء ساكناً . وجعلتهما دقات الساعة يجفلان .

حين بلغا الطابق الاول ، قبضت على يده بقوة ، لتقوده خطوة فخطوة بين خزائن الأواني والصناديق الخشبية والكنبات ، التي دفع الهوس بالمسيو غروجورج لأن يملأ بها الرواق كله . كانت ماضية كأنها في حلم ، يملؤها التصميم والرعب في آن معا . الى جانب غبطة من شأنها أن تشد من عزيمتها وهي على شفا الهاوية . ومع كل ذلك لم تكن تجرؤ على أن تتساءل لماذا كان قلبها على تلك الدرجة من الخفة. فالزمن في نهاية المطاف ، قد علم تلك المرأة العنيدة ، ان مجرد تفحصها لسبب سعادتها كفيل بالكشف عن هشاشتها . كانت تعرف قيمة التوهم . فاخذت تلك المسيرة وسط الظلمة تداعب خيالها ، حتى باتت تخشى ، وهي تتلمس الجدران والاثاث بأصابعها المتباعدة ، حلول

اللحظة التي ينبغي فيها اضاءة المصباح ، وتبادل كلمات من شـأنها ان تبدد نشوتها .

بعد ذلك بدقائق أصبحا في القاعة الصغيرة التي توالت عليهـا ، وهي فيها ، أعوام عديدة من السأم والعزلة . فأغلقت الباب وتمتمت :

ـ انت فوق غرفة زوجتي . لا تحدث ضجيجا حين تمشي . واذا ما قرع أحدهم الباب فلا ترد مهما كان السبب . ثم أضافت :

ـ سوف أشعل النور . لا تتحرك من مكانك .

وحزر أنها تقطع الغرفة ، لا من وقع خطاها ، لانها كانت تمشي كمن لا يلقي بوزنه على الارض ، وانما من حفيف ثوبها . كان الحفيف يتحرك من حوله عن يمينه وعن شماله ، كصوت امرىء يبحث عن اخر وسط الظلمة وهو يهمس باسمه . ثم أجفل وهو يسمع احتكاك عـود الثقـاب .

كانت على بعد خطوتين منه فتبدت له صورتها الجانبية الصارمة والرقيقة وهي عاكفة على انارة المصباح وتركيب العاكس . بعد قليل غمر النور وجهها كله باستثناء جبهتها . اذ بدا حاجباها السميكـان الاسودان المقوسان كالقناطر ، كأنهما يحملانها . انقضت بضع ثوان بدت أثناءها تلك المرأة جميلة مع أنها على عتبة الشيخوخة . ولو رأيتها لقلت ان قوى الحياة الاخيرة تجمعت فيها لتضيء تلك النظرة وتجمل تلك القسمات .

ترددت هنيهة واستدارت بغتة نحـو غيريه ثم قالت وهي تشير ناحية الكنبة من غير ان ترفع نظرها :

ـ سوف تنام هناك . سأحضر اغطية .

وبدا عليها التردد مجددا ثم توجهت صوب الباب وقالت بصوت متهدج بعض الشيء كأنها تتكلم قسرا :

ــ أنت لم تتعش دون ريب . سأحضر لك ما تأكله .

ما كان ذلك الا مبررا لانصرافها ، فقد بدا مستحيلا عليها البقاء في حضرة ذلك الرجل بعد أن أخذ النور يسطع في الحجرة .

دلفت الى المطبخ مسرعة فوضعت فوق طبق زجاجة من النبيذ وخبزا ولحما مبردا . كانت يداها ترتعشان . ولاحظت ذلك فازداد اضطرابها شدة حتى تراءى لها عدة مرات أنها سترمي الطبق فوق الدرج . وحين بلغت ممشى الطابق الاول ، اضطرت لان تجلس فوق صندوق خشبي لتلتقط أنفاسها التي تقطعت لشدة الانفعال . ولقد أفزعها صوت لهاثها : فالسكون المخيم على الدار بدا وكأنه امتلأ بدوي هائل .

حين دخلت كان غيريه جالسا على الكنبة كأن التعب قد هده ، فأذهلتها ثيابه بمظهرها البائس . كانت آثار وحل الطرقات تغطي حذاءه وأسفل بنطاله . أما معطفه الممزق في عدة أماكن فينم على استعمال طويل ومستمر .

قام من فوره وأقبل نحوها :

ــ لِمَ كل هذه الطيبة حيالي ، يا مدام غروجورج ؟

رأت عينيه المتوقدتين تحدقان في عينيها . ولم تجد لديها القدرة على تحمل تلك النظرة . فقالت بشيء من المباغتة :

ــ لا تدعني مدام غرو جورج . خذ هذا الطبق . بينما تتناول عشاءك سأهتم بأمر الاغطية .

كان كل ما فيها من طاقة يفضح أمرها . فبلغت الباب بعناء وخرجت . كانت بحاجة لأن تغرق في العتمة لتخفي وجهها الملتهب وتساءلت ان كان غيره قد لاحظ اضطرابها . فكيف السبيل الى دخول القاعة الصغيرة مجددا والتصدي لفضول ذلك الرجل ؟ وأية أفكار ستساوره ؟

أمسكت المصباح بيديها الاثنتين لتهبط الى الطابق حيث توجد الاغطية . احست بركبتيها تتراخيان . تلمست الجدران لتعثر على الخزائن الكبيرة التي تحتوي الشراشف والاغطية ففتحتها دون ضجة لكن تلك الاغطية لم تبد لها سمكية بما فيه الكفاية . فكرت هنيهة ثم اخرجت من خزانة اخرى عباءة ثقيلة مبطنة بالفرو ، خاصة بالمسيو غروجورج . ثم صعدت مثقلة الذراعين وهي تتعثر بكل خطوة تقريبا.

قالت وهي تسقط العباءة في وسط الحجرة :

ـ هاك . لن تجعلك هذه تشعر بكثير من البرد .

تحول نظرها فورا الى الطبق فرأت الخبز واللحم على حالهما والزجاجة لم تمس . فقالت باستياء :

ـ لم تأكل شيئا .

فهز رأسه قائلا :

ـ لا استطيع . اني قلق جدا .

كان بودها أن تقول شيئا يطمئنه لكن الكلمات أعوزتها . فقسوتها المعتادة تجاه نفسها وتجاه الآخرين منعتها من الكلام برقة . فتنهدت . منذ لحظة وشعور غريب يخامرها بأن ما تفعله هو انتقاص لها . لا لانها ارتكبت عملا طالحا ، لكنها في هذا العمل الصالح لم تعرف نفسها . قد تكون المرة الاولى في حياتها التي خمنت فيها نوع الغبطة التي تفعم

النفس الصالحة وهي تفعل الخير . ثم ارتد الحزن ليغلف قلبها مثلما يغمر موج البحر الحصباء . قالت :

ـ سادعك الان . وغدا صباحا سوف أوعز بأن لا يفتح أحد هذا الباب قبل العصر . أما اذا قرع أحدهم فلا تجب . اياك أن تحدث ضجة . سأعود الى هنا في حدود الساعة التاسعة ، بعد أن يكون الجميع قد نزلوا . وسوف آتيك بالمال والملابس التي وعدتك بها .

بدا عليه التردد هنيهة ثم سألها قائلا :

ـ الا ترين من الحكمة اكثر أن أرحل في هذه الليلة ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ حبذا لو تكرمت الان باعطائي المال الذي وعدتني به . . .

ـ انت ترتاب بي .

ـ كلا ، يا سيدتي . لكنني في وضح النهار معرّض لان يروني .

أعوزها الجواب فأحست بغضب يستولي عليها فيجعلها الى حد ما تثوب الى رشدها . هذا الرجل يقاومها فكيف يجرؤ على ذلك ؟ وعادت اخيرا تقول :

ـ انت ترتاب بي .

ـ لو انني أرتاب بك لما كنتُ هنا .

كان لهاته مسموعا مثل وحش يخشى الوقوع في الشرك . ولبث واقفا يفرك يدا بيد . ما كان عليه أن يخاطب مدام غروجورج بتلك النبرة ولبثت تنظر اليه بصمت ووجهها في الظل بينما وقعت بقعة كبيرة من

النور على أسفل تنورتها . كانت نظرتها قاسية حتى غض طرفه وأطرق فوقعت عينه على الرأس المدبب لجزمتها الصغيرة السوداء ، ووجده يشبه سلاحا . ثم تخيل رغما عنه تلك القدم وهي ترفس كلبا أوتسحق رأس طائر . قالت :

ـ كان في مقدورك ان تنصرف قبل قليل . لقد فتحت الباب . لماذا بقيت هنا ؟

ـ سامحيني يا سيدتي . تكلمت من دون تفكير . انني اسلم امري اليك .

وأرغمه دفء الحجرة وما ناله من تعب على الجلوس . فتأملته وقتا من غير أن تتكلم ، وراته يطرق راسه ويرفع يديه الى خديه كأنه ينوي أن يخفي وجهه . فقالت :

ـ انت متعب . عليك أن تنام .

ثم اضافت بمشقة :

ـ لا تخش شيئا . لا أريد لك الا الخير . أقسم على ذلك .

ورفع نظره نحوها لكنها كانت قد استدارت وغادرت الحجرة .



- ١٠ -

ها هي في غرفتها من جديد ، جالسة أمام مكتب صغير وقد فتحت درجا منه . هل تكفيه ثلاث مئة فرنك ؟ ليس في حوزتها غير هذا المبلغ كانت تتمناه مضاعفا مرتين أو ثلاث مرات . كانت تود لو تعطي ذلك البائس خمسة آلاف بل عشرة آلاف فرنك . لكن تلك الأريحية لم تمنحها اي توهم حول ذاتها . فهي تعرف حق المعرفة أنها لو كانت طيبة حقا ، لقامت على الفور فأعطت تلك الاوراق النقدية الثلاث الى ذلك الرجل التعيس ، الذي سيحرمه الخوف من أن يذوق طعم الرقاد واضافت الى المبلغ بزة تختلسها من عند زوجها ومعطفا سميكا ، ولفتحت له الباب الشبكي ، بعد أن تكون قد تحدثت اليه وصافحته ، لتبعث الطمأنينة في نفسه وتجعله يشعر أنه ليس وحيدا في هذا العالم . الا أنها بدلا من ذلك : أبقت عليه أسيرا في بيتها واقترحت عليه ان يهرب غدا في وضح النهار . وحسب أحدهم آنذاك أن يلقي نظرة من النافذة عن غير قصد ، حتى يراه وهو يعبر الحديقة . ولم تجد قبل قليل ما ترد به على غيريه حين طلب اليها أن تدعه يرتحل .

لم تكن راغبة في أن تدعه يرتحل . كان يروق لها أن تجد نفسها سيدة مصير ذلك الرجل ، وأن تقوم الى حد ما بدور القدر . ولايلزمها لو شاءت أن يكون طليقا وسعيدا ، الا ان تصعد الى القاعة الصغيرة حاملة المال . ولو شاءت على النقيض من ذلك وبدافع نزوة عابرة ، ان تراه موقوفا ، لتحقق ذلك بكل يسر . ما عليها الا التوجه الى مركز الشرطة .

مرت في ذهنها تلك الخواطر فأثارت الاضطراب في نفسها . اذ لم يسبق لها أن أعطيت مثل تلك القدرة قط . مما جعلها تشعر بما يشبه الفزع ، وكأنها تخشى الكلمات الرهيبة التي يمكن أن يتلفظ بها فمها والحركة التي في وسع يدها أن تقوم بها . وغالبا ما انتابها شعور بأن سعادتها متوقفة على سعادة شخص اخر ، على نحو ما كانت سعادة غيريه متوقفة عليها في الساعات العشر أو الاثنتي عشرة التالية . وباتت مقتنعة الان بأن في ارادتها من الضعف والقسوة والتردد بقدر ما في الارادة التي تتحكم بحياتها .

لكن هل يسعها أن تتخيل لحظة واحدة انها قد تغدر بذلك الرجل ؟ ان المسألة لا تتعلق بالغدر به وانما بالابقاء عليه بالقرب منها أطول فترة ممكنة . فغدا سوف يمضي الى غير رجعه . وهي تعرف ذلك لكنها ترفض التفكير فيه . لم تكن تريد أن تتفكر فيما ستؤول اليه حياتها بدءا من عصر يوم غد . قد يقع ما ليس في الحسبان أبدا . فيغير مجرى حياتها وينتزعها من السأم الرهيب المهيمن على أيامها الفارغة .

أيكون الليل والسكون هما اللذان يوحيان إليها بتلك الأفكار ؟ وضعت الأوراق النقدية في مظروف كأنها تتوقع أن تقوم بتصرف حكيم لتعيد الى فكرها كل التوازن . أما وهي راغبة تلك الرغبة الشديدة في في بقاء غيريه وإياها تحت سقف واحد هذه الليلة ، فما الذي يمنعها من أن تصعد لعنده ؟

هذا السؤال جعلها تضحك بصوت عال وأثار غضبها . تراءى لها أن تتمسك بخط السلوك الذي اختارته وأن لاتتبع منحدر أفكارها . وعليها كبداية أن تستلقي وتنام .

نزعت ملابسها بتمهل ونفخت على المصباح فأطفأته ثم اندست تحت الأغطية . كان هواء بارد يدخل من النافذة المفتوحة ويصل اليها . اجتاحتها الرعشة . فجسدها لم يدفء السرير بعد وكانت اسنانها

تصطك . أهو يشعر فوق بالدفء ؟ قد تكون خطرت بباله فكرة حسنة بأن يزيح الأريكة ليضعها بين النافذتين . لكن ضجيج احتكاكها بالأرض قد يوقظ زوجها . قد ينام إذن والنوافذ مغلقة . كم بدا في هيئة متعبة وهو يتهالك فوق الكنبة ! هل سيفكر على الأقل في خلع ثيابه ؟

انقلبت على الجانب الأيسر علها بذلك تجد النوم الذي جافاها على الجانب الأيمن . فهي راغبة في أن تنام . لكن الظلمة عامرة بصور تسعى لأن تزيحها دون جدوى . كان هناك شيء يرغمها إرغاما على أن تعيش الساعة المنصرمة دقيقة بدقيقة ، على نحو مايقوم به ممثل أثناء التدريب حين يجد نفسه مرغماً على إعادة مشهد أسيء تقديمه . الواقع أنها كانت تجري تعديلات طفيفة على الحركات التي تعيد تنفيذها في فكرها ،فيحل ماكانت تنوي أن تقوم به محل الذكرى الدقيقة لما قامت به . وهكذا وجدت نفسها تحضر لحافاً إلى غيريه وتساعده على إزاحة الأريكة .

بعد أن دخلت في صراع مع نفسها بعض الوقت ، استسلمت للانسياق مع اللعبة التي اقترحها عليها دماغها . فهي الآن تبتسم لذلك الرجل وتخاطبه من غير شدة . أية دفقة حنان دفعت بها لأن تمسك بيده ؟ لقد انحنى امامها انحناءة تنم على الخضوع والعرفان ، بينما وضعت أمامه ، وقد أفعم قلبها غبطة لفعل الخير ، طبقاً مثقلا بالأطعمة الشهية . عندئذ اكتفى بقدح من النبيذ كرعه دفعة واحدة .

كانت قد حرصت على أن تضع في ذلك النبيذ ، الذي شاهدته وهو يشربه بنهم ، مسحوقاً ذا مفعول أكيد ينوم على الفور . أن تنوم غيريه ؟ وماذا ستجني من تنويمه ؟ جلست في سريرها . كانت أغطيتها تثقل عليها بدفئها : فكفاها وقدماها دبقة من العرق ، عليها أنتنهض لتضيء المصباح وتغلق النافذة مادامت لاتستطيع النوم ولا تقوى على عدم الانسياق وراء الاحلام .

ازاحت الاغطية جانبا بعد تردد بسيط وأسرعت فاغلقت النافذة . أحكم البرد قبضته على ساقيها وصدرها فأخذت ترتعد . ولقيت

بعض العناء في العثور على علبة الثقاب . وحين لمع النور أخيراً في الغرفة، ورأت قطع الأثاث المعهودة من حولها ، والنوافذ والستائر وكل الاشياء التي تحدثها عن حياتها ، وتذكرها من هي ، استولى عليها الخجل وهي تتذكر الأفكار التي راودتها ، فاحمرّ وجهها .

دقت الساعة العاشرة . امامها ليل طويل شبيه بدرب ينبغي أن تقطعه بمشقة لتصل الى الفجر . فحين تبيض السماء وراء أشجار الحديقة في الدقائق الأولى من الصباح ، وحين يتسرب شيء من البهاء من بين شقوق المصاريع الخشبية ، ستكون ، كما يتراءى لها ، أقل اضطراباً وأكثر شجاعة . فمعاناتها القصوى تتمثل في الجمود الذي يحكم به الليل عليها . اما النهار فينجدها بالسعي في البرية . ناهيك بأن الدار عامرة بعدد لايحصى من المشاغل ، وإصدار الأوامر للخدم ، ومراقبة عمل كل واحد منهم . وتذكرت أن صاحبة المصبغة سترسل إليها الغسيل النظيف في صباح الغد ، وأن عليها أن تدفع قيمةالحساب فمن أين تأتي بالمال إن كانت ستعطي الأوراق النقدية الثلاث الى غيريه؟ واذا طلبت من المسيو غرو جورج فسوف يطالبها بإيضاحات . لايهم ! ستقول للصغيرة فرناند إنها ستسدد الحساب في الاسبوع القادم .

لم تنسَ أيضاً ماتوارد على ذاكرتها ، فقد وعدت انجيل بأن تكلف فرناند لتسلمها شيئاً خاصاً بها . لقد تواردت المنغصات دفعة واحدة ! فتلك الفتاة أيضاً تطلب شيئاً من المال . لكن لايسع مدام غرو جورج أن تتردد ثانية واحدة مابين طلب انجيل وحاجة غيريه .

أما الآن وهي وحيدة مع ذاتها ، تقوم بسبر أغوار قلبها، ذلك القلب الغامض الذي حرمته الحياة من كل سرور ، فقد فهمت ماكان يثير سخطها على انجيل . لقد غمرتها غبطة خفية ، وهي ترى على ضوء الغاز ، ذلك الوجه الحزين وآثار الضرب على اللحم الذي أدمي . فالقدر ثأر لها في النهاية ولن يسبب لها ذلك الجمال من ضيق بعد اليوم أبداً .

نهضت من على سريرها حيث كانت جالسة وعبرت الغرفة . لابد أنها فقدت صوابها حقـاً حتى تتخيل تلك الأشياء ! فما إن تلبث لحظة من غير حركة حتى يشرع خيالها يعمل فمشت بضع خطى أخرى وهي مترددة قلقة ، كأنها تخشى من حدث وخيم يوشك أن يوقع . وبغتة دقت بقبضتيها على صدرها . لقد تخبطت داخل متاهة مظلمة حتى تكشفت لها الحقيقة : ما تخيلته هو عين الحقيقة . انها تحقد على انجيل بقدر ما تحقد امرأة على غريمتها . سوف تمنع غيريه من الرحيل لانها باتت متعلقة به تعلق الجوارح بفريستها . فكان بودها أن تنومه وأن تدس له مخدراً وأن تفعل كل ما صورته لها أحلامها الساعة . لقد رفضت طوال شهور أن تفهم ما كان يعتمل داخلها لانها كانت خائفة . لقد خافت من الحياة على الدوام . لو لم تكن خائفة لكانت اقل قسوة حيال الآخرين . لكن حذرها الطبيعي حملها على أن ترى كل الذين يقاربونها أعـداء لها وهي بينهم . وما زالت تعتقـد وهي في الخامسة والاربعين ، أن المرء يستطيع أن يتخلص من أهوائه اذا لم يفكر بها ، كفعل القاضي الذي يبعث بمجرم الى حبل المشنقة ثم يتوجـه ليتناول غداءه . فيا للكارثة المروعة التي تغوص فيها الآن ! انها تحتجز رجلا في بيتها وعليها أن تطلق سراحه بعد بضع ساعات . فكيف ستكون حياتها من بعد ؟

أعاد وضوح ذلك السؤال لذي طرحته على نفسها شيئاً من الهدوء الى روعها . فحياتها لن تتغير بكل تأكيد . والايام سوف تكون شبيهة بما عرفته من أيام . مواعيد الطعام لن تتبدل أبدا ، وكل شيء سيظل يتبع خطا لا محيد عنه . وهي سوف تتألم كما في الماضي وربما أكثر وقد يحمل لها السن ، على النقيض من ذلك السلام والطمأنينة . لكن ذلك ما تفكر به ، انما همها ما ستقوم به على الفور . فالساعة التي تمر بها الآن لم تكن مثل غيرها ، بل هي ساعة استثنائية تحتل مكانة

خاصة بها ضمن سنين من السأم ، وعليها أن تدرك هذا الامر وأن تحقق منه الفائدة . فهي في هذه اللحظة موضوع نعمة من قدرها الذي من عليها بشيء ما ، ولا يسعها أن تقبل به . والا فماذا كانت تأمل من ارغام غيريه على مبيت الليلة في الدارة ؟ لقد توقفت عند منتصف الطريق من خطة لم تصرح بها لنفسها ، وكانت تعوّل دون شك على ظرف خارق للعادة ، كأن مسألة قدرتها على اخفاء رجل في القاعة الصغيرة لم يكن شيئاً خارقاً أكثر مما عداه .

خطرت ببالها فكرة الصعود الى ذلك الرجل واعطائه المال واخلاء سبيله على نحو ما كان في نيتها أن تفعله بادىء الامر . فوجود غيربه في المنزل جعلها غاية في الشقاء . لقد طلب هو نفسه أن ينصرف . ستقوده اذن الى الباب الشبكي وتقول له وداعاً ، لتكون تعزيتها على الاقل وسط ما يغمرها من يأس ، أنه سيكون مدينا لها بقدرته على مغادرة البلاد .

الا أنها لا تستطيع ذلك . فمظهر تلك المرأة ، من رباطة الجأش والحزم ، يخفي تحته الكثير من الوَجَل والكثير من الضعف . على حين غرة شعرت أنها مرهقة ، مرهقة من الحياة ومن ذلك الصراع الدائم في قلبها . ودقت الساعة معلنة العاشرة والربع . لا ريب في أنه ينام الآن نوما عميقا . فكيف السبيل الى ايقاظه والطلب اليه بأن ينصرف ؟ كان ينبغي فعل ذلك قبل قليل . كان عليها أن تقول وأن تتصرف . أما الآن فقد فات الأوان وامسى الوقت متأخراً .

عادت ففتحت النافذة واطفأت المصباح وأوت الى سريرها . اذا لم يكن في وسعها أن تنام ، فان بمقدورها على الاقل أن ترقد ساكنة مغمضة العينين . وقد يأتيها النوم مخدوعاً بذلك المظهر . وهكذا حاولت أن تبدد الساعات بعد أن انتظرت قدومها بنفاد صبر بلغ حد اليأس . عبء ثقيل ينوء به صدرها فتعجز عن التقاط انفاسها . ونشأ لديها

انطباع بأنها بلغت حدود الالم وانها على وشك أن تموت . كانت الظلمة ملأى بالدوي . وجعلتها الهلوسة تسمع ساعة الطابق الارضي تدق بلا انقطاع . كان الدم في عروقها يجري بسرعة قصوى بينما تصفع ريح جمودية وجهها من غير أن تنعم عليها ببرودة منعشة . واضطرت لان تنهض مجددا لتغلق النافذة . وحين طلع الفجر وجدها وقد أغفت أخيرا في سريرها وبقربها المصباح الذي لم تجد الجرأة على اطفائه .

* * *

- ١١ -

كانت تجلس في سريرهـا متلفعة بمبذل من الراخيـة(١) ، تراقب الخادمة وهي تشعل النار . وبدأت السـنة صغيرة من اللهب تجري تحت الحطبات الكبرى وقد فـاح في جـو الغرفة أريج خشب بشكل خفيف .

قالت مدام غروجورج :

ـ كيف حال الطقس اليوم ؟

ـ أشد برداً من الأمس ، يا سيدتي .

ـ هل النار مشتعلة في غرفة الطعام ؟

ـ أجل ، يا سيدي . منذ نصف ساعة .

ـ طيب . سأنزل بعد لحظة . وتتولين ترتيب الغرفة أثناء غيابي .

ـ سيدتي لن تتناول فطورها في السرير ؟

ـ كلا . إذهبي الى اويز وقولي لها بأن تحمله الى غرفة الطعام .

ونهضت فعبرت الغرفة وقبل أن تدخل حجرة الهندام قالت :

ـ تذكرت : لا ضرورة لأن ترتبي القاعة الصغيرة .

---

(١) قماش ناعم من الصوف .

فاستدارت الخادمة نحو سيدتها وقالت وقد بدت عليها علائم الدهشة :

ـ ماذا يا سيدتي ؟

ـ ماذا ؟ ألم تفهمي ؟ لابأس . بعد انتهائك من ترتيب غرفتي يمكنك أن تخرجي . فأنا أمنحك اجازة طوال الفترة الصباحية . اما الحجرات الاخرى فتقومين بترتيبها بعد العصر .

اغلقت على نفسها باب حجرة الهندام وجلست أمام منضدة الزينة. كانت خلصتان رماديتان طويلتان تحيطان بصدغيها . إنها تقوم في العادة بإخفائهما ساعة تستيقظ داخل كتلة شعرها الأسود ، حتى لا تراهما من بعد حين تنظر في المرآة . لكنها شعرت هذا الصباح بالرضى المرير وهي تتحقق من وجودهما . فهما تضيفان على عمرها خمسة اعوام او ستة . ومع ذلك فقد بدا لها أن هاتين الخصلتين اللتين تزيدانها شيخوخة على ذلك النحو ، تسبغان على وجهها عذوبة لم تعرفها البتة من قبل . وتنهدت وهي تفكر بان تلك العذوبة ناجمة ، من دون شك، عن مظهر الاحباط الذي شاهدته في اعماق عينيها . سيتوجب عليها حتى موتها أن تستيقظ صباحاً وتواصل الحياة من حيث تركتها . ولن تعفى من تلك المهمة يوماً واحداً . اما الليل والاحلام الفريدة التي تراها احياناً فإنها تزيد رتابة ساعات اليقظة حدة . فقبل خمس دقائق كانت ماتزال غارقة في أحلام لم يعد بوسعها أن تتذكرها ، فكانت تشعر أنها عائدة من بلد بعيد ، ليس للكآبة من مكان فيه ، بلد يناصب دروب الآلام العداء .

مشطت شعرها وغسلت وجهها بماء الورد ثم دلفت الى قاعة الطعام . اما زوجها الذي كانت تسمعه يتحرك في الطابق الأول ، فلم ينزل بعد ، رغم أن الساعة قاربت الثامنة . وأسعدها ذلك الوضع. فقد بدا لها الحديث مع المسيو غروجورج ، في الحالة النفسية التي

كانت عليها ، أمراً مستحيلاً في الواقع . فالعذاب كان ينهكها مثلما تنهك المريض الحمى . ولم يتبق لديها إلا القوة الضرورية للسير في الخطة التي وضعتها حتى النهاية. كانت ترتعد خوفاً من أن تتضافر جهود الأشخاص مع الأشياء ، لتزيد عبئاً اضافيا على مهمة ، تشعر سلفاً أنها غاية في الثقل .

حين انتهت من شرب القهوة صعدت الى غرفتها ثانية فوجدتها مرتبة فارتدت ملابسها بسرعة . وانقضى أكثر من ربع ساعة قبل أن تسمع المسيو غروجورج ينزل أيضا على طريقته البطيئة الثقيلة ، التي كانت تمقتها ، وفي هذه اللحظة بشكل خاص ، أكثر من أي شيء في العالم . كان قلبها يطرق بعنف . فهي تخشى اللحظة التي يتوجب عليها أن تقوم فيها بالمبادرة وتعلم حق العلم أنها قد دنت . وتأكدت بدافع من الحذر أن الوصيفة في المطبخ فصعدت الدرج المؤدي الى الطابق الأول .

حين صارت امام باب القاعة الصغرى ، قرعت ، ناسية أنهاأوصت غيريه بأن لا يرد على نداء من هذا النوع ، وفي ذات اللحظة وضعت المفتاح في القفل وفتحت .

لم تستطع في بداية الأمر أن تتبين شيئاً ، فقد بوغتت بتعتيم لم تتوقعه ، ثم رأت غيريه على حين غرة ، واقفاً في وسط الحجرة . قالت بصوت هامس :

ــ سأفتح المصاريع الخشبية . لا تقترب من النافذة . يمكن أن يروك من الحديقة .

تلفظت بتلك الكلمات على عجل كأنها تريد إخفاء ما انتابها من اضطراب . وعبرت القاعة واتجهت الى المصاريع ففتحتها . أما غيريه فمشى بضع خطى صوب الباب وبقي يحدق في مدام غرجورج صامتا .

ثم اضافت وهي تستدير صوبه :

ــ لقد أوعزت بأن لا يأتي أحد الى هنا هذا الصباح . فليس هناك ما تخشاه أبداً .

لكنها كانت ترتجف من شدة الانفعال فاضطرت للقعود . لقد احست بالدم يهرب من وجنتيها ، وغضت الطرف لعجزها عن تحمل النظرة التي سلطها ذلك الرجل عليها . قالت :

ــ تعال اقعد . كلا ، ليس قرب النافذة . بل هنا .

وأشارت الى كنبة غير بعيدة عن مكان جلوسها . فقطع الحجرة بخطى متعثرة كخطى الأعمى ، ثم وقف امامها وتسائل على نحو مباغت:

ــ هل يمكن أن تقسمي لي بانك في الوضع النفسي ذاته ، مثل أمس مساء ، يا سيدتي ؟ ما إن جاءها صوته الأجش حتى أجفلت . لكنها سيطرت على اضطرابها وقالت دون ان تتحرك :

ــ انت لا تزال خائفاً . لو كان في نيتي توقيفك لأرسلت في طلب الشرطة أمس مساء .

سمعته يلهث ورات بطرف عينهـا انه يضع يديه على صدره كمن يجد صعوبة في التنفس . وظلت ساكنة رغم قلقها . بعد برهة ، وحين تغدو أكثر هدوءاً ، ستنهض وتغادر هذا الرجل حتى ساعة هروبه . اخيراً قال :

ــ سامحيني . فانت لا تدرين ما الليلة التي امضيتها .

كيف ؟ أنت لم تنم ؟

ــ استيقظت قبل الحادية عشرة بقليل ولم اعد أقوى على الرقاد مجدداً . إن وقع الخطى هو الذي ايقظني .

ـ كنت تحلم .

ـ اعتقدت وقتاً طويلا بوجود شخصي يمشي حقاً في الممر ، بل اتنين ، ثلاثة أشخاص يصعدون الدرج . ثم تراءى لي أنني أسمع طرقاً على الباب ، بين دقيقة وأخرى ، طوال الليل .

ـ يا لها من مشاعر صبيانية ! كان عليك أن تتعقل ، وترغم نفسك على الرقاد .

ـ انتابتني الحمى .

تذكرت كيف امضت ايلتها هي نفسها وجعلتها ذكرى آلامها تشعر بالشفقة على عذاب ذلك الرجل . لكن شيئاً ما حال بينها وبين الانصراف الى تنفيذ الخطة التي وضعتها . اضاف قائلا :

ـ ان المرء الذي يعيش متخفيا وحيدا ، على نحو ما فعلت طوال شهور ، يصبح عرضة لكافة اشكال الهلع . وعليه فاني لاقسم بأن رجالا كانوا يروحون ويغدون في الحديقة تحت هذه النوافذ . وقلت في نفسي لعل خادما سمعني صدفة وانا داخل مساء أمس . وان الدار مطوقة .

فقاطعته بصوت عاد الحزم يتجلى فيه . وبدا لها أن ضعف ذلك الرجل يثأر لها من ذلك التخاذل البسيط الذي وجدت عليه نفسها بالامس ، ويثأر لها من دموعها . فقالت :

ـ الا تحمر خجلا وانت تسرد لي قصة مخاوفك ؟ الى أين سيؤدي بك كل ذلك ؟ الا انني لا أستطيع منعك من ان ترتعد اذا ماكنت خائفا مذعورا .

ـ سيدتي . أريد ان انصرف . انتابني الخوف . اجل . ولا ازال خائفا . لكنني أريد ان انصرف . حتى وان لم توافقي على منحي ذلك المبلـغ ...

كان جوابها الوحيد أن نهضت وأخرجت من نطاقها المظـروف الذي اعدته من قبل . ان ما رأته على غيريه من قلق جعله مستضعفـا في نظرها ، فهنأت نفسها لأنها لم تنم على المشاعر التي احست بها نحوه .

قالت وهي تناوله المال : « هاك » . ثم اضافت تقول في نفسها : « خذ يا جبان ! »

ـ لم تفعلين ذلك ؟

هذا شأني . هيا ، خذ هذا المال .

فرضخ ووضع المظروف في جيبه . ثم حوّل نظـرة مستفسرة فاستقرت عليها وقال على شبه مضض : « شكرا » . قالت وهي تقعد مجـددا :

ـ لا فائدة من التفكير في الانصراف الان ، ينبغي أن تنتظر حتى الثانية عشرة والنصف .

ـ طيّب ، يا سيدتي .

ـ سوف أتركك حين يغادر زوجي الدار . فلو خطر على بالـه ان يأتي الى هنا ...

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ اطمئن . لن افتح ، لكنني سأكون هنا على الاقل حتى أرد على ندائه . تذكر على كل حال ، اذا قرع أحدهم وانت في الغرفة وحدك فلا تجـب .

ـ طيّب يا سيدتي .

قامت فمرت من أمامه دون أن تنظر اليه ومضت لتقف حيال النافذة . وتمتمت :

ـ لماذا لم يخرج بعد ؟ مع أن الطقس حسن .

جعلها نفاد الصبر تُعْمِلُ أظافيرها في طرف الستارة التي تقف حيالها . كانت تعرف أن غيريه يتفحصها بعينيه ويتابع حركاتها واحدة فواحدة . سوف تنقضي السنون لكنها ستظل تتذكر هذا الوقت دقيقة بدقيقة ، وتتذكر الحديقة الميتة ، ووحل الماشي وقد جمده البرد ، ودفء الغرفة التي تقف فيها ولهاث ذلك الرجل الخائف .

سألته دون ان تتحرك :

ـ ماذا كنت تفعل في باريس ؟ كيف كنت تؤمن معيشتك ؟

ـ كان معي شيء من المال يوم هربت .

ورغبت في أن تسأله من أين جاء بذلك المال لكنها اثرت الصمت ، وقد تحرك فيها الحياء على نحو مباغت . لقد ارتأت بدافع من غرورها أن تتصنع اللامبالاة وأن تتكتم على كل الاسئلة التي كانت تتحرق شوقا لطرحها على ذلك الرجل ، لكن قلبها انقبض فزعا وهي ترقب انقضاء ساعة لن تجود عليها الحياة بمثلها أبدا . فما الذي أبقاها ساكنة على ذلك النحو قرب النافذة : رباطة الجأش أم الحمق ؟ ما همها أن تكون قوية أم ضعيفة ؟ كانت تتعذب . لو انها غادرت القاعة الصغرى قبل بضع دقائق لتفادت الاغراء العنيف في التحدث الى غيريه . أما الان فهي لا تتمنى شيئا بقدر رؤيته وهو ينصرف . سينتهي كل شيء في الثانية عشرة والنصف . سوف تستعيد هدوء روعها وسط القنوط ، لكنها لن تقوى على التقاط أنفاسها مادام هناك . فقبل قليل كانت تزدريه .

وتهللت بسبب ما اكتشفته من جبن لدى هذا الرجل لان ذلك الجبن يفصلها عنه حسبما رأت . أما الان فلم تعد تدري ما الذي انتابها على وجه الدقة . فبقاؤها مع غيريه في نفس الحجرة أضحى غير مقبول ، لكنها كانت متيقنة من جهة أخرى من أنها لن تنصرف ما لم تكن مرغمة على ذلك . فالمبرر الذي قدمته الى غيريه كان بمثابة زوغان من وجه الحقيقة فها هو زوجها يعبر الحديقة ليخرج . الا أنها لم تشر لذلك . بل املت أن لا يسمع صرير الباب وهو يفتح ثم يغلق وراء المسيو غروجورج . وقررت فيما اذا سمع الصوت أن تقول انه أحد الخدم وليس زوجها . وسعت لتحويل انتباهه عن وقع الخطى فوق حصباء المشى فعادت تقول مجددا :

ــ كان معك قليل من المال .

واستدارت صوبه فاعتقد أنها تستجوبه ، فأطرق رأسه وقال :

ــ أكثر من مئة فرنك بقليل . وبعد انفاق ذلك المبلغ بعت ساعتي ثم بعت خاتما .

وسألته بشيء من الفظاظة :

ــ الم تسول لك نفسك يوما أن تسرق ؟

ــ كلا .

في الاسفل عند طرف الحديقة فتح المسيو غروجورج الباب الشبكي وخرج .

ــ لكنك ارتكبت جريمة قتل ، أليس حريا بك أن تكون قد سرقت؟

نطقت بتلك الكلمات على نحو من العنف لم تقو أن تسيطر عليه واجتازت القاعة حتى مكان غيريه . انه لم يسمع الباب الشبكي ينفتح

وينغلق ، وهو يحسب أن المسيو غروجورج مايزال في الدارة . فبوسعها أن تبقـــى .

قالت وقد تضايقت من هيئته المرتبكة : أجب .

فهز رأسه وأجاب : لم أسرق . اقسم لك على أنني لم أسرق قط .

وفكرت قائلة : « ماذا يعنيني من ذلك ؟ انه مرتحل » . ثم تحولت بغتة من موقف الى موقف اخر ، وحدقت في وجهه فأرغمته علـى أن يغض من بصره . قالت :

ـ لم تصرفت على ذلك النحو ؟ لماذا قتلت ذلك الرجل ؟

وقالت في نفسها مجددا : « وماذا يعنيني ان كان قتله ؟ ليس هذا ما اريد ان أعرفه . » سمعت صوتها هي ، الحازم والقاسي جـدا ، فبوغتت للنبرة الهادئة التي تتكلم بها ، بينما تولاها احساس بالدوار فتشبثت بزاوية خزانة . وتمتم ممتقع الوجه :

ـ لم اقتل ذلك الرجل .

فمضت تقول : وماذا عن تلك الفتاة اذن ؟ لن تقول إنك ... لم توشك أن تقتلها ..

رأت وجهه يتشنج كمن تلقى ضربة . لكنه لم يجب . هل أتيـح لها أن تلاحظ من قبل تلك الغضون تحت أجفانه وفي طرفي عينيه ، وأن تدقق النظر في حدقتيه بلونهما الاصهب الغريب ؟ لقد تهيأ لها أنها لم تتأمل قسماته قط حتى ذلك النهار وتلك الدقيقة . وتساءلت عـن مبعث القوة التي جاءتها لتقف أمامه وتستجوبه . أخيرا قال لها بتنهيدة،

ـ لمَ تطرحين علي كل هذه الاسئلة ؟

وقالت في نفسها : « أجل ، لم ؟ » لكنها رغم ذلك مضت تقول :

ـ تلك الفتاة ، انجيل ... لقد عذبتها ، أليس كذلك ؟ عند ضفة النهر . لقد اخبروني .

تراءى لها وهي في تلك الحجرة الصغيرة المحكمة الاغلاق ان الصمت يحاول اخماد وقع كلامها ، فقد كان صوتها خافتا وغير واضح تقريبا . وفهمت من نظرة غيريه انه ادرك اضطرابها فاحمرت خجلا . وكان بودها لو تصرخ . ثم اضافت :

ـ بلى . لقد أخبروني بكل شيء . والصحف روت كل شيء . لم كنت حاقدا عليها لتسيء معاملتها على ذلك النحو ؟ لقد أوشكت أن تموت لماذا كنت تكرهها ؟

وهز راسه نفيا :

ـ لم أكن اكرهها .

شعرت أن غضبا مباغتا قد استبد بها فخبطت بقبضتها ظهر الكنبة .

ـ لم تكن تكرهها ؟ لم تكذب عليّ ؟ هل أنت خائف مني ؟ أنا لست قاضي تحقيق . هيا ، قل لي !

ـ قلت لك الحقيقة . كنت ساخطا عليها ، لكني لم اكن اكرهها ، بل على العكس . كان بودّي ...

ثم توقف بغتة ووضع يده على صدره . فتراجعت قليلا . وبادرت بحركة كأنها تريد أن تمنعه من مواصلة الكلام . فصارت خائفة مما سيقوله وندمت على اسئلتها ، لكنها لم تدع امامه من سبيل قال :

ـ لو كان بوسع المرء أن يكره ما يعبد ...

فقاطعته على الفور وهي تغمغم :

ـ ذلك مستحيل . فاما هذا وإما ذاك .

فواصل وهو يرفع صوته ، اذ بدا أنه نسي منذ بعض الوقت كل حذر :

ـ لقد انتابتني الغيرة . كنت أعرف أن الجميع يعطونها مالا . إلا أن المال يعوزني فكانت تهزأ بي . وذات يوم ، اختلست مالا مما وفرته زوجتي وقلت في نفسي إني ساعطيه لأنجيل . من ثم ، حين وقعت عيني على انجيل في ذلك الصباح ، بدا لي أني قد فقدت صوابي . فضربتها ، ضربتها ...

ـ اجل ، إخرس . أنا لم أسألك ...

والصقت كفا بكف ولبثت ساكنة . قال :

ـ لا يسعك ان تعرفي كم تألمت بسبب تلك المراة . مكثت بعيدا عنها طوال ما استطعت . وفي غضون شهرين صرت مرغما على العودة الى هنـا .

لم تفهم فحوى كلامه بادىء الأمر ثم اتضح لها المعنى بغتة فاعتقدت أن من المستحيل أن تكون أحسنت سمعا . وتشبثت يداها الواحدة بالأخرى كانها تريد سندا من وراء ذلك .

ـ عدت الى هنا بسببها ؟

ـ بكل تأكيد ، لقد قلت لك ...

شعرت بشيء يمسك بخناقها . فقالت بمشقة :

ـ ظننت أنك عدت اتطلب مني أن أساعدك .

وأسفت من فورها على قول بدا لها مضحكا ، لكنها لو لم تتكلم لانفجرت بالبكاء .

ولاحظ اضطرابها فقال بنبرة مغايرة وشبه مستندلة :

ـ لم أجسر على الاعتماد على سخائك .

هزت يدهـا نحوه مشيرة ألا يضيف شيئا ومشت صوب البـاب بخطى متصلبة وبطيئة كانسان آلي . وحين مرت من أمامه دون أن تلتفت ناحيته تمنى أن يرتمي على قدميها متوسلا لكي ينصرف ، لكنه خشي أن يستثير غضبها إذا ما أبدى لها انه حذر منها . وساورته ظنون رهيبة على حين غرة : هذه المرأة ستغدر به .

ـ سيدتي ...

حين وصلت الباب استدارت صوبه وحدقت في وجهه ، فرأى أن عينيها قد أضحتا بلا حياة في وجهها الشاحب ، وانتابه شعور بأنها لم تكن تراه . قالت بصوت مخنوق :

ـ يجب ان اقول لك . لقد رايت انجيل . وهي تكرهك .

واجفل .

واضافت باندفاع :

ـ إنها تكرهك . إنها تخشاك . أجل ، انت تخيفها ، تخيفها ...

فتمتم :

ـ هذا غير صحيح . أنا اعرف ...

فأومات بحركة متشنجة من راسها كمن يريد ان يقول لا ، وخرجت . وسمع المفتاح يتحرك داخل القفل .

- ١٢ -

عبرت الممر مثل من يمشي وهو نائم وجاءت لتجلس فوق صندوق خشبي يشغل الحيز بين بابين . كان يسود المنزل صمت مطلق . فالطاهية الآن في السوق بشكل مؤكد . ثم تذكرت أنها أذنت للوصيفة بالخروج . كان النور يتسرب من قبة المنور الذي يضيء الدرج . إنها تعرف هذا النور حق المعرفة وتعرف أيضا شكل قطع الاثاث كلها وشكل الدرجات، في صباح يوم شتوي . كما تعرف ظل المقاعد فوق الجدران وكيف ينعكس النور عن القضبان النحاسية اللامعة التي تحمل الستائر فيسقط فوق السجادة الحمراء . وبدا لها ، وهي على وضعها ذاك غارقة في حلم موجع، إن تلك الأشياء كلها تؤلف من حولها عالما ، ترى انها توشك أن تغادره ، بينما هو يتمسك بها . حين كانت قبل قليل بصحبة ذلك الرجل ، لم يكن أي شيء يشابه ما عرفته من قبل . قاعتها الصغيرة تغيرت على نحو لا يمكن تفسيره . وتراءى لها طوال نصف ساعة أنها ليست في بيتها ، بين قطع اثاث يقع نظرها عليها يوميا ، ومنذ ثلاثين عاما . هذا الشعور كان مألوفا لديها . ففي ساعات الألم الشديد أو في ساعات السأم المضني ، ينتابها الاحساس بأنها غريبة عن هذا العالم . ويكون إحساسها على درجة من القوة تفقد معه الاشياء الأرضية على نحو مباغت كل أهمية لها مدة بضع دقائق . شعرت بذلك هنيهة وهي حيال النافذة ثم جاءت كلمات غيريه فأعادتها الى ذاتها . والآن تجد نفسها ضمن مجرى الحياة .

قالت في نفسها : « كيف يقاسي الانسان كل هذا العذاب ولا يموت ؟»
لم يكن بوسعها أن تفكر في غيريه من غير أن يتولاها إحساس بالعار ، فيحمر وجهها خجلا ، لانها اضحت مقتنعة بأنها انساقت لتصير هزأة في عين ذلك الرجل ، وهذا ما يتسبب لها بأشد العذاب . فأي اضطراب

عقلي أصابها حتى حسبت أنه رجع من اجل أن يطلب منها العون ؟ ما من شيء يمكن أن يدفع به السير على درب مغامرة خطرة خطورة الرجوع الى لورج غير الهوى ، لكن ذلك الهوى ليس يقصدها ، ليس لها من نصيب في ذلك الحب الطاغي الذي قاد ذاك الرجل نحو امرأة . كل دورها في تلك القصة لا يعدو دور امرأة على منحدر الشيخوخة تتدخل في ما ليس من شأنها . وهو ما رأيه ؟ لقد أضحت تكرهه بغتة ، بسبب ما يحمله من أفكار . ماذا اوتخيل أنها واقعة في هـواه ؟ لكن ، أليست تلك هي الحقيقة ؟ خبأت وجهها بيديها . فالعبارات والكلمات التي تحدثت الى نفسها بها وصاغت بها هواها ، بدت لها مثيرة للهزء الى درجة غير مقبولة، فيما كانت تسلم بوجود ذلك الحب الذي كان يفتك بأحشائها . كانت تخشى أن تقرب من التعابير الدقيقة التي ينبغي استخدامها لوصف حالتها النفسية ، وتفضل بصورة عامة ان ترمي بهواها وسط فوضى من المشاعر غير المباح بها . أما الآن فغدا التهرب من وقائع الحياة مستحيلا عليها . وفي هذه الساعة عينها ، وهي تجلس فوق هذا الصندوق الخشبي عند ذلك الدرج ، كان مصيرها ينجز . وكانت على دراية بذلك . كانت تتمنى بينها وبين نفسها ، بفزع مرعب ، أن لا يكون غيريسه وراء باب القاعة الصغرى قد تبين أفكارها : « أنا واقعة في هوى ذلك الرجل وهو يعشق امرأة غيري . »

لم تجرؤ على أن تدير نظرها ناحية الباب الذي أغلقته لتوها . ليته لا يشك بشيء ! إن حظها لسعيد ، إذ لم تدعه للنزول الى غرفتها أمس مساء ، على نحو ماخطر ببالها لحظة . فلو تعرضت للاذلال عن طريق الصد البشع ، لألهبت دماغها بطلقة مسدس . لأن حياتها ستغدو مستحيلة .وتفجرت بالدمع مآقيها لفكرة موتها ، بعد أن عجز الانفعال العنيف الذي اجتاحها قبل قليل عن انتزاع دمعة واحدة .

سمعت على حين غرة صوتا صبيانيا يناديها ، فجففت مآقيها وقامت فنزلت . كانت فرناند تنتظرها في الطابق الأرضي وقد وضعت

أمامها سلة غسيل كبرى . لقد نسيت مدام غروجورج أنها ستأتي . وهل يسع المرء في ساعات الآلام القصوى أن يفكر في تسديد حساب الغسيل ؟

إلا أنها الحياة العابثة بجراحنا . وها هي ترغمها على تفحص القمصان والمناديل بينما قلبها ينزف دما . خطر ببالها أن تطلب من الوصيفة القيام بتعداد القطع بدلا عنها ، لكنها تذكرت أنها قد أجازتها . بيد أن الاهتمام بالغسيل سوف يمنعها في نهاية المطاف من الاستغراق في التفكير ، فيساهم في إنقاص دقائق من ذلك الصباح المقيت .

ــ نَعِمَ صباحك ، يا سيدتي .

صغيرتي . قربي سلتك من المنضدة . أين دفتر

على درجة من البراءة ، بساقيها المحمرتين من شقتين وشالها الصوفي الأسود الشنيع وقد يا !

.

طلبي أن يعطوك طاسة قهوة بالحليب من المطبخ .
د بسبب ساقيك العاريتين . ما هذا الشال
ينبغي على أمك أن تشتري لك ممطفا وقفازات

صوفيــة .

(من أين جاءتها دفقة الحنان تلك على حين غرة ؟ لقد وقعت عيناها عشرات المرات على تلك البنية من قبل ، من غير أن تلقي بالا لثيابها مرة واحدة . أما الآن فتحدوها رغبة غامضة في تقبيل هاتين الوجنتين الحمراوين ، والقبض على هاتين الكفين لتدفئتهما داخل يديها . وأخذت ركبتاها تصطكان فاضطرت لأن تقعد .)

ـ لن أقوم اليوم باحصاء عدد قطع الغسيل يا فرناند . قولي لمدام برود : إذا نقص شيء فسوف ندونه على الدفتر في الأسبوع القادم . اسألي الطاهية عن الثياب المتسخة .

ـ طيب يا سيدتي . الك هنا رسالة داخل الدفتر .

ـ رسالة ! ممن ؟

واخرجت من بين أوراق الدفتر رسالة وقرأتها :

« أتوسل الى سيدتي أن تتذكر أنها وعدتني بأن تساعدني . اما اذا ما تكرمت سيدتي وأخبرتي بما تنوي القيام به نحوي فسوف أكون ممتنة لسيدتي . ليس على سيدتي غير تسليم كلمة الى فرناند ـ انجيل » .

انجيل ! ارخت مدام غروجورج الرسالة فسقطت عند قدميها ، وكررت في ذهنها ذلك الاسم الذي تكرهه . ما هي النية المختبئة وراء مصادفات الحياة لو تفكرنا في الأمر لما كان مدهشاً أن تسلم اليها تلك الرسالة . لكن اسم انجيل بدا كانما جاء بشكل خاص ليزيد الم مدام غروجورج حدة ، وهي في حالتها النفسية تلك . فلبثت ساكنة لحظة ثم انتزعت ورقة بيضاء وأخذت القلم الموضوع في دفتر الحسابات وقالت بصوت قاس وهي تلهث :

ـ سلمي انجيل هذه .

بيد انها لم تكتب شيئاً . فقد استقر نظرها على البنية . فقالت لها بغتة :

ـ اليس هذا الذي تتلفعين به هو شالها ؟

ـ أجل ، يا سيدتي . انجيل اعارتني اياه .

قالت في نفسها : « لا ادري ان كان يعرف انها مشوهة . سأذهب لاخبره بذلك » .

وقامت بحركة عنيفة من يدها . كلا ، لن تذهب لتقول له ، لن تذهب لتنازع على ذلك الرجل احدى بنات الشوارع . ومهما تكن الافكار التي تتنازعها وهي وحدها ، فانها تشعر الآن بزهوها كله يستعيدها ، لأن أمامها كائنا بشريا ينظر اليها . وعاد اليها ازدراؤها للعالم ، فقد بدا لها أن العالم كله ينظر اليها ويحكم على سلوكها من خلال عيني تلك البنت . وانتابها الخجل من نفسها .. فبأي حق تزدري البشرية ؟ أليست ضعيفة مثل أية امرأة أخرى ؟ لو أتيح لاحد أن يراها في الليلة الفائتة ، وان يسبر أغوار قلبها ، ليراها وهي تحلم بذر المخدر وبآلاف الاشياء المستحيلة ، لما تعرف فيها على المرأة المتغطرسة الباردة التي يراها في النهار . ومهما بدت على درجة من الكبرياء ، فان رجلا قد انف منها وأشاح بوجهه عنها هي ، لاعن تلك الفتاة التي تزدريها .

ـ ما بك يا سيدتي ؟ ألست على ما يرام ؟

لكن مدام غروجورج أبعدت البنت التي أقتربت منها . وامتقع لون وجهها ويديها وملأت صدرها ضربات كبرى خافتة . لو تحطم شيء داخلها في هذه اللحظة لبدا لها الموت مقبولا . لكن الحياة واصلت مسيرتها داخل ذلك الجسد الذي حطمه العذاب النفسي . لا يعلم ما ينبغي لقتل انسان الا الله .

ـ قولي لـ .. انجيل .

وملأ قلبها السخط على العثرات التي أوقعها فيها القــدر . النساء الأخريات سعيدات ، أما هي فلن تعرف السعادة أبدا . واذا صح أن الانسان يولد على الارض ليستمتع بالحياة ، لكان من الخير الا تولد البتة . واستبدت بروحها على نحو مباغت ضغينة جنونية ، فسولت لها نفسها مدة ثوان أن تضرب تلك البنت ، التي كان وجهها

قريباً منها حتى كاد يلامس يديها . فعبء الآلام الثقيلة التي رزحت تحتها ، حثها على الحاق الاذى بغيرها حتى تهنأ نفسها قليلا . اضحت حياتها خاسرة خسارة أبدية ومن الخير لها ان تتخلى عنها . فهذه المعذبة بنفسها ، تنحرف العواطف لديها منذ البداية حتى يتخذ الحب نفسه لبوس الحقد . أما الرجل الذي سلمها اياه القدر ، فتكرهه مثلما تكره المرأة التي وقع في هواها . ولم تصمد أمام الاغراء في وضع مصير احداهما في يد الآخر . فدونت على ورقة بيضاء ، وكأنها تنتحر ، الكلمات التالية أ

« غريبه مختبىء هنا . هيا ابلغي الشرطة » .

قالت للبنت الصغيرة وهي تكز على اسنانها :

ــ دعي سلتك هنا ، وخذي هذه الرسالة الى انجيل . امضي باقصى سرعة . المسألة هامة جداً .

* * *

- ١٣ -

انقضت ساعة بحالها ومدام لوند جالسة قرب المدفاة في قاعة الطعام ، تحيك شالا من الصوف الاسود وتكلم نفسها . لكن ينبغي أن يتمتع المرء بسمع مرهف ليدرك ما كانت تقوله ، فالصوت الخارج من بين شفتيها أشبه بلغط مشوش تختلط الكلمات فيه . لقد وضعت كنبة القش التي تجلس عليها بين المدفاة ومكتبها ، حرصا منها دون ريب على أن لا تقع عليها عيون المتنزهين الفضوليين . وما نجمت حاجتها للتواري عن الاعين الا لانها كانت تضع نظارتها . فهذه المرأة الصائرة الى الموت ماتزال لديها رواسب صغيرة من وسائل الاغراء تبلغ في تفاهتها حد الشؤم . واذا كان الاغراء يخضع للرغبة في نيل الاعجاب ، فمن هو الذي ستحظى باعجابه مدام لوند وقد ربت اعوامها على خمسة وخمسين؟ ولو رأيتها وهي مجللة بالسواد ، ضخمة الجثة ، مقوسة الظهر ، لقلت انها تحادث النار التي ترد عليها بأنينها . كان راسها يميل من وقت لاخر مؤديا تلك الحركة التي يقوم بها المسنون كأنهم يجيبون : « كلا » حين يدعوهم القبر . وتستقر يداها بهدوء على ركبتيها فينزلق الشال ويسقط على الارض . عندئذ يخرجها من اغفاءتها القصيرة صوت ارتطام الصنارتين العظميتين بالارض ، فتجيل نظرها فيما حولها بهيئة ذاهلة ، فتثبت نظارتها فوق أنفها الكبير المكرب ، ثم تنطوي نصفين وهي تئن وتحرك يدها كالمجذاف الى أن تعثر على شالها .

انفتح باب المطعم على حين غرة ودخل احدهم الى القاعة الكبرى ركضا . انها فرناند . لم تقع عينها على مدام لوند . وحين أوشكت أن تمر من امامها ، اوقفها صوت المعلمة في مكانها :

ـ الى أين انت ذاهبة ، يا صغيرة ؟

فصدرت عن الصغيرة صرخة فزع :

ـ لم اكن أعرف انك هنا . يا مدام اوند .

ـ أولا ، قولي يا خالتي ، وأنت ، من بعد ، في عجلة من امرك . لقد سألتك الى أين انت ذاهبة . فهل ستجيبين ؟ لم عدت في هذه الساعة المبكرة ؟ أين سلتك ؟

ـ عند مدام غروجورج .

ـ تركت سلتك عند مدام غروجورج ؟ قولي . هل جننت ؟ هيا ، مابك ؟ تعالي حدثيني .

وقبضت عليها من يدها وارغمتها على الاقتراب منها .

ـ دعيني اذهب ، يا مدام اوند .

ـ مدام لوند ستوجه اليك صفعة اذا لم تقولي لها يا خالتي . اما بعد ، فلا تبكي . اهناك شيء ؟ ما هو ، قولي ؟

وشدت على الطفلة بركبتيها وقبضت على مرفقيها بحزم .

ـ لم عدت راكضة . بعد أن تركت سلتك عند مدام غروجورج؟

ـ مدام غروجورج حملتني توصية الى انجيل .

ـ آه ، أية توصية ؟

ـ لا ادري .

ـ هل تريدين صفعة ؟

ـ انها مكتوبة على ورقة ؟

ـ اذن أعطني تلك الورقة .

ـ لن يروق ذلك لمدام غروجورج . لقد قالت ان هذه لانجيل .

ـ انا سأتولى الامر . أين الورقة ؟

اخرجت البنت الورقة من تحت مريلتها السوداء واعطتها للمعلمة ففكت هذه أسر فرناند وقالت لها : « اجلسي هناك » مشيرة بيدها الى أحد الكراسي البعيدة عن المكتب .

ما ان ابتعدت الصغيرة ، حتى أعادت مدام لوند تثبيت نظارتها وقطبت حاجبيها وهي تنظر الى الورقة . فكتابة مدام غروجورج أشبه بما تخطه ريشة المرجاف(١) . لكن بضع دقائق من الجهد مكنتها من تفكيك الكلمات الاولى ، فلم تقو على كتم صرخة . وقالت وهي تهتز في كنبتها :

ـ هذا غير ممكن !

عاد نبض حياة جديد ليدفع بالدم الى قلبها مما جعل ضرباته تشتد . فهذا الرجل تسبب بمصائب عديدة ، ارعبت المدينة وحملت الويلات الى مطعمها هي . ثم جاءت عدالة السماء لتضعه بين يديها .

لم تفكر حتى في مواصلة قراءة الورقة التي شدت عليها بقبضة يدها . ثم لبثت بضع ثوان عاجزة عن الاتيان بحركة من شدة الانفعال لم تعتمل في نفسها غير فكرة واحدة :

---

١ ـ آلة لتسجيل درجات الزلازل .

ان تستعجل ، لكنها لم تتحرك . هناك شيء يسمرها فوق مقعدها فيما تتجمع كل القوى المسنة في داخلها متحفزة للوثبة الكبرى التي ستضعها على الطريق . لبثت فاغرة فاها ، ثم انطلقت من بين شفتيها صرخة على نحو مباغت .

ــ يا فرناند ! قبعتي !

لكن ما من جواب .

ــ أين هي ؟ يا الهي . لابأس ، سأمضي بلا قبعة ، بلا ...

وتحررت بغتة ، فقامت منتصبة فوق ساقيها بجهد شاركت فيه عضلاتها كلها . ثم أجالت الطرف فيما حولها ، وهي واقفة ، كمن اصيب بدوار . فقد غربت عيناها وراء نظارتها تحت تأثير الغبطة والمفاجأة . وتنهدت بعمق وقالت :

ــ لا بأس .

كانت تبحث دون شك عن ثوب تضعه على كتفيها ، فالبرد قارس . وكلمة « لابأس » تلك ، التي نطقت بها بكل إجلال ، كانت ذات طابع بطولي مثل العبارات التي يتفوه بها الجنود قبل خوض المعركة : كان بمقدورها أن تصعد الى غرفتها لأخذ معطف او عباءة ، لكنها فضلت ان تضحي براحتها الشخصية ، وتعرض نفسها في الشارع لنزلة برد ، كي تمضي بسرعة نحو واجبها الهائل .

وبينما هي تدفع بالكنبة جانبا لتتوجه نحو الباب ، ازعجت جرذا طرده البرد من مسكنه في القبو ، فجاء يبحث عن الدفء والراحة تحت ثياب تلك المرأة التي كانت تجهل وجوده .

في تلك الاثناء صعدت فرناند الى غرفة انجيل . كانت الفتاة ، رغم الوقت المتاخر ، ماتزال في سريرها ، ووجهها الى الجدار والأغطية

الى فوق أذنيها . ربما كانت غافية حين دفعت الصغيرة الباب وقالت بصوت مسموع :

ـ أنجيل . انهضي !

ـ هذه انت يافرناند ؟ لم عدت باكراً هكذا ؟

ـ لديّ نبأ هام احمله اليك. ينبغي أن تنهضي وتلبسي ثيابك بسرعة.

ـ لكني لا أستطيع ، فطوال الليل لم يغمض لي جفن . إنني مريضة. ما المسألة ؟

ـ حملتني مدام غرو جورج توصية اليك . لقد اعطتني ورقة ، الكن مدام لوند اخذتها مني قبل قليل .

ـ وماذا في تلك الورقة ؟ هيا قولي .

ـ لقد قراتها وأنا في الطريق . كتبت مدام غرو جورج : « غيريه مختبىء هنا . هيا أبلغي الشرطة » .

جلست انجيل في سريرها وأطلقت صرخة .

ـ مدام لوند قرأت الورقة ؟ ؟ ماذا قالت ؟

ـ سمعتها تناديني وأنا أصعد الدرج . كانت تريد قبعتها .

ـ ذلك كي تذهب الى السراي ! ينبغي منعها من ذالك ، يافرناند إلحقي بها . ناديها .

يا الهي !

ـ لقد خرجت . سمعت لتوي الباب يفتح ويغلق . عليك ان تنهضي وتسرعي الى مدام غرو جورج .

ـ ان أجد الوقت الكافي حتى أرتدي ثيابي . فالسراي على خطوتين من هنا . أسرعي الى الدارة واطلبي مقابلة غيريه .

ـ من المؤكد أن مدام غرو جورج ليست راغبة في أن أراه .

ـ في أية حجرة يقيم ؟

ـ لا ادري .

ـ ناديه من الحديقة . قولي له أن يهرب . هيا بسرعة ، بافرناند !

* * *

- ١٤ -

حين وجد غيريه نفسه محتجزاً في قاعة مدام غروجورج الصغرى ، حصر اهتمامه الأول في البحث عن كيفية الهرب من ذلك السجن ، لأنـه غدا واثقاً منـذ بعض الوقت من أنها ستوقع به ، وأن رجال الشرطـة سيدخلون الدارة قبل انقضاء ساعة ، بل قبل خمس عشرة دقيقة ، ويوقفونه . وسوف يقع ما يرهبـه أكثر مما يرهب الموت : سيضعون القيد في يديه ، ويقتادونه الى السراي ثم ينقلونه من هناك بعد بضعة أيام الى السجن الرئيسي في المقاطعة . لقد قامر وخسر . راهن على كل شيء وخسر كل شيء . خسر أولا حريته ومعها انجيل . لقد انتهت تصفية حساب سعادته على الأرض ؛ لم يبق أمامه الا سنوات من الاختناق في زنزانة ضيقة أو العيش المضني لمحكوم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

خاطر بأن يراه أحد ففتح النافذة ونظر : المسافة التي تفصله عن الأرض تتجاوز ثمانية أمتار . يستحيل عليـه الانزلاق على الجـدار . فالحجارة خالية من أي نتوء . أما القفز فيعني الانتحار .

الباب الذي ادار قبضته حتى لوى محورها ، صمد أمام قوة يديـه الجبارتين . عندئذ حاول انتزاع بزالات القفل بمدية صغيرة . لكن نصليها انكسرا من غير أن يقوى على ادارة واحد من البزالات الاربعة نصف دورة . وزاد الفشل من اضطرابه فحصر همه في العمل على اقتلاع القفل بأي ثمن من أجل فتح الباب ، وبحث في الغرفة عسى ان يجد ما يساعده على تحقيق هدفه . فعثر على مقص صغير في جرار خزانة ، لكنه انكسر وهو يحاول اعماله بأصابعـه الخرقاء : لا بـد من الوقت والمهارة وهـدوء

الاعصاب ، من أجل تحريك الرؤوس الحديدية الصغيرة التي استثارها من دون فائدة .

بغتة تخلى عن مشروعه وهرع الى النافذة مجدداً ففتحها . وبينما كان ينحني خارجا ، جففت الريح الجمودية العرق عن جبينه وجددت طاقته . لو تشبث بيديه بحرف النافـذة وترك جسده يتدلى لأنقص المسافة بينه وبين الأرض بشكل ملحوظ ولأمكنه أن يقفز . فهو طويل القامة ، ويصل طولـه ، وذراعاه ممـدودتان ، الى مترين . لكن كيف السبيل الى القفز من علو ستة أمتار ؟ سوف يسقط الى الخلف ، فتنتهي السقطة بكسور في ظهره . لو لم يكن يخشى الموت لقبل بفرصة الخلاص المهيأة له . لكن الخوف في تلك الساعة كان مسيطرا عليه .

ابتعد عن النافذة من غير أن يغلقها ، وكأن الاحتكاك بالهواء الداخل بحرية الى جو القاعة قد حمل شيئا مطمئنا . أما خارجا ، فالأشجار على مقربة منه تهتز بمشيئة الريح ، وصدى العربات البعيدة على الطريق جاء ليطرق مسمعه . فالنـاس يتوجهون الى حيث يطيب لهم ، بلا مبـالاة مطلقة.أمام الغم المسيطر عليه فليس موضع اهتمام أحد.رزح طوال ثوان عدة تحت عبء الشعور بالعزلة التامة . فاجتاحته رغبة عنيفة في أن يهرع نحو الجمهور ليلتقي بالانسانية التي أرغم على الهروب منها .

اجال نظره وهو واقف وسط الغرفة في كل ناحية . كان الباب مغلقا بالمفتاح والنافذة مفتوحة على الموت . لم يبق إلا المدخنة . لقد قرأ قصص هروب كثيرة قام فيها الرجال بالهرب عن السطوح التي صعدوا إليها من داخل المدخنة . لكن ما هو ممكن في المدينة التي تتلاصق أبنيتها بدا مستحيلا في الوضع الراهن : سترقى به الحال درجة الى الاعـلى ليجد نفسه يتجول على اثني عشر مترا عن الأرض ، وهو الممتلىء خوفا من علو ثمانيـة . ثمانية امتـار : بعض البهلوانيين يقذفون بأنفسهم من ارتفـاع اعـلى .

قعد وفكر . ربما كانت تمر الآن أثمن دقائق في حياته ، بينما لا يقوم بأي تصرف . ويركن الى السكون فيما تحيك امراة الدسائس العمل على توقيفه . فمنذ قليل رأى خادمة تخرج . الى اين هي ذاهبة ؟ تلك لم تكن الطاهية التي يعرفها مثلما يعرف جميع الخدم في المنزل . إنها الوصيفة التي تحدثت إليه بالأمس عند باب الحديقة . واستعاد في ذهنه بغتة عشرات التفاصيل . لم تتعرف تلك المرأة عليه وهو في الظلمة . لكن كيف استطاع هو أن يتعرف عليها ؟ من صوتها . من يدري إن كانت هي أيضا قد عرفته من صوته ؟ ضم يديه في كربته فأحس أنهما متجمدتان . وفتح باب الحديقة في تلك اللحظة ، ثم أغلق لكنه لم يسمعه . لقد بدا معزولا عن العالم الخارجي لاستغراقه في تأمل الخطر الذي يتهدده . ففي تلك اللحظة تغلب كل ما لديه من جانب حالم ومتخاذل على الحاجة للاضطراب الناجم عن التوجس الشديد . لكن الخوف عاوده على الفور تقريبا . إنه الخوف من أن يعتقل الى الأبد في سجن حقيقي ليس فيه من نافذة مفتوحة أو باب يمكن خلعه .

فهرع مجدداً الى الباب وامسك قبضة القفل بعنف وشد عليها بكلتا يديه كأنه يريد بغتة أن يقتلع القفل . لقد بدا له مستحيلا أن تقوى تلك التركيبة من القطع الحديدية الصغيرة على احتجاز رجل في مثل قوته . وتولاه الغيظ بعد دقائق من الجهد فوجه ضربة بمنكبه الى الباب .

بدأ يلهث من التعب فتوقف ، ثم تقوس نصفين وظهره الى الجدار وأجال فيما حوله نظرة غيظ ويأس . أثار مشهد تلك الحجرة حقدا في نفسه بلغ حد التفكير في احراق الستائر ، لكن فكرة الانتقام من الاشياء الجامدة بدت صبيانية ؛ فتحول بفكرة نحو مدام غروجورج . ما الدافع لديها كي تغدر به ؟ لم ذلك الجمود في صوتها وذلك الشحوب الذي اعتراها حين حدثها عن انجيل ؟ انها معتوهة دون شك . انها مهووسة بالحاق الاذى بالآخرين وتعذيبهم . لقد استمتعت باحياء آمال واهنة في نفسه لتسلمه الى الشرطة من بعد . كان عليه أن يتبين نوع الغرائز التي تتحكم بها مذ أن رآها تصفع ابنها بمزيج من البرود والوجد .

خطرت بباله فكرة خلع الباب فحاول زحزحته من جديد ، لكنهم لم يبخلوا عليه بخشب السنديان أيام البناء ، فبقي القالب ثابتا لا يتزحزح .

شعر أنه اذا ما بقي ربع ساعة اخرى في تلك الحجرة فسوف يقفز من النافذة ، لا ليهرب ، بل ليضع حدا نهائيا لعذابه . وبدت له الارض قريبة جدا من مكان وقوفه . لكن الامر وهم فقط . فما أن يقترب من النافذة وينحني حتى يبرز أمامه علو ثمانية أمتار ، يتحداه أن يفلت من غير أن يموت .

الا أنه توجه صوب النافذة ، ليتأكد مرة أخيرة ، من أن كل فرصة امامه للنجاة عن هذه الطريق مستحيلة . لكنه توقف . لقد لمح شخصاً خارجا . انها في الواقع فرناند . كان يستطيع أن يراها تركض على الطريق المؤدية الى الدارة . لم يعرفها في البداية . ثم ما لبث أن تذكر انه صادفهاذات يوم وهي تخرج من المصبغة برفقة انجيل . وأطلق لتلك الذكرى زفرة ألم . ليته كان يعرف آنذاك أن سعادة المرء تتمثل في أن لا يكون أسيراً .

لامست يده احدى الستائر فتراءى له بغتة بصيص أمل . الستائر ! كيف لم يفكر بها ؟ لكن ذلك القماش السميك الثقيل كان محكم التثبيت على الجدار . لا بد من وقت وأناة طويلين لانتزاعه وعقده وصنع حبل منه . لكنه أين سيربطه ؟ كيف السبيل الى العثور على فتحة كافية لتمرير ستارة من قلب الزخارف الحديدية الدقيقة التي تحيط بالنافذة ؟

ارتد ناحية الباب ووجه ضربة بقبضته الى القالب . وسمع في ذات اللحظة تقريبا من يصعد الدرج بسرعة فتراجع الى داخل الغرفة .

دار المفتاح في القفل ودخلت مدام غروجورج . كان ينوي أن يندفع ناحيتها ليخرج لكن مظهر تلك المرأة أصابه بالدهشة فتوقف .

كانت على درجة من الشحوب ، ونظرتها على درجة من القسوة والجمود حتى بدت أشبه بامرأة ميتة ، نسوا أن يغمضوا عينيها .

تمتمت من غير أن تنظر اليه :

ــ جئت القي عليك سؤالا .

ــ ماذا ؟

فأغلقت الباب وهي تمد يدها وراءها .

ــ قلت لي انك عدت الى اورج بسبب انجيل . فهل تعتقد أنها تحبك ؟

لبث محتاراً لحظة .

ــ اجل ، اعتقد ذلك .

ــ مصيرك يتقرر في هذه الساعة . انظر الى ما يجري في الحديقة .

هرع الى النافذة وانحنى خارجا . فاستغلت الفرصة وارتحت الباب مرتين .

وقبل ان يجد الوقت لاستدراك ما حصل ، عبرت القاعة ورمت بالمفتاح من النافذة . فاطلق صيحة .

ــ ماذا فعلت ؟

ــ مثلما رايت . ألقيت بمفتاح هذا الباب من النافذة . ينبغي أن يعود زوجي في حدود الثانية عشرة والنصف . سأناديه ليأتي بالمفتاح ويفتح الباب . سوف تختبىء خلف تلك الستائر كي لا يراك . ثم تنصرف بينما نكون نحن على مائدة الغداء .

ـ لماذا رميت بالمفتاح من النافذة .

فاستدارت ونظرت اليه .

ـ أنجيل تعرف أنك هنا . ليس ما يدعوك لان تقلق ، لا سيما أنك تقول إنها تحبك . أما اذا جاؤوا يقبضون عليك ، فاعلم أنها أبلغت الشرطة . ويكون ذلك برهانا على أنها تكرهك .

لبث جامداً يحدق في مدام غروجورج ، كأنما يحاول ان يقرأ في ذلك الوجه المتشنج معنى الكلمات التي سمعها . ثم قال بغتة :

ـ لو أوقفوني ... لكن هـذا مستحيل ، يا سيدتي . أنت لـن تغدري بي .

ـ من قال هذا ؟ إن غـدر بك من أحد ، فأنجيل هي التي ستفعل ذلك .

ـ كيف عرفت انني هنا ؟

ـ انا بعثت اقول لها .

ـ لـماذا ؟

ـ ذاك ليس من شأنك .

ـ سيدتي ، دعيني امضي في سبيلي . استدعي من يأتيك بالمفتاح.

ـ أنت تخشى إذن أن تغدر بك تلك المـرأة ؟ كنت احسب أنهـا تحبك كثيراً .

ـ اريد أن اخرج من هنا . إن لم تستدعي أحداً ، أخلع الباب .

ـ عندئذ انادي كي يوقفوك . في الدار الآن رجلان : البستاني والوصيف . كما أنني مطمئنة . بوسعك أن تتعامل مع الباب إذا ما طاب لك ، فهو متين .

فخبط الأرض بقدمه صائحاً :

ـ وماذا لو قتلك أنت ؟ ماذا لو خنقتك ؟

فهزت كتفيها كأن رعشة اعترتها ، لكنها لم تحول نظرها عن ذلك الرجل الذي انتابه السخط بغتة . وقالت وهي تقعد ، لخور في ركبتيها :

ـ لست خائفة منك . أتظنني كنت أجيء الى هنا لو أنني أخاف منك ؟

ـ إحذري يا سيدتي ! اقسم لك إنني سأقتلك لو جاؤوا للقبض عليّ .

ـ سوف نرى . على كل حال ، أنا لا أخشى الموت .

كانت تتكلم بنوع من الهدوء سبّب ذهوله . ربما كانت تلك المرأة الغامضة تنعم ، في تلك الساعة من القلق الذي لا يقوى إنسان على احتماله ، بهدوء لم تعرف مثيلاً له من قبل . وبعد بضع ثوان بدت خلالها وهي تجهد لاستجماع قواها ، نهضت وعبرت القاعة لتجلس أمام مكتب موضوع في إحدى الزوايا . لم يحوّل غيريه نظره عنها فرآها تفتح أحد أدراج المكتب .

فسألها قائلاً :

ـ ماذا تفعلين ؟

اجابت وهي تغلق الدرج :

ــ ابحث عن ريشة لاكتب رسالة .

ــ لمـن ؟

ــ لأول من يعثر عليها .

فقدم ليقف وراءها واضعاً يده على ظهر الكرسي . وقال بصوت متوعّـد :

ــ سوف تذهبين الى النافذة لتنادي على الخادم . ينبغي أن يفتح هذا الباب في غضون خمس دقائق . إنهضي .

ــ كـلا .

ــ انذرك بأن حياتك في خطر .

فردت عليه من غير أن تتحرك .

ــ سوف تجني على نفسك بسرعة حين تقتلني . لأنني لن أقدم لك من نفع وأنا ميتة ، أما وأنا على قيد الحياة ، فبوسعي أن أوعز بفتـح هذا الباب ، إن شئت .

ــ سيدتي ، ارحميني . اتوسل اليك أن تستدعي أحداً .

ــ دعني أكتب هذه الرسالة .

ــ بماذا أسأت إليك ؟ لماذا تكرهينني ؟

ولم تجب . فسألها مجدداً :

ـ لماذا تكرهينني ؟

ـ هذا شأني .

ـ هل أسأت إليك عن غير قصد ؟ لماذا احتجزتني هنا ؟

ـ قلت لك أن تدعني أكتب .

ـ الا تعلمين ان حياتي في خطر ، إذا ما قبضوا عليّ ؟

ولم تجب . فارتمى عند قدميها :

ـ أتوسل إليك ، يا سيدتي . فكري فيما ستشعرين به من تأنيب الضمير ، فيما بعد ، إذا ما حكم علي بالإعدام . فأنت لا ترغبين في إرسالي الى المشنقة ...

أما وهو يرى الى ذلك الوجه الذي لم يتوصل الى اجتذاب نظره ، فقد خامره الشك في أن تكون كلماته مسموعة . فهب واقفا وصاح :

ـ كان عليّ ان أرتاب في أنك ستغدرين بي . فقد يضربون عنق ابنك من غير أن تهتزّي قيد أنملة . أنت لست امرأة ، أنت وحش مرعب وان كنت قد جئت الى هنا فذلك لكي تستمتعي باستغاثتي . انت تكرهينني . لكن حقدك لا يساوي شيئا مما أحمله نحوك من حقد في هذه اللحظة . هل تسمعينني ؟ ليتك لا تعرفين طعما للراحة بعد اليوم وأن تعاني من العذاب يوما مثل ما أعاني منه الان .

لم تتحرك . فحدق فيها لحظة وود لو ينهال عليها ضربا ، لكنه لم يجرؤ بسبب ما تجلى في سكون تلك المرأة من قوة . عندئذ ، هرع بحركة سخط نحو الباب محاولا ان يخلعه .

وبدا كأن مدام غروجورج كانت تترقب تلك اللحظة لتفتح الجرار لكن لا لتأخذ ريشة بل مسدسا صغيرا مرصعا بالصدف ، فدسته في نطاقها قرب الساعة المربوطة بسلسلة طويلة .

وسمعا صوتا قادما من الحديقة فأجفلا معا . انها فرناند تنادي غيريه . فهرع الى النافذة . ونهضت مدام غروجورج .

صاح غيريه وهو يرى الفتاة : « ماذا هناك ؟ » فردت فرناند قائلة:

ــ أهرب . لقد تم ابلاغ الشرطة . سوف يوقفونك .

فاستدار يائسا نحو مدام غروجورج . فقالت بصوت متقطع :

ــ أنت ترى جيدا أنها لم تكن تحبك .

ورآها تمشي نحو طرف القاعة مثل من يسير وهو نائم ، فعاد الى النافذة مجددا وصاح بالفتاة :

ــ المفتاح ! التقطي المفتاح واتيني به ، انه هناك فوق المشى . ابحثي عنه ، في . . .

ودوى صوت طلقة من ورائه . لم يفهم شيئا بادىء الامر ، ونظر الى الفتاة فرآها تنطلق في الحديقة هاربة ، ثم ارتد الى داخل الحجرة كأن يدا قد أمسكت به من طوقه .

كانت مدام غروجورج جاثية فوق السجادة منطوية نصفين وذراعها تحتها . وفهم من الأنين المنطلق من بين شفتيها هذه الكلمات : « أجهز عليّ . لا أريد أن أعيش . »

* * *

ـ ماذا يقلن ، يا فرناند ؟ انهن يتحدثن جميعهن في وقت واحد . سأنزل الدرج لحظة لاسمعهن . أعطيني قميصي .

مسحت البنت الصغيرة بكفها على ذراع انجيل وقالت لها بتوسل:

ـ اهدئي . هذه مدام لوند تكرر دوما حديثها ذاته . الجو بارد عند الدرج وأنت غارقة في العرق . تدثري ، يا أنجيل .

لكن الفتاة قاومت جهود فرناند وهي تريد أن ترغمها على التمدد كانت جالسة في سريرها ، شبه عارية . دونما خوف من برودة جليدية تسود ما حولها . ثم قالت بحماس :

ـ ان كنت لا تريدين لي أن انهض ، فاهبطي الدرج وافتحي باب القاعة قليلا حتى اتمكن من سماع ما يقلنه .

استلقت انجيل في سريرها ، لتضمن طاعة البنت الصغيرة بسرعة وسحبت الاغطية على صدرها . لكن ما ان غادرت فرناند الغرفة حتى أزاحتها مجددا وهي تلهث من الحمى . كان العرق يسيل من أطرافها . وبغتة ضاقت ذرعا بتلك اللزوجة التي ألصقت قميصها بجسدها ، فاخذت منديلا مسحت به عنقها وكتفيها وجنبيها .

سمعت بعد هنيهة فرناند ، التي اضحت عند أسفل الدرج ، وهي تفتح بتأن باب قاعة الطعام ، ومثلما يتدفق الماء من فتحة في سد ، اندفع لغط الاصوات الصارخة نحو الفتاة .

قالت مدام كوز : « لن تغيرن رأيي أنه كان يريد ان يقتلها . »

فردت مدام كوب ، بائعة الخردوات قائلة : « لكنها لم تقل ذلك ».

فعقبت مدام لوند ، التي بدا دورها منحصرا على الدوام في احتواء مخاوف مدام كوز ، ومنعها من اشاعة الذعر فيما حولها :

ــ هذا صحيح . فهل تتخيلين انها خافت ان تقول لرجال الشرطة: «هذا الرجل اطلق علي رصاصة من مسدس ؟ » لاسيما وأنهم اوقفوه على كل حـــال ...

فردت طاهية آل غروجورج بعناد :

ــ لماذا لم تقل إذن ، إنها نوت أن تقتل نفسها ؟

اجابت مدام لوند التي وجه السؤال إليها ، وقد بدا عليها شيء من التبرم :

ــ لأنها لم ترغب في ذلك .

ساد الصمت فترة قصيرة دلالة على ما قوبل به راي المعلمة مـــن تقدير . إلا أن مدام كوز اعادت الكرّة بسؤالها مجدداً :

ــ ولِمَ لا ترغب في قول ذلك ؟

اما مدام بيلاتان ، بائعة اللحوم ، وهي امرأة وقحة ، تستقبلها مدام لوند لأنها مدينة لها بمبلغ من المال ، فقد كررت السؤال ذاته قائلة :

ــ أجل . لمــاذا ؟

فقالت المعلمة : « انا اعرف . »

وترددت بعض الوقت لتعثر على شيء داخل راسها الهرم المرهق من أحداث النهار . وقالت أخيراً بوحي إلهام مباغت :

ـ كان ذلك الرجل ينوي الاعتداء على شرف مدام غروجورج .

وعلت ضحكة حادة على أثر تلك العبارة . فمن الواضح أن مدام كوز ومدام بيلاتان لا تعتقدان بذلك التفسير للواقعة المأساوية . لكن صوت مدام لوند علا مجدداً حين سألت مغتاظة :

ـ ماذا دهاكن لتضحكن . أنا أعرف ما أقوله . تذكرن كيف تصرف حيال أنجيل .

أمسكت انجيل ، لدى سماعها تلك الكلمات ، بيد البنت الصغيرة التي عادت الى القرب منها. وقالت :

ـ لماذا يتحدثن عني ؟ ماذا يقلن يافرناند ؟

ـ لا أدري . هل تريدين أن أمضي لاغلاق الباب الآن ؟

ـ أجل . كلا . أريد أن أصغي قليلا ايضا ، إنهن يتكلمن بصوت عال فلا يفهم من كلامهن شيء .

لم يكن يفهم شيء من الكلام في الواقع لان أولئك السيدات شرعن يتكلمن كلهن في ذات الوقت . ولم يكن الحديث يدور حول انجيل الآن بل حول حال مدام غروجورج .

صاحت مدام كروب بالطاهية :

ـ أقول لك إنها ستخرج سالمة .

ـ والرصاصة التي في جسمها ؟ آه ! آه !

فهتفت مدام لوند مغتاظة ، كأن مدام كوز تبعث بها هي الى العالم الآخر :

ـ تلك الرصاصة سوف يستأصلونها . اما انت فلا تتفوهين إلا بالحماقات . كما يجن جنونك إذا لم تري الأمور تسير نحو الأسوأ .

ولم يصدر عن مدام كوز الجالسة امام الباب المفتوح قليلا غير العطاس الشديد . ثم تأوهت قائلة :

ـ هنا تيار هواء . لقد اصبت .

فقالت مدام لوند وقد سرها أن تثير الفزع في قلب تلك الخوافة :

ـ إحترسي . فقد تبدئين بالعطاس وفي غضون اسبوع يمضون بك الى الكنيسة وقدماك في المقدمة .

وقامت واحدة فأغلقت الباب .

وسألت انجيل قائلة :

ـ فرناند ، لماذا لم اعد اسمع شيئا ؟

ـ لانهن اغلقن الباب . لقد بدات مدام كوز تعطس بسبب تيار الهواء . الم تفهمي ما كانت تقوله ؟

ولم تجب انجيل . ففكرها الذي امسى اكثر نشاطا بسبب الحمى ، تاه على دروب اخرى . لقد خيم الليل منذ ساعة . ولم تعد الغرفة مضاءة إلا ببهاء مصابيح الساحة ، لكن بشكل باهت لا يميز المرء فيه غير اغطية السرير .

قالت الفتاة على حين غرة :

ـ دعيني الآن ، يا فرناند . أريد أن أنام .

لم يكن ذلك صحيحا . لم يكن بوسعها أن تنام . فالصيحات التي تتردد في أذنيها اكثر من أن تحصى . والكواكب التي تسطع في الظلمة اكثر من أن تسمح للنوم بإغماض عينيها . لكنها كانت تريد البقاء وحدها من أجل أن تنهض وترتدي ثيابها . فتلك الفكرة التي شقت طريقها في ذهنها ببطء ، منذ أن غاب النهار ، ظلت تتعاظم حتى لانت أمامها الإرادة . لقد بدأت بالنسبة لها حياة غريبة ، فلا هي من عالم اليقظة ولا من عالم الأحلام . لكنها تستعير عناصرها من العالمين وتقوم بمزجها . فكل ما عرفته في العالم قد بدل اتجاهه . ما كان مستحيلا أضحى حقيقيا ولم يعد الزمن يفرض استبداده على الأفعال البشرية .

إنها الآن وحيدة ، تتلمس ماحولها بحثا عن ثيابها فترتديها قطعة قطعة . فالساعة تقترب . ليس عليها أن تتلكأ ، بل ينبغي لها أن تستفيد من تلك الفرصة القصيرة المتاحة لتغادر غرفتها وتترك البيت لتصل الى الطريق . سوف تمر من المطبخ . وإذا مارآها أحد وسألها عن حالها فسوف تجيب إنها بخير . وإن البابونج الذي أرغموها على شربه قبل قليل قد شفاها . كانت تردد ذلك لنفسها مع أشياء أخرى كثيرة ، وهي تتحرك في غرفتها وتصطدم بقطع الأثاث ، مثل امرأة أفرطت في الشراب ولم تعد تعرف أين الباب .

أما الوهن الكبير الذي أرغمها على أن تستند الى الجدار ، فقد أثار استغرابها . لاسيما أنها تشعر الآن بحاجة كبرى للنشاط ، بينما كانت قبل قليل تشعر بعجز شديد ، حتى أن التقاط نفسها تطلب منها كبير عناء . كان بودها أن تجري ، أن تثب فوق درجات السلم وهي تهبط . على نحو ماكانت تفعله فيما مضى .

لم يكن في المطبخ غير النادل جالساً يقرأ جريدته ويدخن . فنظر إليها وهم بالنهوض لكنها مرت من أمامه ، وقد تقززت من رائحة المطبخ ودفئه ، ثم خرجت .

لم تكد تغلق الباب وراءها حتى أوشكت أن تقع على العتبة الخارجية . فالهواء المتجمد صفعها ونفذ إليها من فمها المفتر . كانت تلهث دائخة ، ويداها ممدودتان الى أمام ، كأنها تبحث عن شيء تتمسك به وتتكىء عليه .

مشت في الشوارع المقفرة بخطى مضطربة متنقلة من جانب الى جانب ومن جادة لأخرى حتى بلغت الشارع الرئيس . كان قصدها أن تتوجه الى هناك ، تنفيذاً لذلك الأمر الغامض الذي يتردد داخلها منذ ساعات . إذا كان للسعادة من وجود فعليها أن تبحث عنها على هذا الطريق ، لا في تلك المدينة التي تغادرها الى الأبد . لقد أسعدها أخيراً ، بعد شهور من الغم ، أنها سترتحل . لن ترى مدام لوند من بعد ولازبائنها الذين تسببوا في عذابها . هناك من ينتظرها على الطريق . هناك من وعدها بأن ينتظرها . كانت الظلمة حالكة حتى لم يعد الوقت بعيداً عن السابعة والنصف . قيل لها في السابعة والنصف بين المصباحين الثالث والرابع بعد المعبر . وهاهي ذي في الموعد المضروب .

. . . . . .



بائع اللبن هــو الذي تولى نقلهــا في عربته . لقد أوشك حصانه أن يطأها بسنابكه ، لأنها كانت مرتمية على الأرض بلا حراك . كان هم مدام لوند الأول أن تمددها في السرير وتشعل في غرفتها نار حطب صغيرة. كانت تلك أول مرة تنعكس فيها ألسنة اللهب على حجارة ذلك الموقد ، لكن عناء مدام لوند كان بلاطائل .

بلا طائل أن يشع النور في تلك الغرفــة أو يعمّ الظلام ، وأن يكون قلب المرء قاسياً أو عامراً بالإحسان . فالعالم يتلاشى مثل حلم مزعج . ولم يبق من هذه الحياة غير الألم ، وجسدها مازال يحمل آثاره . لكن ذلك الألم نفسه أصبح ضئيلاً جداً ، فالروابط الأخيرة تقطعت . امــا الاختلاط الأقصى الذي عمّ كل الأشياء على الارض ، فلم يعد يصل منه الى تللك المرأة ، غير أصداء أصوات إنسانية خافتة من غير أن تلتقط معنــاها . لقــد شخصت عيناها الى الرؤيــا التي يتأملهــا الموتى على نحو أبدي .

كانون الثاني ١٩٢٨ ـ كانون الثاني ١٩٢٩

* * *









